وسائل نيل المجد الإسلامي

الإمام المجدد

السيد محمد ماضي أبو العزائم

أستاذ الشريعة الإسلامية بجامعة غردون بالسودان (ت 1937م)

الإهــــداء

- إلى الهمة العالية,والروح السامية، والمثل الأعلى,وصورة الرحمة, وينبوع الحكمة.
- إلى صاحب الفكر المستنير,والأذن الواعية, والقلب السليم.
- إلى من قادنا على الدرب بعد أن مهَّده,وأخذ بأيدينا وأقامنا عُمالاً لله تعالى فى حقل الدعوة إليه سبحانه.
- إلى صورة الحق, ولسان الصدق,وفيض الإخلاص, ومنهل العطاء.
- إلى سيدى ومولاى الإمام الشهيد عز الدين ماضى أبى العزائم أهدى هذا الكتاب, فلم أجد سواه مستحقاً لذلك الإهداء.

فسلام عليه، وعلى روحه الطيبة, وبدنه الطاهر.

الخليفة الثالث

السيد مُحَّد علاء الدين ماضى أبو العزائم

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

فاتحة الكتاب

الحمد لله أقرب من دُعى، وأسرع من أجاب، وأكرم من عفا، وأوسع من أعطى، وأسمع من سئل، يا رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما، ليس كمثلك مسئول، ولا سواك مأمول، دعوتك فأجبتنى،وسألتك فأعطيتنى، ورغبت إليك فرحمتنى, ووثقت بك فنجيتنى، وفزعت إليك فكفيتنى، اللهم فصلِّ على سيدنا مُحَّد عبدك ورسولك ونبيك، وعلى آله الطيبين الطاهرين أجمعين، وتمم لنا نعماءك، وهنئنا عطاءك, واكتبنا لك شاكرين، ولآلائك ذاكرين، آمين آمين رب العالمين.

وسلام الله تعالى على الإمام المجدد السيد مُحَّد ماضى أبى العزائم, وعن خليفته الأول السيد أحمد ماضى أبى العزائم, ونضر الله وجه خليفته الثانى السيد عز الدين ماضى أبى العزائم، آمين. وبعد.. فتقدم (دار الكتاب الصوفى) — وهى إحدى أنشطة مشيخة الطريقة العزمية – الطبعة الأولى من كتاب (وسائل نيل المجد الإسلامى) للإمام المجدد السيد مُحَّد ماضى أبى العزائم .

ولقد أملى الإمام المجدد هذا الكتاب على هيئة مقالات نشرت فى مجلة (السعادة الأبدية).

وكان يمكن ان تندثر هذه المقالات– خاصة أن الزمن تقادم على نشرها — لولا ما بذله سيدى السيد عز الدين ماضى أبو العزائم من جهد مشكور فى جمعها من مصادرها، والعناية بها، وتنظيمها وترتيبها على هذا النحو الذى جاء فيه الكتاب,وضم إليها العديد من الموضوعات التى أملاها الإمام المجدد ونشرت ضمن عدة كتب له، وذلك استكمالا لموضوع هذا الكتاب من جوانبه المتعددة، بحيث يقدم للقارئ المسلم فى ثوب قشيب جامع للمطلوب.

ويعتبر هذا الكتاب (وسائل نيل المجد الإسلامى) متممًا لسلسلة من الكتب تتصل بموضوعه, أملاها الإمام المجدد وهى كتاب (الإسلام دين الله وفطرته التى فطر الناس عليها) وكتاب (الإسلام نسب يوصل إلى رسول الله ﴿ﷺ﴾) وكتاب (الإسلام وطن والمسلمون جميعًا أهله) وقد قامت مشيخة الطريقة العزمية بطبع هذه الكتب مرات عديدة.

وكتاب (وسائل نيل المجد الإسلامى) يمثل الإجابة على سؤال يطرحه ضمير كل مسلم، وتنادى به كل الحقائق: كيف يعود المجد الإسلامى ؟ وبأى الوسائل ينال هذا المجد؟.

وهذا الكتاب يحتوى على تمهيد وستة أبواب وخاتمة.

ويتنـاول الإمـام المجـدد فى التمهيـد الحنـين لهـذا المجـد، وتـذكره، وأسـباب ضـياعه، وأن الشـدائد تـدفع الأمـة لليقظـة، وإن الصـلاح والسـلام بالإسـلام، ويطالـب المسـلمين بالعـودة إلى مـا كان عليه سلفنا الصالح.

وفى الباب الأول يتناول الوسيلة الأولى من وسائل نيل المجد الإسلامى وهى (الرجوع إلى الله) وينقسـم هـذا البـاب إلى فصلين، الفصـل الأول تنـاول قيـه موضـوع إقامـة الحـدود، وفى الفصـل الثانى موضوع نصرة الحق.

وفى الباب الثانى يتكلم عن الوسيلة الثانية وهى (الرجال العاملون) حيث يبين أن الأمة يجب عليها أن تبحث عن القائد الحكيم المصلح،ويبين خِصَال الزعماء المصلحين

الذين يعيدون للأمة مجدها، ويبين أخلاق الولاة فى عهد السلف الصالح ليكون نبراسًا للولاة من بعدهم.

أما فى الباب الثالث فيقرر الإمام أن الوسيلة الثالثة هى (عودة الخلافة الإسلامية) ويبينّ الواجب على الخليفة, ويعرِّف الإمامة، والواجب للإمام الأعظم على كل فرد من أفراد المسلمين وعلى جماعتهم, ووجوب طاعة الأمير, وأن الإمـام لا يكـون إلا واحـدا شرعًا، وأن طاعته واجبة مادام عاملا بالكتاب والسنة، ثم يكشـف السـتار عـن الدسـائس التـى يدسـها الشـيطان لتفرقـة أهـل الإيمـان، ويبين أن الإصرار شر الآراء, وأن الرجـوع إلى الحـق أحـق, وأن اليقظـة بشـير النصر، وأن طالب الحق لا ييأس من نيله,ثم يختم هذا الباب بكلامه عن الإس–لام والسياسة.

ثم يتناول الإمام المجدد فى الباب الرابع الوسيلة الرابعة وهى (العدل والحرية) حيث يبين أنه ليس المِلِك من مَلَكَ ٱلأجسام، وأن العدل أساس الملك، وأن الملك لا يدوم مع الظلم، وأن القـرآن هـو الدسـتور الحـق الـذى يمـلأ الأرض بالعـدل، ثم يتنـاول الحريـة الحـق وأثرهـا فى النفـوس البشرية, وبم تنال, ويبيِّن أن الظلم مرتعه وخيم, ويبيِّن رحمة المسلمين بأهل ذمتهم.

ثم تناول فى الباب الخامس الوسيلة الخامسة وهى (العلم والعمل) ويبينّ أن الإسلام هو دين العلم والعمل، وأن كل المخترعات كانت بالإسلام وبعده، ويبين حال المجتمع الإنسانى قبل الإسلام، وأثر الإسلام على تقدم الإنسانية، وفضل الإسلام على أوربا وأمريكا، وأن أوروبا تركت دينها فتقدمت، وتركنا نحن ديننا فتأخرنا، وما هى الفائدة الدينية من تعليم العلوم العصرية, وأن أوربا تفوقت على الجاهلية الأولى.

أما فى الباب السادس فيتناول الإمام الوسيلة السادسة لنيل المجد الإسلامى وهى (اللغة العربية) حيث أن شرف اللغة العربية بالقرآن، ويدعو المسلمين جميعًا إلى تعميم اللغة العربية, ويبيّن فوائد ذلك للأمة الإسلامية خاصة، وللمجتمع الإنسانى عامة.

وفى الخاتمة يبينّ الإمام المجدد أنه بالجد نيل المجد,وأنه بالرجوع إلى الله تعالى وبالإتحاد يعود لنا هذا المجد,وأن الساعى فى التفرقة شر الخلق,وأن المجتمع الإسلامى كالجسد الواحد، وأننا إنما نسعد بما سعد به سلفنا الصالح, وما هو الواجب على المسلمين الآن.

وباستقراء هذه الأبواب والفصول والموضوعات، نجد أن الإمام المجدد قد وضع إطارًا عامًا للوسائل التى بها يعود المجد الإسلامى كما كان فى عهد السلف الصالح رضى الله عنهم، ويضع بين دفتى هذا الكتاب علاجًا ناجعًا لأمراض المسلمين فى هذا العصر، ويبصِّرنا بنوايا أعدائنا وأساليبهم، ويطالبنا أن نقوم من نومة الغفلة ورقدة الجهالة.

والله تعالى أسأل أن يكون فى ذلك مزيد بيان وعلم يوقف الأمة الإسلامية على جلية الحقيقة، وينبه قواها لمعرفة ما يحيق بها من أخطار تتمثل فى أن أممًا ملحدة وكافرة وضالة ومبدِّلة اختلفت فيما بينها، ولكنها اتحدت على معاداة الإسلام والنيل منه، والعمل لإضعافه وإهلاك أهله، والقضاء عليه.

كما أسأل الله تعالى أن يجعل مادة هذا الكتاب معينة للمسلمين على جمع شملهم، وتوحيد كلمتهم، والوقوف صفًا واحدًا أمام الأخطار والمضار, متخلقين بأخلاق السلف الصالح من الصحابة والتابعين رضى الله عنهم أجمعين، وأن نكون من أهل البشرى فى قوله تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾النور: ٥٥ والله سبحانه وتعالى هو الموفق الهادى إلى سواء السبيل، وهو حسبنا ونعم الوكيل، نعم المولى ونعم النصير، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، وصلى الله على سيدنا مُحَّد وعلى آله وصحبه وسلم.

تمهيد

الحنين إلى المجد

يحق للنفس الإنسانية أن تحن إلى المجد, حنين الظمآن إلى الماء فى اليوم الصائف فى الصحراء,وكيف لا والمجد حياة النفوس ؟ وكيف يرضى الإنسان بالحياة البهيمية، التى هى بهجتها الأكل والشرب والنكاح ؟ بل هى أدنى من حياة البهائم، فإن بعض الحيوانات يشعر بالحياة الحقيقية التى تشبه الحياة الإنسانية، فترى الكلب يفضل المدافعة عن أصحابه وهو جائع، فينسى شهوة الأكل، والديك يفضل المدافعة عن الدجاج إذا رأى ديكا آخر، حتى يسيل دمه، ولا يحس بالألم، ولا بالجوع، وهما أدنى الحيوانات، ومن أنواع الحيوانات ما يشعر باللذة المعنوية, كالخيل فى المسابقة، ويلتحق بها الحمير والبغال، وإذا كانت تلك الأنواع الدنيئة تستعلى فيها على ملاذ الحس فالإنسان أولى.

لا عجب، إذا كانت تلك الفطرة تستعلى في البهائم، إذا ظهرت في الإنسان فأخرجته عن الوسط حرصاً على المجد الذي هو ضالته المنشودة، لأن الإنسان في الحقيقة خلقه الله حراً، مريدا، وتلك الحقيقة مهما أخفتها العوامل القوية بعامل السحر، أو الخديعة أو الشعوذة، أو القوة القاهرة بالظلم، والعلو بغير الحق، فإنها لا تلبث إلا ريثما تتنبه تلك الحقيقة – بسبب تلك العوامل – إلى أمنيتها التي سلبها منها العاملون لنفعهم الخاص، فتأبى تلك النفوس إلا نيل المجد، ولو ببذل الرؤوس، وإن لتلك الغاية خمرة، تجعل الجبان شجاعاً والبخيل كريماً، والخامل نابها، حتى تكون عظائم الأمور صغيرة في نظره، والرجل المهيب محتقراً أمامه.

لأن الإنسان فى الحقيقة إما يخدعه الأمل، فلا ترى إنسانا يسعى لنفع غيره بضرر نفسه، مهما كانت درجته، ولكنه يسعى لنفع غيره، طامعاً في نيل ما هو خير مما قام به، ومتى تحقق الولد بأن والده لا يحب له الخير، حاربه ولو بأمضى السلاح، ومتى ظهر للوالدة أن ابنها الوحيد يخدعها ليسلب مالها، تبرأت منه، وهي البارة الرحيمة الشفيقة، تلك الحقيقة لا يجهلها إلا ظالم يتعجل نقمة الله، أو أحمق يتخبط في مهاوى الهلاك، أما الظالم فإنه بظلمه يرى نفسه فوق النوع الإنساني، وهو كاذب مغرور، وأما الأحمق فإنه يضع الأشياء في غير موضعها، وأعمالها مدارج الخيبة، ومهاوى الذل. إذا تقرر ذلك، فلابد لرئيس العائلة — ولو كان والدها — أن يسارع إلى محو الظلم والتظالم، والعمل بالإنصاف والتناصف معتقداً أن هذا يحفظ له سيادته، ومجداً لعائلته — ولو ناله في سبيل ذلك الآلام والشدائد — وإن العائلة تمثل الأمة المستقلة تمام

الاستقلال: يكون الوالد ملكا، والأبناء وزراء، وعمال، وأعوان، وفعلة، كل فرد منهم يسعى لخير جميع العائلة، بذلك يدوم لهم المجد.

وإنا لنرى الوالد وابنه في ألد الخصام، والرجل وأخاه فلا نعجب، فكيف نعجب إذا رأينا مجتمعاً يحب نيل هذا المجد، فيكون حراً، مريداً، عاملا لخيره، هذا عمل يفرح الحكماء الرحماء المريدين لخير بنى الإنسان، الساعين في الصلح والإصلاح، أقول كلمتي هذه، وسأورد الأمثلة المفصلة لهذا الإجمال من بطون التاريخ – إن شاء الله تعالى – بعد هذا.

تذكر المجد:

تذكر المسلم فذكر، واستحضر فحضر، فلحظ نور العزة والتمكين في الأرض بالحق والمسرات التي كانت لسلفه، حينما كان متمسكا بالكتاب والسنة. تذكر الأندلس وفخامة المسلمين فيها، ونور صناعاتها وفنونها، وأضواء علومها التى انتشرت على أرض الظلمات في أوربا، فأحيت الأحجار، وأقامتها تزاحم أنجم السماء. تذكر المسلم مجد بغداد ودمشق، وإسلامبول، وتلك الأنوار التى كانت تسطع منها على العالم أجمع، لانتشار الحرية والعدل، والإرادة والمساواة، وانتشال العالم من ظلمات الكفر، ومن ظلم الاستعباد والاستبداد، ثم بحث: بم كانت ؟ وكيف كانت ؟ وبم ذهبت ؟ وكيف زالت ؟ فظهر له أنها كانت بالعمل بالكتاب والسنة، وزالت بإهمال العمل بهما، فحنَّ، وقليل عليه أن يبكى، وعرف عدوه الذى غره، وخصمه الذى خدعه فضيعه، فتنبه من نومة الجهالة، ورقدة الغفلة.

أسباب ضياع المجد:

إنا – جماعة المسلمين – أسعدنا الله تعالى أولا برسول الله ﴿ﷺ﴾، فأنقذنا به من الكفر إلى الإيمان، ومن الجهالة العمياء إلى العلم الذي به عرفنا أنفسنا، وعرفنا ربنا، إلى أن بلغنا من العزة والمجد والتمكين في الأرض بحسن الاقتداء به، مبلغا سخر الله لنا به عوالم ملكه وملكوته، وأقامنا به مقام الخلفاء عنه سبحانه. محا بنا الكفر والضلال، والبدع والظلم، وأدام لنا هذا المجد والعز بمزيد من فضله، حتى لم يبق على وجه الأرض عز ولا سلطان إلا للقرآن، فأصبح العالم أجمع: إما أهل ذمة لله ورسوله، أو معاهدون لنا.

نما هذا المجد، وانتشر النور بما أقامنا الله فيه من الإخلاص لذاته، والصدق في معاملته، والعمل بسنة نبيه ﴿ﷺ﴾، وكانت الأمة الإسلامية إذ ذاك، كل فرد منها موجه وجهه إلى الله

تعالى، عاملا للخير العام، غيورا لله على من خالف السنة، وكان الحاكم عليها القرآن والسنة، ومن أقام حدود الله، وحافظ على كتابه، ونفذ أحكام شريعته، فلم يكن يضرنا إذ ذاك تنقل الخلافة من قبيلة لأخرى، أو من عربى لتركى، لأن الأمة بأجمعها مقبلة على الله عاملة بوصايا رسول الله ﴿ﷺ﴾، حتى فتحت الدنيا، فتنافسوها كما تنافسها الأمم السابقة، فاضطروا — لحبهم الدنيا إلى مخالفة الوصايا الشرعية، وإلى تعدى الحدود، وصار كل فرد يعمل لنفسه من غير رعاية لأحكام الله ولا رحمة بأخيه، ولا خوف من يوم الحساب، فتحوا بهذا العمل على أنفسهم بابا من الشرور، دعا إليه ارتكاب الآثام والتحاسد، فأهملوا إقامة الحدود، وتهاونوا بأحكام القرآن، حرصا على الدنيا، وبخلا بالأنفاس أن يعمروها بالطاعة، فسلطهم الله على بعضهم، فلم يعتبروا فتفرقوا، والله تعالى يقول: ﴿وَلاَ تَفَرَّقُواْ﴾[1].

دعاهم هذا التنافس إلى أن صاروا أحزابا وشيعا، وتركوا الحق وراء ظهورهم، فتركهم الحق، ووكلهم إلى أنفسهم، وطمع فيهم من كان يهابهم، وتمكن منهم من كانوا عبيداً لهم وسرعان ما تناسوا هذا المجد، وغفلوا عن وسائله التى بها وصلوا إليه وهي العمل بكتاب الله، والمحافظة على وصايا رسول الله، والاقتداء بهدى أئمة السلف الصالح، فانتشرت تلك الأمراض في جسد المجتمع الإسلامى، فظهر أهل الباطل على أهل الحق، وصار القابض على دينه كالقابض على الجمر.

وقام خطباء الفتنة وعلماء الدنيا يحسنون للأمراء والأغنياء ما قبحه الله تعالى، ويحتقرون أهل التقوى، حتى نشروا على صفحات الجرائد المنتشرة ما يغضب الله ورسوله، من أعمال الأمم الأجنبية، وجعلوها فلسفة وحكمة، وحضارة ورقيا، وأنساهم الشيطان أنوار القرآن، وحكمة رسول الله ﴿ﷺ﴾، وآثار سلفنا الصالح، فقتلوا الشعور الإسلامى، وستروا عن العقول كمالاته، وأخفوا فضائله، حتى أصبح أكثر المسلمين لا همَّ لهم إلا تحصيل زخرف الدنيا، والتجمل بتلك الرذائل، فاستبدلوا العفة بالتهتك، والاقتصاد بالإسراف، والاستقامة بالضلال، أباحوا الخمور، وانتشرت علنا في الأسواق، وشربت في نهار رمضان، وانتشرت العهارة أكثر مما كانت فى الجاهلية، وظهرت حتى خصص لها أماكن معلومة، يقصدها المسلمون للزنى في المسلمات، فيدخل المسلم على المسلمة فى دار مشهورة، يشرب الخمرة، ويزنى وجندى يحرسه.

---

(1) سورة آل عمران آية 103.

وقد ألف القوم هذا المنظر المحزن، بل يتوجه المسلم إلى الحانة، فيرى المسلمة ترقص أمامه وأمام غيره من الأجانب فيسر ويعينها بالمال وكأن العيون الإسلامية بدلت بعيون بهيمية، بل البهيم أعلى شرفا، فإن ديك الدجاج، وذكر الحمام، بل والحمار، تأبى نفسه الحمارية أن يرى حمارا ذكرا في مثل هذا الموطن، فعجبا !! كيف ينحط الإنسان إلى أن صار أقل من البهيم ؟! انتشر الربا حتى صار خير ما يعامل المسلم به أخاه،فتري المسلم يقف أمام القاضي لا يستحي من الله ولا من الناس،فيسلب مال أخيه، ويتركه جائعا بما تراكم عليه من الربا، كأن القلوب الإسلامية صارت شيطانية. فشا الميسر حتى صار المسلم يغتصب مال أخيه حراما، فيتركه فقيرا لا يملك قطميرا، فلا يرحمه، فأين الفضيلة الإسلامية ؟ وأين الرحمة الإيمانية ؟ إن بعض تلك الأعمال يجازى بها الإنسان بالمسخ، أو بالخسف فسبحان الحليم الذي لا يعجل بالعقوبة على من عصاه !.

أيها المسلم: إن كنت نسيت القرآن ووعده ووعيده، وخالفت وصايا نبيك الرءوف الرحيم بك، أما كنت تعتبر بتلك المصائب الفادحة ؟ لو أن المخالفة حفظت للمخالف صحته، أو جددت له مجدا، أو مكنته من عدوه، أو حفظت له ماله وملكه، لكان له العذر، لكنه — ولا حول ولا قوة إلا بالله — بمخالفته أضاع ماله، وعافيته، وعزه، ومكن العدو منه، وأغضب ربه، ونبيه ﴿ﷺ﴾ وأساء إلى أولاده وقومه، وتوالت عليه المصائب كلها وهو يجهل الوسائل التى تزيلها، أعوذ بالله من سوء القضاء !؟.

أضاع المجد الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا:

قال الله تعالي: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ الأنعام: ١٥٩

معلوم أن الله تعالي أرسل رسوله ﴿ﷺ﴾ رحمة للعالمين، فبين ﴿ﷺ﴾ للناس بيان الحريص علي العالم الرءوف الرحيم بالمؤمنين، فلم يتضع لهذا البيان الجلي أهل الكفر بالله،فحزن ﴿ﷺ﴾حتي كادت تذهب نفسه عليهم حسرات، من الرحمة بهم، فعطف الله عليه حبا ورحمة فقال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍۚ ﴾ الأنعام: ١٥٩ وقال سبحانه: ﴿ طه مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴾ طه: ١ - ٢ وقال تعالي: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ الكهف: ٦

وكلمة (فرقوا) قرأها علي عليه السلام:فارقوا،وفرقوا وفارقوا بمعني واحدة، فإن من ترك العمل بشئ من الدين فرقه وفارقه، كتارك الصلاة عمدا، والمكذب بالقدر،فإنه فرق الدين وفارقه، وبقى علينا أن نعلم من هم الذين فرقوا دينهم قال بعض الصحابة: هم أهل الكتاب،وقال بعضهم: هم أهل البدع والضلالة من الأمة فكأن الله تعالي يثبت فؤاد حبيبه ﴿ﷺ﴾ بهذا الخبر الذي يفيد براءته ﴿ﷺ﴾ ممن سبقه من المفارقين الحق وممن كانوا في عصره ممن فرقوا دينه، كالذين قالوا نؤمن ببعض الكتاب ونكفر ببعض ولا خلاف بين أصحاب رسول الله ﴿ﷺ﴾ في تفسير الآية بأهل الكتاب وغيرهم ممن فارقوا الحق، أو بالمبتدعين المضلين من الأمة، فإن من فسر الآية بأهل الكتابين حكم علي أهل البدع المضلة بالتفرقة، وقد روي ابن جرير بسنده عن أبي هريرة قال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍۚ ﴾ الأنعام: ١٥٩ (وليسوا منك) هم أهل البدع وأهل الشبهات وأهل الضلالة من هذه الأمة

إذا تقرر ذلك فمعنى الآية – والله أعلم – أنها خبر من الله تعالى، أخبر به نبيه ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ أنه برئ ممن فارق دينه الحق، فكانوا فرقا وشيعا، أو فارقه بالردة بعد الإسلام أو عدم قبول الإسلام، وأنه ليس منهم وليسوا منه، وهؤلاء هم كل الملل و النحل الذين لم يكونوا على ما كان عليه رسول الله ﴿ﷺ﴾ وأصحابه، سواء كانوا من الكفار أو من الزنادقة والمبتدعة وعلماء السوء وملحدة المتفلسفة والشاطحين من المنتسبين كذبا إلى أئمة الهدى الصوفية، كل هؤلاء فرسول الله ﴿ﷺ﴾ برئ منهم.

أما الكفار بالله فإن لهم لونا واحداً هو الكفر. وقد بين الله لنا جلى البيان فيهم ولم يبق إلا أهل البدع المضلة الذين يحسبون أنهم يحسنون صنعا وهم فى الحقيقة أعوان الشيطان وأنصار الباطل، وهم أنواع كثيرة حصروا فى اثنتين وسبعين فرقه اختلفوا بحسب تفاوت جواهر النفوس والشرور، وهم الذين فرقوا دينهم فبعضهم عمل بشئ من الدين وترك شيئا، أو جعل المرغب فيه فى منزلة الواجب، وقام ففرق المجتمع وبعضهم يزيد شيئا من عنده على الدين فيراها أتباعه فوق الفرائض ويجعلونها دينا ويفارقون الجماعة، وبعضهم يكفر المسلمين بترك فضيلة لا تضر ولا تنفع، وبعضهم يسمع كلام العلماء من أهل المعرفة فيتأوله بجهالة فيقع فى الكفر من حيث لا يعلم، ويتخذ فهمه دينا ويفارق الحق، وهؤلاء هم أضل الخلق على المسلمين.

ومن تأويلاتهم: أن أهل العلم بالله يتكلمون عن الله تعالى لإظهار إحسانه وكرمه وحكمة آياته فى الكائنات، فيتأولون أن المتكلم يعنى نفسه وأنه هو الرب لجهالتهم، كما يقول بعض العارفين فى مقام بيان قدرة الله وحكمته: خلقت كل شئ بقدرتى وجملته بالآيات إظهارا لحكمتى فأنا القادر الحكيم، وأنت أيها العبد لم تكن شيئا. فيظنون لجهالتهم أنه يتكلم عن نفسه مع أن الله تعالى تكلم عن العبيد فقال سبحانه وتعالى: ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِى لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ ﴾ آل عمران: ١٩٣ فهل صار الرب عبدا لأنه تكلم عن عبيده ؟ اللهم امنحناَ العلم. وكم أفسد أهل البدع المضلة رجالا من أهل الصلاح، وكل هؤلاء لاحظ لهم في الإسلام إلا أن يتوب عليهم فيتوبوا.

وشر تلك الطوائف هم الحلولية الذين يأخذون ما تشابه من كلام الله ومن كلام رسول الله ومن كلام العلماء بالله ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، فيفسدون العقائد والعقول بزخرف القول غرورا، فمنهم من يفسد العقول بالمخدرات كالعنبر والأفيون والبنج والحشيش، ثم يلقى على من خدعه الكفر فيضله، ومنهم من يفسد الخيالات بالرياضة التى تفسد العقول، ولديها يموه عليهم حتى يعتقد أنه رب أو أنه يفعل ما يشاء، أو أنه ينفع يوم القيامة، وأهل الشعوذة الذين يوهمون الناس أنهم أولياء بأعمال أشبه بالسحر والكهانة، هؤلاء لو أنهم تذكروا الموت وعذاب القبر وشدة الحساب لتمنوا أن يكونوا ترابا، ولم يحاربوا الله ورسوله هذه الحرب ولكن (قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ) [1] زينت له الحياة الدنيا فأهلك نفسه بها.

الذين يفرقون الدين ويحسبون أنهم من المسلمين:

إن الآية هى خبر ومعجزة، أما كونها خبر فقد ورد في القرآن المجيد أنواع البدع المضلة التي كانت في عصره من أعمال المنافقين واختلاف ضلالاتهم، وأنواع كفرهم، فأثبت أن الإيمان لون واحد وأن البدع ألوان عددها في (البقرة) وفي سورة (براءة)، وهى معجزة لأنه سبحانه أخبر أن يكون بعده ﴿ﷺ﴾ من يفرقون الدين وهم يحسبون أنهم من المسلمين وليسوا منهم، ولا يتجدد زمان إلا وتظهر فيه شيع جديدة وفرق مضلة كما تجدد أنواع الفواكه والأزهار بالتلقيح

(1) سورة عبس آية 17.

والازدواج فكذلك تتفرع البدع بعضها من بعض بالتعصب للمبتدعين أو بمعاندتهم ولا تكاد ترى بلدا إلا وينبت فيها قرن للشيطان، إما لإظهار الباطل لأن نفوسهم خبيثة، أما لإفساد العقول بالشعبذة وطرق الكهانة سلبا للأموال وعلوا في الأرض بالباطل.

من خالف الكتاب والسنة فقد فارق الدين:

اعلم أن الحق أبلج والباطل لجلج، وأن الله تعالى بين لنا الصراط المستقيم، بقول رسول الله ﴿ﷺ﴾ وعمله وحاله بيانا قطع كل عذر، فصار أحقر مسلم يعلم بالضرورة أركان الإسلام وعقائده، ويعتقد أن كل ما خالف كتاب الله وسنة رسوله ﴿ﷺ﴾ ضلال، فالميزان هو الكتاب والسنة وكل ما خالفهما مفارق للدين، ولو أن المخالف مشى على الماء، أو أخبر بالغيب فإن الله تعالى لا يتفضل بالكرامة على أهل البدع ولكن يستدرجهم، قال تعالى: (قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا) [1] . وإنك ترى الإنسان قد طار في الجو، وغاص في البحر، وتكلم وهو في السودان مع من في مصر، وهذا لا يعد كرامة، والكرامة: هى الاستقامة وتعظيم أحكام الله تعالى وسنة رسوله ﴿ﷺ﴾.

التفرقة جعلتنا عبيداً لمن كانوا أرقاء لنا:

سبب الاستعباد لغير الله – يا قوم – التفرقة التى دعا إليها الحرص على مشتهيات تستنكف منها البهائم، فإن البهائم لو قدم لها غير ما ألفته من العلف تركته، بل ولا يأتى الذكر الأنثى إلا إذا طلبته، وكانت خالية من الحمل والرضاع، ويكره أن يغير مسكنه، وما اعتاده من اللباس والفراش ابتهاجا باللذة النفسانية التى يجدها بالعزة فى غابته، أو في كهفه، أو فى وكره، أو جحره وعشه، ولكن الإنسان الذى استعبدته شهوة البطن والفرج، وخدعه بهى الثياب وزخرفة المكان، استعلت شهوته البهيمية على بهجته النفسانية, فرضى أن يكون متمتعا بالشهوات, مستعبدا فى حسرات التفرقة.

يا قوم: التفرقة هى الجيش الذى جنده أرسطو لتمكين إسكندر المقدونى من قهر الملوك لسلب الملك. كتب إسكندر إلي أرسطو بما معناه: إنى باتباع وصاياك تمكنت من قهر ملك

---

(1)سورة مريم آيه 75

الفرس، واستوليت علي مملكته، ولكنك تعلم قلة جندى، وبعد الشقة،وهم رجال طوال الأجسام كبار الرؤوس أهل جرأة وشجاعة ؛ فزودني برأيك فيهم، فكتب إليه بما معناه:

ألبس كل كبير مدينة تاجا وسمه ملكا وأمره بما شئت وأسرع بالسفر وارجع إليهم تجد ما يسرك، فنفذ إسكندر وصية معلمه، فاستعرت شرارة الحسد في جمر الطمع، ودارت رحى الحرب بينهم جميعا، فأهلك بعضهم بعضا،وبقى أذناب كالبهائم السائمة يكفيهم من الدنيا ملء بطونهم، وستر عوراتهم، وهذا هو السلاح الذى يضرب به الغرب الشرق.

بالاتحاد يعود المجد، ويقهر الضد، بالاتحاد سعادة المجتمع والأفراد، وتحصيل الخير العام وحفظه إلي أبد الآباد، وليس بيننا وبين الاتحاد إلا أن نتذكر — والذكرى تنفع المؤمنين — لنعلم مضار التفرقة، فنكره حظوظنا وأهواءنا وملاذنا التى تدعو إلي التفرقة، ونكون جسدا واحدا يعمل كل فرد منا لخير المجتمع بقدر نفسه، كما يعمل كل عضو لخير الجسد، وللجسد قلب ورأس وجذع وأطراف، ولكل عضو عمل خاص به. ومتى تفرقت الأعضاء هلك الجسد وأعضاؤه، فالأعضاء تنفع الجسد، والجسد ينفعها، وأكبر الجهاد جهاد النفس، ومن قهرته نفسه أن يجاهدها كيف يجاهد غيرها ؟ وقد لاح للأبصار وميض برق الاتحاد فقوى الأمل، وآن وقت العمل، والله لا يضيع أجرمن أحسن عملا.

التنافس في الخير صفة المؤمنين... والتنازع صفة الوحوش والشياطين:

كلنا نعلم أن الإنسان الصحيح القوى إذا مرض منه عضو تداعى له بقية الجسد بالسهر والحمى، فيحبس العضو المريض الجسد كله عن العمل، ويفسد عليه أخلاقه وآدابه، حتى يصير ثقيلا علي أحب الناس إليه مهما كان ذلك العضو المريض.

والمجتمع . كالجسد الواحد، وكل عضو ككل فرد، فالقلب في الجسم كالأمير في المجتمع، والكبد كالوزير، والرأس وما حوى كوزارة الداخلية، والبطن وما وعى كوزارة المالية، التى تحصل المال وتنفقه، فإذا كان مرض العضو ولو طرف الإصبع يضر جميع الجسد، فكيف إذا مرض القلب ؟ حفظ الله المجتمع من مرض التفرقة التى ينتجها الطمع أو الحسد أو الحرص.

فطر الإنسان علي التنافس، بل فطر كل كائن حى علي التنازع، فالحرب قائمة سجالا حتى بين النباتات وبعضها، فترى الزراع يقتلعون كثيرا من النباتات المتكاثفة دفعا لمضار الحروب التنازعية بينها، فالتنافس في الإنسان كالتنازع في الحيوانات والنباتات.

وبالتنافس يبلغ الإنسان كماله الذى به يحصل الخير الحقيقي لنفسه وللمجتمع، بقدر منزلته في الأمة، كنسبة الأعضاء في الجسد،فمن حرم التنافس حرم الخير،ولكن التنافس حد وسط إذا تعداه الإنسان سقط فصار شرا من الشيطان، وأضر من الثعبان، والواجب علي المجتمع الحجر عليه خوفا منه علي غيره.

التنافس هو المسارعة إلي عمل الفضائل التى يكون بها الإنسان عاملا للخير الخاص والعام، محبوبا بين أهله والناس أجمعين،يتلذذ بالآلام في الأعمال فرحا بما يناله إخوته من الخير والآمال،يفرح بالملاذ الروحانية،من إغاثة الملهوف،وإعانة المحتاج،ودفع الظلم والتظالم عن غيره،ودفع ما لديه لأهل الفاقة،يبغض ما يؤذى الناس من نفسه، ويستر عورات الناس،ويكره العجب والكبر والرياسة والسيادة قال تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ المطففين: ٢٦.

والتنازع فطرة الوحوش الكاسرة، وصفة الشياطين،وعمل الجاحدين بالله،كلنا نحب التنافس في الفضائل،ونكره التنازع في الرذائل،ولكنا قد نهمل تحصيل العلم النافع حتى نجهل الفرق بين التنازع والتنافس،فتنقلب الحقائق في أعيننا،فنرى الشر خيرا، والخير شرا، ولا أدل علي ذلك مما نحن فيه.

قال العربي:

يقضى علي المرء في أيام محنته حتى يرى حسنا ما ليس بالحسن

والواجب علينا أن نتدارك الأمر بالرجوع إلى الحق، فإن الحق فوق الخلق، وخصوصا في وقت الشدائد الفادحة التى يتعين علينا فيها التعاون عل البر والتقوى، لأن مقصد الأمة واحد، وهو أن تعيش حرة مريدة مستقلة.

الشدائد تدفع الأمة لليقظة:

إن الله تعالى قدر الشدائد لينفع بها بنى الإنسان بما تدعوه إليه الشدائد من استعمال العقل والجوارح في التخلص منها،وكم أضر الرخاء أمة فأزال عنها الملك والنعمة لاعتمادها على ما فى يدها من الذخائر الموروثة، ومن الكلمة النافذة، فلا تلبث إلا وقد داهمتها الشدائد، فأيقظتها

من نومة الغفلة، ورقدة الجهالة، فهبت هبوب الريح لاسترجاع مجدها، ورد ما اغتصبه العدو منها، ولولا الشدة لما قامت من رقدتها، لذلك يقول تعالى: (إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا) [1].

قام الإسلام بالشرق فرفعه إلى أوج السعادة بالعلم والرحمة والعدل والصناعات، حتى أشبه الشرق عائلة مكونة من والد رحيم، وأبناء بررة، تمتع بهذا الخير العام المسلم وأهل ذمة الله ورسوله قرونا طويلة، حتى تركوا العمل بالإسلام، وأوربا وأمريكا وأستراليا والجزائر الأوقيانوسية فى ظلمات الجهالة وضيق العيش فأيقظها المسلمون فى الأندلس وغيرها، ففتحت لهم أبواب منازعة الحياة، وقاموا في الحروب الصليبية فجددوا للمسلمين بعملهم يقظة، ردوا بها الأعداء خاسئين، ثم ترك الشرق العمل بالإسلام فهجمت عليهم أوروبا بعد ما أيقظها ما رأته في الشرق من الصناعات والفنون والتجارات تحمل أمتعة الكيد، وبضائع الخداع فتظهر التجارة والإصلاح، وتخفى في نفسها ما أظهرته الأيام، وقد اشتدت وطأة الغرب علي الشرق ظلما وبغيا، وكان المسلمون علي الغرب رحمة وعدلا، و الشيء إذا بلغ نهاية حده رجع إلي ضده، وها نحن في نهاية العسر وبعد العسر يسر.

هم يقهروننا بغواصاتهم وطياراتهم ورشاشاتهم،حتى تحققنا أنه لا يرضيهم إلا إبادتنا، ونحن نقهرهم باعتقادنا أنهم شر أعدائنا،واتحادنا علي نيل الخير الذى اغتصبوه منا.

وأى شرقي يعمل لهذا ولو أظهر موالاتهم، وسارع فيهم. وأى شرقي يرى أمة تغتصب حقوق قومه بلهيب النار ويخلص لها ؟ ومن علامات الخيبة تصديق العدو فردا من أفراد عائلة يحاربها، والحقيقة أنه يواليه بظاهره، ويعاديه بقلبه،والعسر ينتج اليسر.

متى يكون اختلاف الآراء مفيدا ؟:

الاختلاف كله ضرر إذا تعددت القصود، والتفرقة كلها شرور إذا اختلفت المطالب، ومتى تعين المقصد وتحقق المطلب، وجبت الشورى، واختلاف الآراء لتتضح الوسيلة لنيل القصد بالحجة البينة،فاختلاف الآراء في هذا الموضع خير،خصوصاً إذا تجرد رجال الشورى من العلل النفسانية والغايات الدنية وحب الأثرة، فإن رجال الشورى وإن قل عددهم كالأعضاء العامة

---

(1)سورة الشرح آية 6

للجسد الطويل العريض،لأن كل عضو في الجسد يعمل لنفعه العام، وليس بعد فادح الحادث وطول التجربة إرشاد لمسترشد، والقوة في كل شيء بقدر تماسك أجزائه.

ومعلوم أن أعظم القصود ينال إذا اجتمع علي طلبه فئة من الناس وإن قلت، وما ضاع حق أجمع أهله علي طلبه، وما نيل حق تفرق أهله في طلبه، والرزق نوعان رزق النفوس، ورزق الأجسام، فمن شغله رزق جسمه من مأكل ومشرب وملبس ومأوى ؛عن رزق نفسه من العلم والشرف والتمتع بالحقوق الإنسانية التى بدونها لا يكون الإنسان إنسانا، بل حيوانا مسخرا لغيره لا يعد من النوع الإنسانى، وإن الحرص علي طلب قوت النفوس أولي للإنسان من الحرص علي نيل قوت الأشباح، وكيف يرجو الإنسان أن يحيا حياة البهائم مفقودا لذة الضمير كالآلة المسخرة في يد غيره،والله خلقه حراً مريداً ليس فوقه إلا هو سبحانه وتعالي،أو من قام له مقام الوالد.

الشفيق يسير به محسنا ليبلغ به درجة الرشد قال الله تعالي: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ النساء: ٥٩.

التفرقة سلبت مجدنا ومكنت منا عدونا:

ميز الله النوع الإنسانى بما به سخر له ما في السموات وما في الأرض جميعا منه، وصرفه سبحانه وتعالى في كل شيء خلقه، وجعل له عقلا يعقل به الحقائق، وفكرا يسبح به في محيط هذا الوجود،فتنكشف به خواص المادة التى أودعها سبحانه في كنوز الكائنات، لا فرق بين المؤمن والكافر في نيل هذا الخير العاجل، ومن نظر بعين هذا الفكر إلي الإنسان من أول نشأته يعلم مقدار ما وصل إليه هذا الفكر الإنسانى من تحصيل النفائس التى خزنها الله له في جميع الأنواع المحيطة به.

انظر إلى الإنسان تراه من بداوة تصارعه فيها البهائم التى قهرها وصارت داجنة لديه، كالإبل والخيل والبغال والحمير، بل والضأن والماعز، بل وأنواع الطيور الداجنة،حتى بلغ الإنسان بهذا الفكر مبلغا قهر به الوحوش في غابتها، وجعلها زينة له في الحدائق،ثم قهر الحديد والنار واخترع بهما ما به صار قادرا على الأرض وما فيها،ثم تطاول بتلك المخترعات إلي أن يقدر علي من في الأرض من الأناسى ظلما وعلوا وجهلا بالقهار،الذى خلق الإنسان ومنحه الحرية والاستقلال،ومنح فيه من قوة الإرادة ما يجعله يستنكف سفاسفها، حتى تقهر اللذة الروحانية من حب الشرف والعزة بالله تعالى والمسارعة إلي التشبه بالأخيار،تقهر تلك اللذة الروحانية الملاذ

والشهوات الجسمانية فيكون المؤمن وسطا بين الأطهار من الملائكة وبين الحيوانات، يعقل عن الله تعالي الحكمة والأحكام،وعن الرسل عليهم الصلاة والسلام الأعمال والآداب،وهو الإنسان حقا الذى بشره القرآن بالعزة والتمكين في الأرض بالحق، ومن ادعى الإسلام وحصل مشتهياته في ظل الاستعباد والمهانة كذبته الحقائق، وحكمت أنه ليس بإنسان،فضلا عن أن يكون مسلما. قال العربى:

لا يحمل الضيم في أرض يعيش بها إلا الأذلان عير الحي والوتد

هذا علي الخسف مربوط برمته وذا يشج فلا يرثى له أحد

من أين أوتينا حتى تمكن العدو فسلب الملك والحرية والاستقلال، وأفسد الآداب والأخلاق، وحتى فقد أكثر الشرقيين ما لابد لهم منه في أوطانهم، فأصبح الأعداء رؤوسا بعد أن كانوا أذنابا يتمتعون بخيرات الشرق ونعمه، ويتسلطون علي أهل الشرق تسلط المالك القاهر من غير عدل يوجب المساواة، ولا رحمة تقتضى المساواة ؟ وكانت القوة والعزة لسلفنا الصالح، فنشروا الرحمة بين العالم أجمع، فمكن الله لهم في الأرض بالحق.

كان أحدهم يأبى أن يكون عبدا لغير الله، وأن يستعبده مخلوق نظيره، والإنسان بمعناه تأبى عليه مرتبته في الوجود وقدره بين الأنواع المحيطة به أن يستعبده طاغ ظلوم، أو يسلب منه الحرية والإرادة باغ غشوم، اللهم إذا فقد إنسانيته وانحط إلى حضيض البهائم الرتع، ونسى أنه إنسان، وجهل أن الذى استعبده نظيره، وتناسى صبغة الدين التى هي فطرة من فطر الإنسان، ونظر بعين الجبن البهيمى، والعجز النباتى، والهبوط الجمادى فرأى المتسلطين عليه بعين وهمه وخياله ليسوا من بنى الإنسان لما نالوه من الزينة والأموال. ومن استكان لهذا الذل هبط إلى حضيض الأسفلين، ومحى اسمه من سجل بنى الإنسان، وصار كالبهائم التى تؤكل ولا تأكل، ويملكها الغير ولا تملك.

وسبب هذا جهل الإنسان بنفسه،ونسيانه ما أوجبه عليه الإسلام من اليقظة والعمل للخير العام، واعتماده علي غير ربه استسلاما لأهل الحظ والهوى ممن يحبون العاجلة الذين هم سبب تمكينهم الأعداء من الأمم طمعا في تحصيل مشتهياتهم في ظلال الخزى والمهانة، كالحمار المربوط علي الخسف المتلذذ بالعلف.

وقد أثبت القرآن أن العزة للمؤمنين، لأن الإيمان هو التصديق بأن العالم كله خلق للإنسان،وأن الإنسان خلق لربه فلا يذل إلا له تعالى،والإيمان لا يفوز به إلا من كملت إنسانيته، وتطهر من نار النفس الإبليسية، ومن هلع وجزع البهيمة فسارع إلي معالى الأمور معاديا أسافلها.

اليقظة من نوم الغفلة:

قال تعالى:

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟﴾ سبأ: ٤٦.

واليقظة هى الحياة التى يعلم الإنسان فيها قدر نفسه وقدر ما تفضل الله به عليه في نفسه وفي آفاقه من النعم، مع العجز عن حصرها، ويعلم مقداره في الوجود، وما يفوز به من الخير الحقيقى، إذا هو استعمل تلك الحياة الإنسانية الكاملة فى تحصيل ما جعله الله مؤهلا لنيله، و قابلا لأن يفاض عليه من الكمالات التى بها حيا حياة حقيقية، عاملا للخير الحقيقى، والنفع العام.

والنوم للأجسام فقد الحس و الحركة مع بقاء النفس، وهو موت قصير، والغفلة هى نوم النفس، بأن تفقد حياتها الفاضلة الروحانية، فتنحط إلى أسفل سافلين البعد عن أفق الفضائل إلى حضيض البهائم، قال الله تعالى: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ الفرقان: ٤٤.

وليس من القبيح أن ينام الجسم، فإن الجسم ينام ليجدد حياة جسمانية يستعين بها على تنفيذ قصود النفس، وإنما القبيح أن تنام النفس، ونومها أن تفقد سلطانها على الجسم، فتكون خادمة للجسم، فتنفذ له حظوظه و شهواته، غافلة عن كمالاتها ومسارعتها إلى بلوغ الغاية التى بها تكون نفسا فاضلة، عاملة للخير، قائمة لله تعالى بالإخلاص، لتفوز برضوانه الأكبر، و بالخلود فى جوار الأخيار من رسل الله، والأطهار من أولياء الله، وإنما تفوز بتلك الغاية القصوى إذا قامت لله مفكرة، فإن هى نامت نومة الغفلة صارت خادمة للجسم، منفذة لحظوظه و أهوائه، فانحطت إلى الأسفل.

فتفكر أيها الإنسان، و اعلم أن نفسك جوهرة نورانية، بل لطيفة ملكوتية، خلقها الله تعالى من نور جماله، وسخر لها كل شىء فى ملكه و ملكوته، فإذا هى غفلت تلك الغفلة، فخدمت هذا الجسم السافل، هوت من على مقامها فى فسيح الملكوت، وانخطفت من أفق

شرفها الذى به كانت قائمة لله تعالى، عاملة لنفع العالم أجمع، مسارعة إلى الكمال المطلق، الذى تكون فيه شمسا مضيئة فى ملك الله و ملكوته، فهوى بسبب الغفلة إلى أدنى مراتب الموجودات، وكيف لا ؟ والجسم الذى تخدمه كل مقتضياته بهيمية سبعية إبليسية، وبعيشك أيها الإنسان كيف ترضى أن ترى ملكا كريما يخدم خنزيرا نجسا ؟ لعلك تندهش إذا علمت ذلك، فضلا من أن تراه، فكيف إذا تحققت ذلك فى نفسك ؟!.

أسباب الغفلة:

الجهل بالكمالات الإنسانية، صحبة السفلة من عبيد شهواتهم، أو عبيد الدنيا أو عبيد الشهرة والجاه، فساد المزاج وعدم تناسب الأعضاء، الخوف المزعج، الطمع فى نيل ضرورى، تصديق كل مخبر، إضعاف الفكر عن البحث فى الأمور حتى ينتج ذلك التقليد الأعمى فيقلد الإنسان الخلق بحسب شهرتهم أو نسبهم، أو مالهم أو عصبتهم، من غير بحث فى الأمور، وهذا التقليد هو أشد أمراض الغفلة، وكل إنسان يقلد غيره من غير بحث ولا تفكير فليس بإنسان فى الحقيقة و نفس الأمر، وإن تفرقة المجتمع الإسلامى نشأت من التقليد الأعمى، والتسليم للمتكلم لأنه فلان، أو ابن فلان أو ذو سلطان، أو عالم أو له كرامات وكل إنسان لم يتبصر فى أموره، ويجتهد قبل التسليم حتى يطمئن قلبه الأولى أن يشطب اسمه من المجتمع الإنسانى، فضلا عن المجتمع الإسلامى.

فإن الحق فوق الخلق، وللغفلة أسباب أخرى تدعو إليها، أهمها: تمكن العلل من القلوب، والحرص على شهوة أو مال أو جاه، والطمع فى نيل حظ أو لذة أو منزلة، وتلك الأسباب تدعو إلى موالاة الأعداء، ومخالفة النصحاء، وتدعو إلى ضياع الشرف والمال والدين، وقد تقوى تلك العلل حتى يفقد الإنسان ملكه وحياته، وأغلب تلك الدواعى يعين عليها أهل الطمع فى الجاه والمال والملك، فيسعون بين المتحابين المتعاونين على الخير بأساليب الخديعة والدهاء، مظهرين الولاء لكل فريق، حتى إذا تمكنوا من تفرقتهم بضرب بعضهم بعضا، سلبوا منهم ملكهم وأموالهم، ولم تسلب تلك المعانى إلا بعد سلب الأخلاق والدين، ولم تسلب الأخلاق والدين إلا بعد أن نامت النفس.

نومة الغفلة، ولو أن النفس لم تنم تلك النومة لما تمكن العالم أجمع أن يسلب من الإنسان اليقظ در هما وفيه قطرة دم، فكيف سلبت الأخلاق والدين، ثم سلبت النفس الإنسانية

الفاضلة المدبرة وصار الإنسان أقل من البهيم الأعجم ؟ كل ذلك بسبب الغفلة، وإن نفسا واحدا فى الغفلة قد يكون سببا لضياع مجتمع فاضل، أو لسلب ملك عظيم، وضياع صناعات وفنون وتجارات وزراعات كان لها المقام الأول فى العالم، كل ذلك بسبب الغفلة.

درجات اليقظة:

أولاً: تذكر الفرد ما كان له قبل الغفلة وما أضاعه من ميراث آبائه بالغفلة، أو تذكر العائلة ما كان لسلفها قبل الغفلة، أو تذكر الأمة ما كان لها من المجد والملك قبل الغفلة

الدرجة الثانية: الندم الشديد المؤدى إلى احتراق القلب على فقد هذا الخير بالغفلة.
الدرجة الثالثة: البحث بالفكر عن الأسباب التى أدت إلى الغفلة و الضياع والأمراض النفسانية التى دعت إليها.

الدرجة الرابعة: المسارعة بهمة إلى معالجة تلك العلل حتى تحصل الألفة بينه وبين من كانوا يعينونه بداعى المحبة والألفة من أهل وأقارب وأصدقاء ومواطنين، ويجتهد فى أن يتحفظ من أعدائه الحقيقيين الذين خدعوه بالباطل، حتى سلبوا نعمته وشرفه، وأفسدوا عليه دينه وخلقه، ويتباعد عنهم حتى يتمكن منهم.

الدرجة الخامسة: أن يقوم لله بما يحبه سبحانه وتعالى بعد اليقظة، محافظا على الآداب الشرعية، عاملا بسنة رسول الله ﴿ﷺ﴾ مخلصا لله، صادقا معه سبحانه، مسارعا إلي عمل الخير لجماعة المسلمين، ليكون عضوا عاملا فى الجسد الإسلامى.

المجد الذى نطلبه الآن:

نطلب الآن حقا لنا، به سعادتنا فى الدنيا والآخرة، ذلك الحق ورثناه من آبائنا.

ولكن أهملنا فيه فلم نحافظ عليه، وجهلنا مقداره فلم نعتن به، فاغتصبه من عرفوا قدره، واللوم علي من فرط.

ما هذا الخير الذى اغتصب ؟:

هو شرف النفوس وعزتها، وراحة الأبدان ومسراتها، سلب مالا تطيب الحياة إلا به، وهو الدين، والدنيا، والآخرة، وكيف لا ؟ وقد ملكت النفوس وقهرت على أن تكون ذليلة بعد عزها، محتاجة إلى الضروري بعد غنائها، مفقودة الحرية والإرادة. كان الشرق أفق مشرق الشمس، فتشرق منه شمس السماء على بقاع الأرض، وتشرق منه شمس الهدى بأنوار التوحيد والفضائل،

والعدالة والحرية والمساواة، ليكون كل إنسان عزيزاً لا يذل إلا لله، ولا يعبد إلا الله، ولا يخاف إلا الله سبحانه وتعالى. وما أشرقت كواكب الرسل – صلوات الله وسلامه عليهم – إلا من الشرق، ومن الشرق أشرقت شمس خاتم الرسل، فعمت أنواره ﴿ﷺ﴾ مشارق الأرض ومغاربها، حتى عمت رحمة الله جميع الأرض.

ولكن خلف بعد السلف خلف شغله المراء عن الصفاء، والمنافسة في الدنيا عن المسارعة في الأخرى، وتركوا وصايا رسول الله ﴿ﷺ﴾ وبالعمل بها دوام هذا المجد، ونيل المزيد من فضل الله – فسلط الله عليهم وحوشا كاسرة من بني الإنسان، لا يخافون الله، ولا يرحمون عباده، فجاسوا خلال الديار، وطعنوا في الدين, وأفسدوا العوائد الإسلامية, وأبدلوها بعوائد أفسدت الأخلاق, وأذلت النفوس, وأظلمت بها القلوب, حتى صارت الرذائل فضائل, والقبائح محاسن, والشرور خيرات, فتمكنوا في الأرض بالباطل, فسلبوا الصناعات والتجارات والزراعات والوظائف, وأبقوا في أيدي أهل الشرق ما لا يزاوله إلا الأرقاء, الذين يؤمرون ولا يأمرون, ويحكم عليهم ولا يحكمون.

لم يقف الغاصب عند هذا الحد, بل تعداه إلى ما تثور لأجله نفوس البهائم الداجنة، من الحكم على أهل الملك بالاستعباد، ومن معاملتهم بالاستبداد، ومن إعلان الحرب عليهم إذا أظهروا ما نالهم من الظلم والعدوان بألفاظ يقولونها في مجتمعاتهم الخصوصية، أو بتعبيرهم عما في ضمائرهم في طرقاتهم العمومية، مما لا يستحق أن يقابل إلا بالاعتذار من الغاصب، وتسلية المغصوب برد حقوقهم اعترافا بالحق، ورغبة في دوام صفائهم معهم، وكيف تلذ حياة من سلبت منه أنواع الراحة ؟! وما كان معه مما به يحفظ نفسه وأولاده ؟ إن الموت لسهل في هذا الموقف؛ لأنه راحة كما قال صخر:

وَلَلْموت خير من حياةٍ كأنها محلة يعسوبِ برأس سنان

وكما قال العربي:

إنا لَنُرْخِصُ يومَ الروع أنفسَنا وإن نُسْام بها في الأمْنِ أغْلِينا

الشرق والغرب:

نام الشرق.. وما كان له أن ينام، لأنه مشرق شمس الحضارة والرقى والمساواة والحرية، بل مهبط وحي الله ومنبع الرسل الكرام عليهم السلام، ومغرس الحكمة والهدى، ومعهد العلوم

والصناعات والفنون من العصور القديمة والوسطى. حتى أشرقت شمس الإسلام، فصار المسلمون فيه كأنهم ملائكة مطهرون من كدائر المائدة، وظلمات الأوهام، وفساد الآراء، وعبادة غير الله تعالى. أشرقت أنوار الإسلام بعد أن انمحت أنوار الشرق وخمدت شعلة صناعاته وفنونه، فملكه الظلمة الغاصبون من دول أوربا المستعبدة، حتى أغاث الله الشرق بالإسلام فأعاد له صحته الروحانية، وعزته القومية، فصار الشرقي لا يرى فوقه إلا ربه، كسر ما كان يعبد من الآلهة، وحارب الظلم والظلمة، ومحا دعاة الضلال والإضلال، ومحا عروش المتسلطين على الأمم بالباطل، سوَّى أصغر حقير بأكبر أمير، انتشرت أنواره التي سعد بها العالم أجمع من مكة حتى المحيط الأطلنطي، ومن المدينة إلى المحيط الهندي، ومن مكة حتى رأس الرجاء الصالح ومنها إلى جبال قفقاسيا.

انتفع العالم أجمع بالإسلام، لا فرق بين من أسلم ومن لم يسلم، لأن الإسلام سوى في الأمور الاجتماعية وفي المعاملات بين المسلم الشريف العالم وبين غير المسلم مهما كان، ونفع غير المسلمين نفعاً كان لا ينتظر إلا به، ذلك النفع هو أن كثيراً من الأمم كان يعبد الأنهار والكواكب والأحجار، ويذل لسدنتها وخدمتها ذلاً أحط من الرق، فلما انتشرت أنوار الإسلام وعمل المسلمون به، وساحت العقول الإسلامية في آثار هذا الكون، نظروا بالعقل للاستدلال، فتشبه غير المسلمين بالمسلمين، فاستخدموا الحقائق المحيطة بهم التي كان بعضهم يعبدها، واخترعوا منها تشبهاً بالمسلمين فوائد وآلات لتسهيل الصناعات والمواصلات، حتى وصل العالم إلى ما هو عليه الآن من الحضارة والرقي والعلوم، كلها إنما هدى العقول إليها الإسلام، ولولاه لكانت الأفلاك والأملاك والصور والأشكال والأناسي معبودة من دون الله. ولكن المسلمين أنامهم مخالفة الدين اعتداداً بطغيان الغنى، والترف والنعيم والتمكين في الأرض بمتابعة الإسلام، فأنتجت مخالفتهم للدين تمكين الأعداء في الشرق.

ولم يكف هؤلاء الظلمة سلب الحرية والمساواة والصناعات والفنون من الأمم الشرقية، حتى دعتهم الجهالة إلى ما يثير الخواطر ويشجع الجبان، وهو مس جانب الدين، ففتحوا على أنفسهم أبواب الخراب والدمار بانتشار المبشرين في الشرق، وباستبداد المحتلين منهم، وبنشر مبادئ الإلحاد بين طلبة الشرق بما يرون الموت دونه أولى إذا انفجر بركان الغيرة. وها قد أصبحت ترى كل شرقي يحس بحياة الشرق والحرية والغيرة لدينه ولما له من الحق الشرعي.

ودليل ذلك ما حدث ضد المستعمرين في آسيا وأفريقيا في عهود الاحتلال.. مثل تلك الحوادث التي كانت في بلاد الهند من المقاطعات الدالة على أن القوم كرهوا حياة الاستعباد، وما حدث في العراق — في عهد الاحتلال الإنجليزي - من الأحداث المبغضة ببعض العراقيين للانتداب وأهله. وما كان في جاوا وسنغافورة ونجد والحجاز من الثورات، وقد أيد تلك اليقظة في آسيا - وقتئذ — ما قامت به جمهورية تركيا، من التفاني في المطالبة بما كان للسلف الصالح الذي اغتصبه من غرتهم القوة، وأطغتهم المهلة، والله عزيز ذو انتقام وهو يمهل ولا يهمل. هذا ما كان في آسيا مهبط الوحي والنبوة.

أما ما كان في أفريقيا فشرار ظلم يستعر، ودعوة حق من الأمم فيهم تنتشر، وميول وآراء تنبئ بحسن المآل.

فكانت في طرابلس ثعالب متنمرة سقط بها الجبن والجشع على صخور راسية. وفي تونس كانت فيها حمية وغيرة تقابل بقهر وغدر. وفي الجزائر كانت مخدرات من كيد السياسة أفسدت الهمم، ولكن كان تحت الرماد جمر، ووراء الأكمة سباع. وفي مراكش كانت فتن عمياء ومصائد للنسور تجرى فيها الأموال جري الأنهار والأماني الكاذبة. أما السودان والحبشة وسوريا وفلسطين فكان فيها مقابر لرجال الانتداب.

ونتائج تلك اليقظة عودة الغرب إلى ما كان عليه، وقيام الشرق لينال حقه، والله ولي المؤمنين.

بدأ الشرق يستفيق:

العقل بالتجارب، لأن عقل الغريزة سُلَّم إلى عقل التجربة، والشرق — وإن كان العقل الغريزي كاملاً فيه — إلا أن العقل من غير تجارب لا يكفي الإنسان أن يعيش عيشة طيبة بين أهل الكيد والخديعة والطمع، حتى يعلم منهم ما يخفون عنه. وقد استسلم الشرق لأوربا بعقله الغريزي حتى علم من دول الاستبداد أنها تخفي له ما لا يحب، وتحقق أن دولة الاستعباد تريد إبادة الشرق وتدمير ما اكتسبه بطول التجارب من العلوم والصناعات والفنون، بما اخترعته من الآلات والأدوات الجهنمية. فاستيقظ ولكن بعد أن خربت أوربا بيوت الفنون والصناعات، وضربت بيد من حديد على مرافق الحياة، حتى أصبح أعز القوم أذلهم، وأذل القوم أعزهم رعاية لمصلحتهم، فلما أيقظت الأحداث العظام البقية الباقية من الشرق ساموهم الخسف، وجاسوا خلال ديارهم

فأبادوا الرؤوس، ودمروا المدن العامرة بالحديد والنار، ولكنهم أبقوا أثراً في القلوب لا تمحوه الحيلة، وهذا الأثر هو العامل الوحيد على تعميم اليقظة.

بلغ الكيد من دول الاستعمار بأمم الشرق أن كادوا لأهله حتى في دينهم، فرقوا الجامعة القومية حتى خرج بعضها على بعض، وأصبح الأخ يخاف من أخيه والوالد من ولده، ومزقوا الجامعة الدينية، حتى مرق من الدين كثير ممن تلقوا بعض العلم بظاهر الحياة الدنيا في مدارس أوربا. وفي الحكمة: من تعلم الدين بالفلسفة لم يسلم من الزندقة. قاسوا العلى المنزه عن الكيف والكم والحد والشبيه والنظير بالمحسوس الملموس المحدود، وفتشوا عليه بالعقول التي خلقها الله لتحكم على المادة ولوازمها، قال تعالى: ﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ﴾ الرحمن: ٣٣ وقال سبحانه: ﴿ مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا ﴾ الكهف: ٥١ فتشوا فلما لم يجدوا حكموا أن المادة هي الإله.

ولكن الشرق لا يعدم رجالاً يبينون للناس ما خفى عليهم من أمر دينهم، بتفصيل المجمل وبيان المبهم، وجعل الخلق في المرتبة المناسبة لهم من حكم العقل عليهم، وجعل الحق في المرتبة المناسبة له من النزاهة والكبرياء والجلال والعظمة، حتى يتحقق العقل أن الأرواح الطاهرة وإن كملت لا تحوم حول فناء جلاله سبحانه، فيتفكر في آلاء الله وما أبدعته قدرته، ولا يتفكر في كنهه و ذاته تنزه وتعالى.

قام الشرق من سباته الذي اقتضته براءته من الكيد والخديعة، لرسوخ عقله وسعة علمه وقبوله للحكمة من أي إنسان أتى بها، والحكمة تصدر عن اليدين واللسان، فورد على الشرق حكمة اليدين من أوربا فقبل مصنوعاتها وآلاتها وأدواتها، واعتبر ذلك منة من الله تعالى أجراها له على يد صناع أوربا، ولكن تلك التجارة دُس معها السم في الدسم، فإنها جلبت على الشرق ما كان في غنى عنه، من تسليط الظلمة، وسلب مرافق حياته، والرضا بالذل والمهانة في بلده، فقام الشرق بعد طول التجارب التي أنتجت له أن قيامه بمقابلة القوة بالقوة لا يفلح مع أوربا، التي منها يجلب الآلات التي يدافع بها، وهي لا تسمح للشرق بما يكفيه منها لأن أوربا اللادينية لا تراعي العهد ولا تحفظ العقد، فكم خانت عهوداً، وحلت بالقوة القاهرة عقوداً.

لا نقول أن دولة من دول أوربا ترحم نظراءها من بني الإنسان، أو تفي بعهد لغيرها من الأمم، بل ولا تجد دولة من دول الغرب تفي لدولة أخرى من أوربا، لأن المروق من الدين سلب الرحمة والمراقبة والخشية من يوم الحساب، والإنسان إذا نسى يوم الحساب كان شراً من إبليس، وأضر من الوحش، إذ لا فرق بين الإنسان وبين الوحش الكاسر إلا ما تجده في قلبه من الرحمة والخشية من لقاء الله تعالى.

قام الشرق وأخذ يجمع شعثه، فلا تكاد ترى أمة من أممه إلا وهي تعمل لخلاصها من الغاصب، وتهتم بتقويم قوميتها، وتسارع إلى الرجوع إلى الدين، فإن تقويم القومية والسعادة يوم القيامة متوقفتان على الرجوع إلى الدين الذي يزكي النفوس، ويجعل كل إنسان يعرف نفسه، ومن عرف نفسه فقد عرف ربه، وآثر يوم الحساب على يوم الدنيا، وما يوم الدنيا إلا يوم متاعب وعناء ومنازعة في الحياة، أما يوم الآخرة فيوم المسرات الباقية. ولَقَدْرُ الكف في الجنة خير من الدنيا وما فيها لمن كان يعقل عن الله خبره سبحانه وتعالى. أما المارقون من الدين، الفرحون بالحياة الدنيا المطمئنون بها، فهؤلاء لا فرق بينهم وبين الوحوش الكاسرة في الغابات. إذا قومت كل أمة من أمم الشرق قوميتها، ورجعت إلى دينها، أجلت عنها المستعمرين الذين يرفقون بالحيوانات ويبيدون الأناسي، وينظمون الأراضي التي لا سكان فيها، ويدمرون المدن العامرة بالمقذوفات.

فإذا تم ما يريده الشرق بعزمه ويقظته أمكن أن تعود إلى أمم الشرق الصحة الروحانية، ومتى عادت لها تلك الصحة عاد لها ما كانت عليه من الاتحاد والتعاون على البر والتقوى، ولديها تعود الدولة للشرق، ويعود الغرب كما كان في ظلمة الجهالة وشظف العيش، وتتذكر أمم الشرق ما أصابها من البلاء بسببه.

ولكن تمسك الأمم الشرقية بروح الإسلام يجعلهم لا يفارقون الرحمة والعطف والإحسان إلى من أساء إليهم، فيعاملون الغرب عند ظهور الشرق عليه بما يقتضيه القرآن، قال الله تعالى: ﴿ **فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ** ﴾ المائدة: ٥٤ وقال سبحانه وتعالى: ﴿ **ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ** ﴾ فصلت: ٣٤. وأمرنا ﴿ﷺ﴾ أن نصل من قطعنا، ونحسن إلى من أساء إلينا، ونرحم من ظلمنا. فالرجوع إلى الإسلام به عز الدنيا ونعيم الآخرة. أما الذين جاهروا بالمروق من الدين بما نشروا بين طبقات

الأمة، فهؤلاء عند يقظة الشرق العامة لا يقام لهم ولا لأمثالهم وزن، قال الله تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ الشعراء: ٢٢٧.

يقظة الشرق:

س – هل الحالة العامة في الشرق وأكثره مسلمون مما يقره الإسلام ؟ أم هي غفلة وضياع للوقت في غير فائدة ؟.

ج – إن دين الإسلام هو دين الله سبحانه وتعالى الذي يجب أن يرفع الإنسان إلى مستوى لا يكون فوقه فيه إلا الله سبحانه وتعالى، فلا يعبد غيره، ولا يعامل إلا بأمره، ولا يتخلق إلا بأحسن الأخلاق، ولا يرجو غيره، ولا يسأل غيره، ولا يذل لغيره، ولا يخاف غيره، قال سبحانه: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ المنافقون: ٨ وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ آل عمران: ١٣٩. فالمسلم لا يرى فوقه غير الله تعالى، بمعنى أنه لا يطيع أباً ولا حاكماً ولا قوياً إلا إذا كان منفذاً لأمر الله تعالى، وهذا معنى قول: لا يرى فوقه إلا الله. ومحل نظر المسلم أن هذه الدنيا فانية، يجب فيها على كل مسلم أن يعمل لينال النعيم والسعادة بعد الموت عند الله تعالى, وإنما تلك الدار الدنيا قنطرة يمر عليها السالك إلى دار أهله, فمن عظمها تعظيماً أنساه الآخرة ذل لغير الله, وخاف غير الله, وحرص على حياته الدنيا فضحى بدينه وآخرته, فعاش عمره المحدود في خزى، وذل وعبودية لكل ذي قوة، وأورث ذريته مهانة تدوم لهم .

فاليقظة التي قامت بالقلوب الآن مما يأمر بها الدين، وإني بصفتي أفتى هذه الفتوى أقول: إن أوربا هي سبب تلك اليقظة التي أرخصت الحياة في أعين الشرقيين، حتى أصبحوا يضحون بكل رخيص وغال في سبيل رد ما سلبه منهم المستعمرون بقوة الحديد والنار. هذا، والحق أن أوربا تهدم كل مجد سلبته من الشرق بمعاول الطمع والأولى أن الأمم الأوربية تتدارك هذا الخطر بالضرب على أيدي أهل المطامع منها، قبل أن تصبح مدنية أوربا أثراً بعد عين كما قال تعالى: ﴿فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ﴾ الأحقاف: ٢٥ والتاريخ يعيد بعضه بعضاً. وصدق الله

العظيم قال سبحانه: ﴿ فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ ﴾ محمد: ٢٢.

س — إن بعض العلماء يترددون في أيام رمضان على من ليسوا بمسلمين، وإن ترددهم في رمضان على المسلمين نتأوله لهم أنهم يعظون أو ينصحون، لأن العلماء أطباء، والطبيب يغشى أماكن المرضى، فهل زيارة العلماء لغير المسلمين إذا تحقق أنهم لا يدعونهم للإسلام ولا يأمرونهم بالعدل والإنصاف يكون من الدين في شيء ؟.

ج — اعلم أيدك الله وإيانا بروح منه، أن العلم الذي يسمى علماً معلوماً من الشريعة، هو العلم بالله تعالى، وبأيامه سبحانه، وبأحكامه ﷻ، وبحكمة أحكامه. والدين الإسلامي لم يحكم لمسلم بالعلم إلا إذا تحققت فيه خشية الله تعالى، قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَـٰٓؤُاْۗ ﴾ فاطر: ٢٨ ومن حصَّل أمثال الجبال من العلم ولم يتفضل الله عليه بالخشية منه سبحانه فليس بعالم عندنا.

وأني لا أستحسن أن تسأل هذا السؤال، لأن الحكم على الشيء فرع عن تصوره، والجواب عليه فتح لأبواب الفتن العمياء، لأن زيارة العلماء لغير المسلم في رمضان تعظيماً له واعتماداً عليه تسلب الإيمان من القلوب، وشهرة هذا الأمر بين العامة تثير الخواطر وتحقر العلماء في أعينهم، وصريح القرآن بين لا يجهله العامة، قال سبحانه: ﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ المجادلة: ٢٢، ولا شك أن غير أهل الذمة يحادون الله ورسوله والمسلمين. وقد جاهر كثير ممن أقامتهم الجامعة المصرية لتدريس الآداب بمحاربة الدين مثل طه حسين وغيره.

وإنا لنعجب كل العجب على المنتسبين للشرف النبوي وللعلوم الدينية كيف يخفون ما الله مبديه ؟ ويعينون من حرم الله عليهم مودتهم، وفي الوقت نفسه يظهرون محبتهم وولاءهم لولاة المسلمين؟ فترى الرجل منهم يزور الأمراء والوزراء ليستر عيوبه ويساعدهم فيما يرضى أئمته، وقد كنا نظن أن زيارة قاضي قضاة مصر لمكة سنة 1343 هـ في زمن الهرج والمرج بين الإمام بن سعود وعلي بن حسين للصلح، وإرجاع الأمن والسلام للحرم الشريف، لأنا كنا نعتقد كمال

الإيمان في فضيلته، ولكن تحققنا أن زيارته كانت مقدمة لمفاوضة صديقه السيد مكماهون مع عاهل نجد.

ومهما تكن عند امرئ من خليقةٍ وإن خالها تخفى على الناس تُعلم

وإلا فمن الذي أعطاه الإجازة للسفر وترك الأعمال الشرعية الواجبة عليه التي بها سيادته وغناه ؟ وياليتهم يكاشفون الأمة بنواياهم لتحتاط منهم، بل نراهم يخفونها والله يبديها، وياليتهم وقفوا عند هذا الحد، ولكنهم يريدون أن يقبضوا بيد من الحديد والنار على ينبوع الدين الإسلامي ومصدر علومه (الأزهر) والله تعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ النساء: ١٤٢ وقد انخدع المستعمرون فغرهم ما يرونه من قوم يبيعون دينهم وشرفهم لأغراض المستعمرين، وجهلوا، لأن الذي يبيع دينه الغالي وشرفه العزيز عليه لهم، يطمع فيما اغتصبوه، سيبيعهم إذا دعته دولة أخرى ومنته كما منوه، ولكنهم إذا نالوا أغراضهم من أمثال هؤلاء أذلوه وطردوه شر طردة. فليتذكر المسلمون، وليحتاطوا من الذين كشف الله الستر عنهم ومن أمثالهم، والله لا يهدي كيد الخائنين.

كلام المستعمرين وأعمالهم:

الإصلاح. تحرير الرقيق. الرفق بالحيوانات. الرحمة بالمرضى. رقيُّ الأمم. نشر الحضارة. إطفاء نار الثورة. المحافظة على العرش. حراسة الإسلام. المحافظة على المسلمين. مصر للمصريين. الوعود المتكررة بالجلاء. إغداق الأموال على رجال الدين وعمل التشريفات لهم عند انتقالهم من بلد إلى بلد بحشد الناس وضرب المدافع. تعظيم الأذلاء وإذلال الأعزاء، و... و... و... هذا قول المستعمرين.

أما عملهم فالاستئثار بكل شيء، والتستر بإقامة رجال من الأمة ينفذون ما يريدون لتحصل العداوة والبغضاء بين رجال الأمة. ثم محو الصناعات والفنون التي بها قوام الأمة واستبدالها بمصنوعات أجنبية. ثم قصر التعليم على قشور تقضى على محصلها بأن يكون خادماً لهم. ثم الضرب بأيد من حديد على الأمة حتى يصبحوا أصحاب السلطة النافذة، والأمة مغلوبة على أمرها لا يفكر العامل فيها إلا في السلامة من شرهم، لا فرق بين الهيئة الحاكمة والمحكومة منها،

حتى تمكنوا من كل شيء، فلا ترى رجلا من الأمة مهما بلغت منزلته يمكنه أن ينفذ ما يراه خيراً، بل ولا يقتدر أن يقول كلمة تغضبهم ما دام جالساً على كرسي من كراسي الحكومة.

لم يَكْف المستعمرين — وهم أبعد الأمم منا داراً، وأحوجها إلينا في قوام حياتها، وأقلها عدداً وإن كثرت عدتهم، ولولا ما لهم في الشرق لما كان لهم شأن يذكر – لم يَكفِ المستعمرين كل هذا، حتى طمعوا في أن يتسلطوا على القلوب بعد أن قهروا الأجسام، وعلى قلوب مَنْ يطمعون في أن يتسلطوا ؟.. على قلوب عقدت على توحيد الله وتفريده بالألوهية، وتنزيهه عن الشبيه والنظير والولد والوالد، واعتقاد أن مُحَمَّدا عليه الصلاة والسلام عبد الله ورسوله، الذي جاء بالعقيدة الحقة البريئة من التثنية والتثليث، مع تفريد الله بالعبادة والتعظيم والإجلال دون غيره، وبالأخلاق الفاضلة والمعاملة الحسنة، وبالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ثم بمحو الظلم والتظالم رحمة بالخلق أجمعين، وبالإحسان إلى المسيء وصلة القاطع، وبالرحمة لكل ذي كبد رطبة، وبالعلم الذي انكشفت به خواص المادة وظهر ما فيها من آثار قدرة الله .

لا يجهل المستعمرون كل ذلك من الإسلام، ولكنهم أطمعهم قبول المسلمين منهم كلامهم الذي هو خديعة وكيد، وغرهم استسلام المسلمين لهم في الصناعة والتجارة وإدارة الشئون الاجتماعية، فطمعوا فيما لا يُطمع فيه، وحشدوا جيشاً يفتح عليهم أبواب الخراب والمحو من على وجه الأرض، وهم دعاة النصرانية الذين ألفوا جمعية يسمونها: (الجمعية العالمية الصليبية للتنصير في العالم وبلاد العرب) وهذه الجمعية هي بعينها الجمعية التي فتحت أبواب الحروب الصليبية فأنتجت أسر ملك فرنسا وأخته، وقلب الأسد ملك الإنجليز، وسببت رد جيوش الصليبين خاسئة خاسرة، وهي بعينها الجمعية التي قامت تذم سيدنا ومولانا رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ من قِبل قيصر روسيا، وهدمت وخربت مساجد أئمة أهل البيت في البلاد المحتلة بروسيا في آسيا، وأنتجت إبادة الدولة ومحو آثارها، وقامت دولة منقلبة على النصرانية وعلى المسيح عيه السلام، يبكي كل مسلم إذا سمع كلامهم في ذم النصرانية وسب المسيح، أو رأى ما كتبوه عنهم، لعجزه عن الانتقام منهم.

يتعجل المستعمرون اليوم لأنفسهم محو دولتهم وشوكتهم بما انمحت له دول أوربا الصليبية، ودولة روسيا عدوة الإسلام والمسلمين مثال ذلك:

الإنجليز الآن [1] لهم العذر لأنهم نسوا ما كانوا عليه قبل مائة سنة، نسوا كيف تمكنوا من الشرق ومن المسلمين خصوصاً، فإن رجالهم الذين تمكنوا من الشرق دخلوا فيه بذل ورغبة في خدمة الأمم بالطب وبالصناعات والتجارات، فكان أكثرهم ينزل بدور رجال الدين ويظهر الإسلام وحبه، حتى صدقهم المسلمون ورحموهم وأكرموهم، ولا يعلم ما في القلوب إلا علام الغيوب. نسى الإنجليز ذلك كله فغرهم ملك لا تغيب عنه الشمس، ونفوذ كلمة لا يقوى على الوقوف أمامها معارض، نسوا ما دخلوا به الهند ومصر والسودان، وهذا النسيان هاوية المحق، ونسوا أيضاً تطور الأمم الآن خصوصاً بعد الحروب الألمانية ولكن يظهر أنهم اختطوا لهم سياسة أخرى، وهي إرسال هذا الجيش الذي يحمل سب النبي ﴿ﷺ﴾ وسب الكتاب الحكيم، وأرادوا بذلك إثارة بعض العامة على دعاة الفتنة فيهاجمون بأساطيلهم.

الإنجليز أعداء الإسلام والمسلمين، ولولا الإسلام لما كان للإنجليز شأن في بلاد الشرق، لأن الإسلام دين السماحة والعطف والرحمة، ولولا المسلمين لما بلغ الإنجليز هذا المبلغ من العلو في الأرض بالباطل.

وها هم اليهود يكتبون عن المسيح ما يُخجل، ويرمون أمه بما يُحزن القلب. واليهود أعداؤهم في الدين، ونرى الإنجليز يرفعونهم فوق رؤوسهم كيدا للإسلام والمسلمين.

والمسلمون لا يحزنهم أن يكون النصارى واليهود في وسعة ورحمة، لأنهم في أيام كان لنا الطول والحول كنا نسوى بيننا وبين النصارى واليهود في كل شيء، بل نسعهم برحمتنا فلا نقودهم للجهاد، ولا نكلفهم بحراسة البلدان، فكان بعضهم يعيش بين المسلمين عيشة ممتازة، يقف اليهودي والنصراني أمام القاضي يخالف الخليفة والأمير والوزير لا يخشى ظلماً ولا عدواناً. نحن الآن حكمنا حكما يقينيا أن أعدى عدو الإسلام والمسلمين هم الإنجليز [2]، ونحكم أن دولتهم قد آن محوها لأنها تحارب سراً وعلنا من يسالمها، وترفع أعدى عدوها فوق رأسها، وهذا دليل على المحاق والدمار.

---

(1) كان ذلك حين كانت للإنجليز إمبراطورية لا تغيب عنها الشمس.

(2) كان ذلك حين كانت للإنجليز إمبراطورية لا تغيب عنها الشمس.

وسيعلم الإنجليز إذا لم يتداركوا الأمر بحرق المنشورات التي أرسلت لبلاد المشرق — خصوصاً بلاد العرب — ويضربوا على أيدي تلك البعثة، فإن بركان الأحقاد الصليبية ينفجر مرة ثانية فلا يرد للغرب رجلٌ في الشرق، وإن ربك لبالمرصاد.

الإصلاح والسلام بالإسلام:

لا يمكن أن يفوز المجتمع الإنساني بأسره بالسعادة التي ينشدها أهل العقل الكامل، والتي يعيش بها الإنسان أخا للإنسان، يؤثر كل فرد من أفراد نوعه بالسعادات والخيرات التي بها نعيم الحياة في الدنيا والخلود في النعيم الأبدي يوم القيامة إلا بالإسلام. ومن جهل شيئاً عاداه. أيها الحاكم على الإسلام، الجاهل بأصوله وتعاليمه ومبادئه العالية، إليك نبذة صغيرة تستنتج منها أن السلام للإنسان لا يتحقق إلا بالإسلام.

جاء رسول الله ﴿ﷺ﴾ فظهر بين جاهلية عمياء صماء يأكلهم الناس ولا يأكلون، كأنهم وحوش كاسرة في غابة يقتل القوي منها الضعيف. سيوفهم مسلولة ولكن على أعناقهم، ورماحهم مفوقة [1] ولكن في صدورهم. يقتل الرجل أباه لينكح زوجاته، ويقتل أخاه جهرا ليسلب ماله، لا دين يؤلف بين قلوبهم، ولا علم يزكي نفوسهم. يقتل الرجل ابنته صبرا [2] في التراب. إذا عدا عليهم عدو من سوى أنفسهم فروا أمامه إلى قمم الجبال والغابات، وإذا خاصمهم أحد من بني قومهم سفكوا الدماء أنهاراً.

انظر إلى حالتهم التي انتقلوا إليها، قام ﴿ﷺ﴾ يتيما لا أم له ولا أب، متوجهاً بكليته من صغره إلى جانب الحق، حتى شهر بينهم بأنه الصادق الأمين، فلما فاجأه الوحي وقام عليه الصلاة والسلام إلى الله تعالى داعياً لاقى في سبيل دعوته مالا تتحمله الجبال، فصبر ورضى، فما مضت أعوام تعد على الأصابع إلا وقد انتقل هؤلاء الشياطين أو الوحوش الكاسرة إلى مقام دونه الملائكة. وكيف لا ؟ وقد كان الرجل منهم يبذل النفس والنفيس إعلاء لكلمة الله، وغيرة للحق على الباطل. كره الواحد منهم أن يرى غير الله معبوداً على الأرض، فكان الصحابي بمفرده كأنه نبي مرسل من قبل الله، يدخل المدينة الكافرة أو المضلة أو المبدلة كمدينة المجوس أو مدن النصارى واليهود، فلا يراه أحد على حالة من أحواله وله عقل يعقل به إلا اهتدى وأسلم، ولا سمع أحد

(1) مفوقة: موجهة.

(2) صبرا: وهي حبة.

كلامه وله أدنى فكر يفكر به إلا دان بدينه. ولا أدل على ذلك من تاريخ أمير المؤمنين عمر ثاني الخلفاء، فإن الصحابة في زمنه أبى عليهم إيمانهم إلا أن يستأصلوا كل مدعى الألوهية في الأرض، فكم أذلوا عروشاً تعبد من دون الله، وكم محوا كفراً وضلالاً وظلماً وطغياناً، حتى لم يبق على ظهر الأرض إلا من تلقى من هذا الرسول الكريم، وقام من أسلموا على أيديهم بما هو أشبه بقيامهم رضوان الله عليهم فملأوا الأرض نوراً وعدلاً، ومحوا منها جوراً وظلماً.

يقول الأعداء: الدين دين السيف. وكذبوا، فالدين دين الرحمة والحكمة. وإلا فها هي أوربا قد ملكت على الناس أجواءهم وأرجاءهم وبحارهم بالطيارات والغواصات والدبابات والبواخر قرناً كاملاً تقريباً، فهل سمعت أن مجوسياً أو غيره من أهل الجهالة حتى في أواسط أفريقيا، – فضلاً عن مسلم – ترك دينه من أجل تلك القوة. كذب والله الأعداء... ولكن القلوب وعت ما جاء به ﴿ﷺ﴾، فكان نور الإسلام يسبق نور الكلام، فيمتلئ القلب نوراً ويسارع الواحد منهم لدخول الدين كما يسارع الظمآن إلى الماء البارد في حرارة الشمس... يجهل أعداء الإسلام أن الإنسان مكون من حس وجسم ونفس، فقهرهم الحس على أن يقفوا عنده، ونظروا إلى الجسم فقاموا لخدمته بما سخره الله لهم، وأهملوا أنفسهم فكانوا أضل من البهائم السائمة التي لا حظَّ لها إلا خدمة أجسامها.

أهمل الإنسان تربية نفسه والقيام لها بما يغذوها مما جاء به الأنبياء صلوات الله عليهم، فقوى هذا الحس بما يرونه حولهم من المحسوسات، فاعتقدوا – لإهمالهم تزكية نفوسهم – أن المادة هي الفاعلة المختارة، وأن لا مؤثر ولا مبدع لها، وأنهم إنما خلقوا ليقهر كل منهم غيره، ويسلب منه السعادة لنفسه، أو يقهره ليستعبد به غيره، وهذا مذهب من هو أقل من البهائم لأن البهيمة لا تستنصر بغيرها إلا على الخير، كالطيور والنمل والنحل التي تسعى لنيل الخير لنفسها، ولا تحب أذية غيرها. ولكن هذا الإنسان الذي هو أقل من البهائم يقهر غيره ليقهر الآخرين أو يستعبدهم.

ولك أيها القارئ أن تنظر إلى المستعمرين وإلى دعواهم الكاذبة في تحرير الرقيق والرفق بالحيوان، ودخولهم الشرق بطرق الاحتيال، فلما دخلوا فيه دمروا المدن العامرة، وأبادوا النفوس الآمنة بالدبابات والطيارات والمدافع، وظنوا أن أهل الشرق أحجار لا تحس بعملهم.. أسسوا هذا الملك على قهر العباد، وإهلاك الأمم، والانتصار بالشرق على الشرق، بل استعمال أمم الشرق في محاربة الغرب للغرب، كما استنصر الفرنسيون على ألمانيا بالمغاربة، والإنجليز على تركيا بالهنود

والمصريين والعرب، كما استنصرت إيطاليا بجنود أرتريا على طرابلس.... هذا هو الظلم الذي لم يعهده العالم الإنساني في حروب الفراعنة مع غيرهم من دول الغرب والشرق، ولا في حروب الروم مع العجم، ولا في حروب إسكندر المقدوني مع دول الشرق، فإنهم لم يكونوا يخدعوا الأمم، ولم يتظاهروا بالرفق والرحمة، وإن كان (أرسطو) سن لهم سنة سيئة عندما كتب إلى الإسكندر يقول له: (فرِّق تسد) فبرعوا في هذه القاعدة، وقهروا الشرق بالتفنن فيها، ولا يزالون يقهرون الأمم ليقهروا بها غيرها، فإمَّا أن يُبيدوها وإمَّا أن يستعبدوها. هذه هي مدنية القرن العشرين وتلك الحقائق التي لا مراء فيها يشهد بها كل فرد من أفراد الأمم التي استعبدها وحوش الاستعمار.

أجلاهم الله عن بلاد الشرق، وأراح أهل الشرق منهم جميعاً، وأعاد له أيامه التي كان الغرب فيها أدنى من البهائم السائمة في القرون الوسطى وفي القرون الأخيرة، حيث كانوا يعبدون البابا ويعيشون عيشة العجماوات في الصحارى، حتى أشرق عليهم الإسلام فقبلوا منه الصناعات والحرية والاستقلال، وأبوا التوحيد والإيمان والعدل والمساواة... والله سبحانه لا يرضى بالظلم نسبة لنفسه وهو القاهر لكل شيء، فكيف يرضى به من عباده على عباده ؟ !.

وسيغير الله سبحانه وتعالى كل مُلْكٍ أُسِّس على الحديد والنار والخديعة والكيد قريباً إن شاء الله، ويأتي أممَ الظلم والطغيان العذابُ من حيث لا يعلمون.

فضل الله على الشرق:

الخلق كلهم عبيدُ لله قهراً، ومظاهر لجريان أقداره، والعبد عبدُ وإن علا، والربَّ ربُّ وإن أكرم وتفضل وتنزل، فهو سبحانه خلق الجن والإنس ليعبدوه، وخلق كل شيء للإنسان، وهو الغني عن كل شيء، والخلق كلهم فقراء إلى الله مضطرون إلى فضله، وفضله سبحانه إنما ينال بإحسانه، فإنه لم يخلق الخلق احتياجاً إليهم، بل خلقهم لأنه حكيم قادر متفضل، ولم يتفضل على أحد بفضل لأنه يستحقه لقرابة من الله أو لنسب، بل كل ما تفضل به على العالم من محض الفضل لا لعلة ولا لغرض، وإن كان ثم سبب اقتضى ذلك فلأنه سبحانه وتعالى خلَّاق كريم، ولو أنه سبحانه تجلى باسم العدل لم يبق على ظهرها دابة، ولكن الإنسان خُلق عجولاً ينسى فضل ربه، ويجهل نفسه، فيعامله الله بالعدل، أعاذني الله وإخواني من الغفلة والنسيان.

تفضل الله تعالى على الشرق من أول النشأة، فأجرى أنهاره، وأخصب أرضه وأحسن جوه، وجعله مهبط الرسالة ومنبع الحكمة، وطالب الناس فيهم سبحانه بشكر نعماه، وبالعمل

بوصايا أنبيائه، وذكرهم آلاءه فلم يخل الشرق من أول إنسان وجد في آخر الزمان من نبي كريم يعظ وينصح، أو برسول يبين حجج الله ويوضح محجته، أو ولي عامل يذكر الناس بالله تعالى وبأيامه وبأحكامه، فغر الشيطان رجالا منهم وأنساهم ذكر الله تعالى، والله تعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ الرعد: ١١. كان الشرق شرقاً والغرب غرباً في ظلمات الجهالة لا دين له يدان به، ولا علم يعمل به، حتى اختلط الشرق بالغرب اختلاط الآمر على المأمور، والحاكم على المحكوم، خصوصاً عند إشراق نور الإسلام حينما كان المسلم مسلماً حقاً، يسارع إلى نشر الرحمة والعطف بين العالم أجمع، ويدعو إلى الحق بالحق، وحينما كان الله ورسوله مع المسلمين، فانتشرت تلك الأنوار الإسلامية بحقيقة الإيمان أو بسر الرحمة والحنان في أفريقيا وآسيا و الأوقيانوسية، وشرق أوربا وجنوبها الغربي، فلم تبق جزيرة معروفة ولا أرض يسهل الوصول إليها إلا وأشرقت فيها أنوار الإسلام، أو انتشرت فيها الرحمة والحنان، ومكث المسلمون يسارعون إلى نشر الرحمة بين العالم ومحو الظلم والتظالم، فمحوا ظلم الظالمين المستعبدين للعالم، وأبدلوه بالعدل والرحمة، حتى أصبح بنو الإنسان كأنهم عائلة واحدة، متمتعين بالحرية لا فرق بين المسلم والذمى في المنافع العمومية والخصوصية وحرية الأديان.

بقى الشرق مصدر تلك الخيرات وأفقاً لشموس الهدى، حتى تركوا العمل بوصايا نبينا ﴿ﷺ﴾، وتشبهوا بأوروبا من حب الفانية، وعظمت الدنيا في أعينهم فسارعوا إليها وتنافسوها. ولقد خوفنا رسول الله ﴿ﷺ﴾ هذا الأمر فقال ﴿ﷺ﴾: (أخوفُ ما أخافُ عليكم الشرك من بعدي، فقالوا: أنعبد أصناماً أو حجراً ؟ قال: لا، ولكن تُفتحُ عليكم الدنيا فتنافسوها كما تنافَسَها مَنْ قَبلكُم) وصدق ﴿ﷺ﴾، فإن الدنيا فتحت كنوزها فعظمت في عين المسلمين وتنافسوها، وتفرقت الكلمة وصاروا شيعاً، وكان ملكهم وعزهم ومجدهم فضلاً من الله تعالى بتعظيم شعائره، والمحافظة على العمل بكتابه وسنة نبيه ﴿ﷺ﴾، فنسوا سبب هذا الخير العظيم، فغير الله ما بهم، وسلط عليهم عدوهم، وقد نظر إلينا إكراماً لحبيبه ﴿ﷺ﴾ فأيقظنا.

الغرب مصدر الشر:

الغرب هو عبارة عن أوربا وأمريكا، وهما القارتان اللتان لم ينظر الله إليهما نظرة إحسان وحب فيبعث فيهما رسولاً، أو يجعل لهم نوراً في قلوبهم تتضح به أنوار التوحيد فيعرف به سكانهما

أنفسهم، والواجب عليهم لله تعالى ولأنفسهم ولإخوانهم في الإنسانية، حرمهم من هذا الخير عدلاً منه سبحانه، هذا ما نشهده بالحس للآن ولا نعلم ماذا يكون غداً.

قال العربي:

وأعْلَمُ عِلمَ اليومِ والأمسِ قَبْلَه ولكنَّني عن عِلمِ ما في غدٍ عَمِي

أقول ذلك لأن أهل الغرب شغلوا بما تشتغل به البهائم، فاستخدموا عقولهم ومداركهم في تيسير الشهوات البهيمية والملاذ الحيوانية، فهم إنما يجتهدون في اختراع الأسلحة الفتَّاكة ببني الإنسان ليكونوا شرّاً من السباع، ويتفننون في الزينة وما تدعو إليه الحظوظ مع غفلتهم عن أنفسهم، وجهالتهم بسر إيجادهم وإمدادهم، وبعدهم عن الملاذ الروحانية، والأخلاق الفاضلة الإنسانية من حب الرحمة والعطف والمساواة والعدل، فهم أضر من الوحوش الكاسرة، وشر من الشياطين، فهم كسياط النقمة التي ينتقم الله بها ممن التفت عنه ونسيه ونسى أيامه. سلطهم الله على الشرق ولا دين لهم يخافون به من ربهم، ولا رحمة في قلوبهم تكبح تلك النفوس الشريرة، فجاسوا خلال الديار وطعنوا في الدين، وهمهم سلب الإيمان والعقول، وتفرقة المجتمعات، وهضم الحقوق. يسلبون من الأمم فضائلهم وصنائعهم وفنونهم وأملاكهم، ولا يكتفون بذلك حتى يستعبدونهم بدعوى أنهم آلهة مقدسون، لهم الحق وليس عليهم الحق. كل ذلك حصل لغفلة المسلمين عن سر مجدهم وسبب عزهم والداعي إلى رفعة شأنهم وتمكينهم في الأرض، وهو العمل بكتاب الله وبسنة رسوله، فتفرق المسلمون بعد الاتحاد، واختلفوا بعد الائتلاف، ولعبت بهم أيد أثيمة لا يرضيها إلا أن تكون في مقام الألوهية والعالم أجمع في مقام العبودية.

الحالة الحاضرة:

أغضب الحكمَ العدلَ ظلمُ أوربا وأمريكا وطمعُهم في سلب حقوق عباده، والقوي القهار إذا كره شيئاً غيره، ففتح على أمريكا وأوربا بركات كل شيء، حتى أخذت أرضهم زخرفها وازيّنَت، وظن أهلها أنهم قادرون عليها، فغضب سبحانه وتعالى غضبة دلت مباديها على سرعة الانتقام وتعجيل العذاب، وكيف لا ؟ وقد انتشر بين العالم أجمع شرار ظلمهم، حتى أجمعوا أن يطفئوا نور الله تعالى ببغيهم، فرفضوا دينهم لما فيه من الباطل الذي لا تقبله العقول، وظنوا أن الدين الإسلامي كدينهم ظلماً وجهالة، فنشروا الفساد على ألسنة المبشرين يطعنون في الدين، ثم هجموا ظلماً وطغياناً على العالم الشرقي، يظهرون أنهم يخدمون برحمتهم الشرق وأهله، وهم شر من

النار المسعَرَة، وأضر من الماء الملح إذا طغى على الأرض، فلم يهملهم القهّار وإن أمهلهم، ولم يبلغهم أملهم وإن صبر عليهم، قال سبحانه: ﴿ وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ﴾ الإسراء: ١٦.

تذكرة المسلمين وأهل الشرق جميعاً:

يا أيها المسلمون.. إن الله مكنكم في الأرض بالحق قروناً طويلة بما مَنَّ الله به عليكم من العمل بوصايا الرسول ﴿ﷺ﴾، والغيرة لله تعالى، والعمل بإخلاص لوجهه، والمسارعة إلى نشر الخير والرحمة على جميع العالم، فكان الله معنا ولنا يمدنا بحوله وطوله وقوته. وقد اتضح أثر مخالفة رسول الله ﴿ﷺ﴾، بتسليط من كانوا لنا أتباعاً وعمالاً، فصاروا متكبرين في الأرض بغير الحق.

فتذكروا عباد الله هذا المجد، وسارعوا إلى نيله من وجهته الحقة، وجاهدوا أنفسكم حتى تلين للحق وتنشط للعمل به، وتداركوا الأمر قبل فواته، واعلموا أن الاختلاف إتلاف، وأن التساهل في حقوق الله تعالى سبب الخزي والخيبة في الدنيا والآخرة. سارعوا إلى تحصيل العقيدة الحقة. وأخلصوا لله في العمل، وأقبلوا على الله بالكلية لتجديد سنن نبينا وإعلاء كلمة ربنا، وحب من حبَّبنا فيهم، وبغض من بغَّضنا فيهم، ولا يتساهل أهل الغرور فيفرحون بالعاجلة، فإن الله سبحانه لابد وأن ينصر حزبه ويعيد المجد لأهل التوحيد، ويكشف ستره عن المنافقين الذين رضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها، قال سبحانه: ﴿لَّئِن لَّمۡ يَنتَهِ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡمُرۡجِفُونَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لَنُغۡرِيَنَّكَ بِهِمۡ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾ الأحزاب: ٦٠.

ويا أهل الذمة.. من تمتعوا بهذا الخير العميم من الرحمة والعدالة والمساواة والحرية ببركة اتحادهم بإخوانهم المسلمين.. إنكم إخواننا.. لكم ما لنا وعليكم ما علينا.. فاحفظوا لأنفسكم هذا الخير فإنما أنتم شركاؤنا فيه.. واعلموا أن الله يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، حافظوا على عهدكم ليعيد الله لنا هذا الخير فتعود الصناعات والفنون والتجارات والزراعات لنا، ويمنحنا الله تعالى الوسعة في الأرزاق، والعافية في الأبدان، والأمن في أوطاننا إنه مجيب الدعاء، وكونوا أعواناً لإخوانكم في أوطانكم على الائتلاف والاتحاد، والعمل لتحصيل الخير العام. والله لا يضيع أجر المحسنين.

وما النصر إلا من عند الله:

قد يدرك الإنسان الخير ويجهل وسائل نيله فلا يناله، وقد يدركه ويعلم وسائل نيله فيناله إن كان قُدِّر له، أو يحرمه إن كان لم يُقدَّر. ولا يكون الخير خيراً إلا إذا أدركه الإنسان وتحصل عليه بوسائله المشروعة، من غير أن يُحْدِث شراً لغيره. ولكن لعن الله الجهل.. يحكم الجاهل على ما ليس بخير أنه خير، ثم يعميه الغرور فيسارع في طلبه، فإذا تعسر عليه توسل في نيله بشر الوسائل وأقبحها، وهو يجهل عاقبة الأمور. انظر بعين فكرتك إلى اللص، يحكم أن المال خير له فيطلبه بشهوة بهيمية، فإذا تعسر عليه عجل إليه بلا صبر ولا روية، وهجم على من عنده هذا المقصد محتقراً قتله، فيقتل هذا القاصد مرتكباً أكبر الكبائر محروماً من نيل مقصده، ذلك لجهله بالخير وبالوسائل التي تنيله.

وهذا اللص مع عظيم جرمه وقبيح إثمه لا يُذكر في جانب ما يسمونه السياسة، يفتح الله أبواب الخير للأمة فيمنحها القوة والتمكين والعقل المخترع، فتسخط على الله مع توالى نعماه، وتقوم فتستعمل نعمه في موجب غضبه، فتهجم على أمة أخرى في أمن وأمان وشكر لله وعبادة، يدفعها الطمع ويحدو بها الغرور فتُهلك الحرث والنسل، وتقتل الرجال والنساء، مع الفرح بما توقعه في الناس من العذاب والآلام، كل ذلك طمع فيما لا ضرورة إليه، واعتقاد بنيل الخير الذي ظنوه وهم يجهلون عاقبة الأمر، فيسلب الله منهم الملك والنعمة ويعيدهم إلى ما كانوا عليه من الخزى والذلة، وكم شهدوا بالحس تغير النعمة وسلبها، ولكن ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ عبس: ١٧.

فلنعد إلى ما كان عليه سلفنا الصالح لننال السعادتين:

قد يجهل الإنسان عدوه وحبيبه، فتنقلب في عينه الحقائق، فيرى الحبيب عدواً، والعدو حبيباً، فيسكن إلى العدو المتجمل، ويقطع الحبيب النصوح، حتى إذا تمكن العدو منه ندم، ولات حين مندم، فإذا أراد الله سبحانه وتعالى الخير لقوم أيقظهم، حتى علموا عدوهم وحبيبهم، وإنا — ولا حول ولا قوة إلا بالله — رحمنا الثعبان في فصل الشتاء لما أظهره من التماوت والضعف، وما رأينا في لين ملمسه، وجمال ظاهره، حتى لصقه أهل الغرور بأجسامهم، وتحققوا عداوة القط والكلب فأبعدوهما، وجلبوا نفعهما، فلما دفئ الثعبان مر في البيت فلم ير فيه قوة تدفعه، فنفخ السم على الضعفاء، فهبوا من نومتهم، ففروا وراءه، يحارب كل ماش بنفخ السموم، فندموا، ولات حين مندم، كذلك نحن الآن.

عادينا عوائد سلفنا، وأنكرنا آداب ديننا، وخاصمنا المرشدين النصحاء منا، ومدحنا ما أظهره العدو من اللين، وما قدمه لنا من الخدائع، وقام خطباء السوء وكتاب الشرور فنشروا بيننا رحمة العقارب بنا، وعناية الأفاعي، مقبحين محاسن العوائد، وشرا فعلوا، فلم تمض عشية أو ضحاها حتى كشفت تلك الستار المموهة، وبرز من ورائها شواظ النيران، أو مقذوفات المدافع، لا ترحم طفلا. أستغفر الله ! بل السبع أرحم بالمجتمع منهم، فإن السبع تكفيه الشاة والدجاجة، وإن عظم خطبه يكفيه إنسان متطرف بعيد عن مأمنه، يأخذه ويفر به إلى غابته، ولا يهجم إلا ليلاًحيث يكون كل إنسان في حصون الأمن منه، بل وكل حيوان من الداجنة.

يهجم السبع ليفترس حيواناً، وهؤلاء سلبوا الحيوانات والأموال، والأخلاق والعادات، ولم يكتفوا بذلك حتى نافسوا الألوهية عظمة وكبرياء وقهرا وانتقاماً، فحاربوا الله – ﷻ – بسلب النفس التي أودعها في جسم الإنسان، من حيث لا قدرة لهم على ردها منهم، يهدمون بيت ربنا الذي بناه بيديه، فهو يهب الحياة وهم يسلبونها، أعوذ بالله من قوم يحاربون القهار المنتقم عناداً وغروراً. أصبحت لا تكاد ترى مجتمعاً في الشرق وخصوصاً من المسلمين إلا وآلة حصاد زرع الله تعالى تحصد فيه، اعتقاداً منهم أنهم قادرون على الأرض ومن فيها، وجحدوا بالقوى القاهر المنتقم، وأمنوا لجانب شديد البطش العزيز.

يا رجال الشرق، يا جماعة المسلمين، خالفتم عوائد سلفكم، ونسيتم مجدكم، وأهملتم حدود الله وشعائره، وكرهتم الدين وأهله، وتغنيتم بمحاسن أوربا وترنمتم برحمتهم وشفقتهم، حتى على الحيوانات، حتى نسيتم الاحتياط منهم، وقمتم تبغضون المسلمين في دينهم وعبادتهم، وعقائدهم وآدابهم، فمنكم من قام بنشر مبادئ كفر اليونان، أو مفاسد آراء الإفرنج، وجعلتم ذلك عقلاً ومدنية وحضارة ورقياً. ولو أنكم نشرتم آداب وحكم وآراء رجل من المسلمين، الذين يعدون بمئات الملايين، لأدهشتم العالم أجمع، ولنهضتم بالمجتمع الإنساني إلى مصاف الصفاء والتعاون والإخاء، ولكنه قدر.

فهبوا من نومة الغفلة ورقدة الجهالة وهلم بنا نسارع إلى العمل بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ النساء: ٦٤، وبقوله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا

لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ هود: ١١٣، وبقوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ آل عمران: ١٣٩.

الحمد لله رفع الستار، وشهدت الأبصار حقيقة العدو والحبيب، فهلم نصطلح مع الله تعالى، ونعود إلى ما كان عليه سلفنا، فإن نحن ظفرنا سعدنا السعادتين، وإن كانت الأخرى فلنا الحسنى الباقية في جوار الأطهار من الأنبياء. والصلح مع الله تعالى أوله التوبة والاعتراف بظلمنا لأنفسنا، وثقتنا بعدونا، ثم حبنا لحبيبنا ولو آذانا، وبغضنا لعدو حبيبنا ولو منحنا ملكه، ثم إيثار من أمرنا الله تعالى بإيثارهم في معاملاتنا، ثم مجاهدة أنفسنا على محو البدع والضلالات، والقيام لله بما يحبه تعالى ويرضاه، مهما نزعت نفوسنا إلى ما يلائمها، ثم نجعل كل فرد من أفراد المسلمين بين ابن وأخ ووالد بحسب مكانته، فنرحم الولد، ونساعد الأخ، ونبر الوالد، ثم نحصل العلوم النافعة، وخصوصاً شمائل رسول الله، وتراجم سلفنا الصالح، ونجتهد أن نتشبه بهم، حتى نكون منهم، أو — على الأقل — معهم.

الباب الأول

الوسيلة الأولى لنيل المجد الإسلامي

الرجوع إلى الله

الفصل الأول: إقامة الحدود

أقيموا الحدود قبل نار الوقود:

يعلم الإنسان ما له من قوة التأثير على جميع الأنواع الموجودة في الكون، ويرى تسخيرها له، ويحس بأن كل الموجودات أهِّلت لنفعه في الدنيا والآخرة، ويعتقد أن هذا التسخير لم يكن لأنه يخرق الأرض بقدميه، أو يبلغ الجبال طولاً بجسمه، أو يقهر أقل وحش بما فيه من المخالب الحديدية أو النفثات السمية أو القرون الفولاذية، بل هو على يقين أنه أضعف الخلق جسماً وأعزلهم من السلاح، ومع ذلك فإنه حكم على الهواء والماء والوحوش الضارية والمعادن الصلبة والنار الحامية، بل والأفلاك الثابتة والسيارة، وكل ذلك بما ميزه الله تعالى به من العقل الإنساني، الذي به إطلاق التصريف في العالم كله، وبه كرَّمه الله تعالى وحمله في البر والبحر، ورزقه من الطيبات، وأقام له الدلائل الواضحة على أنه عبد الله تعالى ممنوح نعماً لا تحصى، ثم طالبه بشكرها بما كلفه به ونهاه عنه. يميل الإنسان بفطرته إلى الدين، ويجهل السبيل الموصل إلى ربه، ولجهله كفر أكثر بني الإنسان بالله مع البحث عنه، فمنهم من عبَد الصنم، ومنهم من عبَد الكواكب، ومنهم من عبَد الملوك، لأنهم بحثوا عن الله بما يبحثون به عن منافعهم وهو الحس والعقل، وإنما الحس مسخر للعقل، والعقل لإثبات أن الإنسان مخلوق له خالق.

أما معرفة الخالق وعلم الآداب الواجبة له فطريقها رسول الله (ﷺ)، الذي تقوم الحجة بالمعجزة على صدقه، ويقبل العقل ما جاء به. وكل دين ينقص الرب العلي العظيم فيجعله

جسماً أو حالًّا في جسم أو أنه له شبيه أو نظير في العالم، فهو دين لا يقبله عقل ولا يصح به نقل. وأهل الإيمان بالله الذين كشف الله لهم الحجب فاطمأنت قلوبهم بأنه سبحانه وتعالى عليٌّ عظيم، منزه عن نقائص الأجسام، وعن أن تلحقه ﷻ عيوبها من الضرورة والتغيير والاحتياج والتأثير عليه، بل ومقدس علوا عن أن يحتاج إلى أن يقيم غيره معبوداً ليقرب عباده إليه، أو إلى أن يخلص الخلق من غضبه بفعل ما يغضبه سبحانه.

كبرت نفوس أهل الإيمان بالله عن أن يتصوروا ربهم بصورة تحكم عليه العقول بها، أو يتمثلوه في شخص تحيط به أسوار الحجرات، لأن الحس يحكم على الكون المقهور لا على القهار الخلاق.. عَلِمَ أهلُ الإيمان أن الله ﷻ الذي تفضل علينا بالإيجاد والإمداد، أوجب علينا بعد الإيمان به أن نعز أنفسنا من أن تذل لغيره، بأن نسارع لنيل مرضاته قياما بما أوجب، وتركا لما نهى عنه، وأن نغار لأحكامه كما نغار لتوحيده.

ولما كان البلاء الوافد على المجتمع الإسلامي محصوراً في هدم آداب الدين، هجم على البلاد البغايا العاهرات يحملن عضال الأمراض من السيلان والإفرنجي والجزام والسل الرئوي والروماتيزم، فوجدن معينا من الحكومة، وظهيراً من المنافقين، حتى جعلت قوة الحكومة التي تحفظ الأمة من المفاسد الأخلاقية والجسمانية معينة على تلك الرذيلة، فتجد أماكن البغايا العاهرات يحفظها الشرطة حتى لا يغار لعرضه أخ ولا زوج ولا والد. ثم جاء جيش الخمر فوجد له معيناً وظهيراً فأغلقت أبواب المساجد، وفتحت أبواب الحانات وبيوت العاهرات ليلاً ونهاراً، فأفسد الخمر الدين والأخلاق والأبدان، حتى انتشر الفساد وعم البلاد، وخمدت نار العقول وهمدت صلابة الأجسام. ثم جاء جيش الميسر (القمار) فألقى العداوة والبغضاء بين أفراد الأمة، وملأها خبثاً وشحناء وضغائن، واتصل بتلك الجيوش وملحقاتها من الحشيش والبنج والأفيون والدخان والتمباك والقهوة، فنزفت الثروة، وأفسدت الصحة، وأضاعت الأوقات في الهلكات. ثم ضرب هذا الجيش المحارب أطنابه ودق أوتاده، فشيدت أماكن اللهو، وزخرفت أماكن الخلاعة والدعارة، واشترك الرجل والمرأة حتى أصبحوا كأنهم بهائم راتعة، لا حلال ولا حرام، ولا دين يعصم النفوس، ولا قوة تدفع الرذائل.

يا أهل الإيمان بالله: الشريعة ما نُسخت، وكل فرد منكم مطالب أن يقيم حدود الله على نفسه وعلى غيره، فهل نسيتم أو تناسيتم أن الله حرم الخمر والزنا والربا والميسر، وهدد من فعل ذلك بالذل والبلايا في الدنيا وبالعذاب الأليم في الآخرة ؟ يا أهل الإيمان بالله ورسوله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾، ما كفاكم أن تروا بأعينكم غيركم يغضب الله بعمل ما حرم، فتساهلتم عن إقامة حدود الله تعالى، بل وعن النصيحة والموعظة بالتي هي أحسن، حتى وقعتم فيما يغضب الله تعالى، لا فرق بين العالم في درسه، والتاجر في سوقه، والصانع في مصنعه، والفلاح في مزرعته. تداركوا الأمر عباد الله، وتوبوا بسرعة إلى الله، فإن علامات غضبه ظهرت، ودلائل انتقامه ممن جاهر بمعصيته تبينت، وتذكروا ما حل بالتجارة والزراعة، بل وانظروا بعين العبرة إلى الهرج والمرج في كل أرض، بل وانظروا ما حل بكل العالم كيف أصبح الإنسان عدوا للإنسان، يتلذذ بتمزيق جسم الإنسان بالنيران، ويبتهج بهدم المدن وإهلاك ما فيها بالمقذوفات، أصبح العالم لا أمن فيه ولا أمان من غضب القهار.

ارجعوا إلى التوبة قبل فوات الوقت، واتركوا الخمرة والزنا والربا، وإلا أمسكت السماء ماءها والأرض نباتها، وسلط الله على من يغضبه من الناس ما لا قبل لهم به.

أيها المؤمن بالله ورسوله ﴿ﷺ﴾ تنبه، فليس من عرف الله كمن جهله، ومن عاهد ربه كمن لا يعاهده، ولا من صدق بالله ورسوله ﴿ﷺ﴾ كمن كذبه، فإن الله غيور يعجل العقوبة في الدنيا لمن عرفه وخالفه، ويؤخر عقوبة من كفر به إلى يوم القيامة. أسأله سبحانه وتعالى أن يشرح صدورنا للتوبة، ويجدد بنا سنن نبيه ﴿ﷺ﴾، ويجعلنا ممن سمعوا وأطاعوا إنه مجيب الدعاء.

ارجعوا إلى الله تنالوا الخير:

نعم إنا على يقين حق أن هذا المجد الذي ناله أسلافنا، وهذا الملك الذي فاز به آباؤنا، وهذا النور الذي لا تزال سواطعه تومض فتخاف منها ملوك الأرض، إنما كان باتباع رسول الله ﴿ﷺ﴾ والعلم بكتاب الله، والتاريخ يعيد بعضه بعضاً.

وليس بيننا وبين أن نكون كسلفنا الصالح إلا أن نتشبه بهم ولو تكلفاً ومجاهدة لأنفسنا حتى نكون مثلهم. وليس الأمر بصعب على المؤمن، فإن الله ربنا، وسيدنا مُحَّمد

﴿ﷺ﴾ نبينا، والكعبة قبلتنا، والقرآن إمامنا، والسنة عملنا، وبهذه الأصول وصلوا إلى الله تعالى، سخر لهم ملكه وملكوته، وهم رجال ونحن رجال. وإنما هي يقظة قلب يتوجه بإخلاص إلى الله تعالى، فيواجهه الله تعالى بنور وجهه ويقبل عليه سبحانه، فيكون الله معنا ونكون معه. وإنما المعاصي التي أدت إلى أن أصبح أهل كل بيت منشقين على بعضهم، هي أعمال الإنسان في غنى عنها، وتروك لا يصعب على الإنسان القيام بها. أما تلك الأعمال فاستعمال الربا في التجارات، واستعمال الغش في الصناعات، واستعمال الخيانة في الزراعات، واستعمال الخنا في الأعراض، وتناول الحرام من الشراب والطعام مما عمله يضر ولا ينفع. وأما التروك من المعاصي فالتساهل بالصلاة والزكاة والصيام والحج والبر والصلة، وإن تلك المعاصي ما كان منها عملاً أو تركاً فهي ضرر في العاجل والآجل، ضرر في الصحة وفي الأموال وفي الجاه، ولا نرى مرتكباً للمعاصي إلا وهو مريض الجسم حقير بين الناس. وكم ضيعت المعاصي مجداً شاده الآباء، وخربت بيوتاً أسست على التقوى من آباء كرام. أما الطاعة فكم أعزت ذليلاً، ورفعت وضيعاً، وأغنت فقيراً، فعجبا للمسلم !!.

نظرة عامة:

ليس المجد مالاً تجمعه، ولا عقاراً تقتنيه أو جاهاً تحصله ما دامت وسائله باطلة، فإن كل ما أسس على الباطل ممحوٌّ زائل. إنما المجد علم نافع ينفعك وينفع قومك، وعمل صالح يرفعك ويرفع من يقتدي بك، واجتهاد في تحصيل الخير الدنيوي ليكون معيناً لك على نيل رضاء الله تعالى ببذله فيما يحبه من وجوه الخير، ومسارعة إلى نفع العالم بالخيرات، وتخفيف آلامهم بالمبرات، وتجديد ما اندثر من السنن.

بالقرآن سعدنا وبالعمل به سدنا:

قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ يونس: ٥٧.

وقال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ الإسراء: ٨٢.

وقـــــال ﷻ: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ الأعراف: ٩٦.

وقد رفع الله تعالى الصحابة رضوان الله عليهم في الدنيا، حتى محا الله بهم ظلم الظالمين وملك الطغاة المتكبرين، حتى فاز العالم أجمع بالحرية والإرادة والمساواة وزال كبرياء كسرى، وتقلص ظلم قيصر، وانمحى جبروت هرقل، وصار الإنسان أخا للإنسان، لا يرى الأمير لنفسه فضلاً على الحقير في أمر أو نهي إلا بحق من حقوق الله تعالى، ولا يخاف الحقير إلا ذنبه، ولا يرجو إلا ربه. مكن الله لهم ولتابعيهم وتابعي تابعيهم في الأرض بالحق. كل ذلك كان لأن القرآن كان هو السلطان القاهر للنفوس، دامت الأرض فرحة بمن عليها، والسماء مستبشرة بما يصل إليها من أعمال البر والخير، من الأنوار المتصاعدة من أنفاس المسلمين العاملين بكتاب الله وسنة رسول الله، والملائكة الحافون حول العرش يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون للذين آمنوا ﷺ لنيلهم الرضا من الله تعالى. هذا ما تفضل الله به عليهم في الدنيا من التمكين والعلو في الأرض بالحق، فكيف يكون ما يمن به عليهم يوم القيامة ؟ ذلك ما لا تصل إليه عقول العقلاء، قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ﴾ السجدة: ١٧. عملوا حقا، ولكن بما أمر به القرآن وبيَّنه رسول الله ﴿ﷺ﴾ وأصحابه. وتركوا باطلاً، ولكن ما نهاهم عنه القرآن. وباب التوبة مفتوح، وطريق القبول مسلوك.

وكان الرجال ﷺ قليلاً عددهم، قوياً إيمانهم، سليمة قلوبهم، وأصبحنا كثيراً عددنا، ولكن قل هذا العدد بالتفرقة، وتمكن العدو منه لضعف الإيمان. وليس الأمر بعزيز على المجتمع الإسلامي أن يسارع إلى العمل بما كان عليه السلف الصالح وهو العمل بالقرآن، والغيرة للقرآن، واعتقاد أن الخير محصور في القرآن، لنسعد كما سعدوا بالقرآن، ونسود كما سادوا في الدنيا والآخرة، وننال مقاماً تسارع إليه أرواح الصديقين وهو معية رسول الله﴿ﷺ﴾، والفوز بدرجات أهل السابقية جوار الأخيار، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم. والعمل بالقرآن يجعلنا نرتقي إلى أن يكون الله تعالى معنا، ويجعلنا سبحانه وتعالى معه، فيقيمنا في معية أبدال رسله الكرام، وينزلنا منزلة الصديقين من أحبابه الأطهار. أي نفس تحققت أن العمل

بالقرآن وبالسنة ينيل هذا الخير العظيم، مع أن الواجب على كل مسلم أن يعمل بالقرآن والسنة ابتغاء رضوان الله الأكبر. وبعد هذا كله يخالف ذلك كله، ومخالفة الكتاب والسنة تسلب الأمن، فيكون المخالفون أذلاء لأعداء الله، يسومونهم الخسف والمهانة ويستعبدونهم، بل ويحرمون العافية الجسمانية والروحانية، أما الجسمانية فلما ينالهم من الاعتقال والنفي والفر لسلب الأعداء موارد الخير، وأما الأمراض الروحانية فبسبب الهموم التي تعتريهم فتضعف العقيدة، ويزول حسن الظن بالله، وتفسد الأخلاق حتى قد يتناسى المسلم أركان الإسلام، وربما سارع في الأعداء كما حصل في الأندلس وغيرها، وإن تلك الحوادث صارت محسوسة ملموسة وأصبحنا جميعاً لا ملجأ ولا منجى من الله إلا إليه.

وسبيل نجاتنا وسعادتنا ميسور جداً سهل على كل إنسان، ألا وهو يقظة القلب، والعزم على أن يعود إلى الكتاب والسنة، مجاهداً نفسه على ذلك، مبينا لإخوانه ما ينالونه من الخير في الدنيا والآخرة، وإنما هي حركة قلب، فاعتراف بالتقصير فندم على مخالفة وصايا نبينا ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾، فعزم على الأخذ بالعزائم، فإهلاك أعدائه وأعدائنا، فتمكين في الأرض بالحق، قال الله تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ النور: ٥٥. وعلامة ذلك أن نتذكر ماضينا مجداً وتمكيناً في الأرض، وسيادة على العالم أجمع بالحق، مما كان لسلفنا الصالح وهم القليلون عدداً الكثيرون مدداً، وننظر إلى حالنا ونحن كثير عددنا؛ لم ينتفع القوم بكثرة العدد لمخالفتهم ما به القوة والمدد، وليس بعد العيان بيان، ومن لم توقظهم الحوادث العظام والمظالم والآلام فهم حسالة، عليهم السعادة حرام.

فهلم بنا نرجع إلى كتاب الله وسنة رسول الله ﴿ﷺ﴾، ونقتدي بأئمتنا المرشدين الهداة من السلف الصالح، وكل واحد من المسلمين أعلم بعيوبه ومخالفته من أكمل واعظ، وأعلم بالحلال والحرام من كل عالم، قال ﴿ﷺ﴾: (الحلالُ بَيّنٌ والحرامُ بينٌ) إذ لا يحس بآلام المرض إلا المريض. وقد اشتد الكرب وصعب الأمر، وتسلط علينا من لا رحمة في قلوبهم، فجاسوا خلال الديار وطعنوا في الدين، وأزعجوا الآمنين في بيوتهم بشواظ النار من مقذوفاتهم، وحرق المزارع والبيوت

بلهيبها، فلا مَن أصابه هذا البلاء يحس بسببه من المعصية والمخالفة، ولا مَن غاب عنه وسمع به يسارع بالرجوع إلى الله بالتوبة والعمل بكتابه وسنة نبيه، ويسأله أن يتدارك إخوانه بخفي لطفه، بل ترى جماعة المسلمين يسمعون تلك الأخبار التي تذيب القلوب، فمنهم من يجلس مع الذين يمزقون جلود إخوانهم ويظهرون لهم أنهم ليسوا متعصبين، وربما عاملوهم بالإحسان احتقاراً للعاطفة الإسلامية، ونسيانا لوصايا رسول الله، ومسارعة إلى النفاق. بل ومنهم من يتقرب إليهم ليكون عيناً لهم، أو مساعداً لهم على عذاب إخوانه، وتمزيق جلودهم طمعاً في مال يفنى، مع أن الحجر الصلد إذا جلس بجواره ظمآن فقد يتشقق فيخرج منه الماء كما حصل لسيدنا إسماعيل ولسيدنا موسى وغيرهما عليهم الصلاة والسلام.

لا تعجب أيها السامع، فإن الإنسان قد ينقلب فيكون شيطاناً مارداً، وكيف لا ؟ والإنسان بمعناه يرحم الحيوان إذا آذاه صاحبه، وجمعية الرفق بالحيوان من الأعداء من حبائل الشيطان. هلم إلى العمل بكتاب الله وسنة رسول الله، وأحبوا من أحبه الله، واكرهوا من كرهَهُ الله وما كرهه الله، وتحققوا أن الدنيا دار ممر لا دار مقر، فإن المرء لا يعلم كم بقى له من أنفاسه في تلك الدار.

لعل جاهلاً يقول: إن العمل بالقرآن يضر غير المسلمين. فأجيبه: إن هذا الفهم من جهل وسعة القرآن. فإن غير المسلمين إما أهل ذمة الله ورسوله، وهم إخواننا ومواطنونا، وعليهم ما علينا، وقد جعلت لهم السنة من الخير والنعم ما ليس لنا، فهم معافون من الوقوف أمام العدو، وممتعون بالحرية التامة في دينهم وعوائدهم وأخلاقهم، لا يعارضهم أمير ولا سلطان إلا ما تعلق بالظلم منهم على غيرهم. فهم فيه والمسلمون سواء. وقد منع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رجلا من قواد المسلمين أن يبني غرفة فوق بيته احتراماً لجيرانه من أهل الذمة، خوفا من أن ينظر إلى عوراتهم، وأمر أن تستوي الأمة حتى في بيوتهم. ولذلك كان الأغنياء يبنون مساكنهم في الأطراف حتى لا يؤذوا جيرانهم. وفي القرآن والسنة من السماح والرحمة بأهل الذمة ما جعلهم في نعيم وترف أكثر الناس أموالاً. وغير أهل الذمة من غير المسلمين إما أن يكونوا على عهد منا أو محاربين لنا، فالمعاهدون لهم الوفاء بعهدهم، ومزيد من الإحسان إليهم، والمحاربون أمرنا القرآن أن نحسن حتى في محاربة أعدائنا. وبهذا أسرعت الأمم إلى اعتناق الإسلام، ولو علم أعداؤنا ما أمرنا به القرآن

بالنسبة لهم لبذلوا ما في وسعهم لنرجع إلى العمل بالكتاب والسنة، والله تعالى أسأل أن يوقظ قلوبنا، وأن يمنحنا التوفيق الذي يجمعنا على الحق إنه مجيب الدعاء.

أعيدوا مجد الأولين بالعمل بالدين:

كان الشرقيون[1] قبل الإسلام على حالة لا يجهلها أحد من الذلة، والقلة، والظلم، ومن التفرقة وقهر بعضهم بعضاً، ومن استعبادهم للظلام من الأكاسرة والقياصرة وغيرهم من المتسلطين، لا رحمة تؤلف قلوبهم، ولا علم يدعوهم إلى تحسين حالهم، ولا دين يبين لهم العمل لحسن مستقبلهم، حتى جاء الإسلام وكانوا في جاهلية عمياء، فحاربوه في أول نشأته، ولكن الله سبحانه وتعالى أيد نبيه وأظهر دينه، حتى دان لهم من بالمشرق والمغرب، فأسلم أهل العقول منهم، وأبى من لا عقل لهم. والإسلام دين الرحمة فرحم من لم يؤمنوا، ووسع القوم بعطف وحنان وهم قليل بين الكثرة، ولكنهم كانوا في حرية مطلقة ومساواة مشرقة لا فرق بين فقيرهم وغني المسلمين، ولا بين حقيرهم وخليفة المسلمين. وقد أمر عمر بن الخطاب ﷺ القبطي أن يلطم وجه ابن أمير مصر، فكان حسن المعاملة ولطف المجاملة وإنزال غير المسلمين منا منزلة أنفسنا موجبا لإدخالهم في الإسلام.

أخذ هذا المجد ينمو وهذا الخير يعم من فاتحة الإسلام وإلى الآن والحمد لله ولا أدل على ذلك من إسلام أربعين مليوناً (بجاوا) برجل مسلم أقام بين ظهرانيهم متخلقا بأخلاق الإسلام، عاملاً بوصايا رسول الله ﴿ﷺ﴾، وفي (سنغافورة) أسلم القوم بما شهدوه في رجل مسلم من العلويين، لم يكن معه مال ولا جيش، بل ولم يأت لكيد القوم واستعبادهم بالحديد والنار، كما فعل الإنجليز في الهند وفي مصر والسودان واستراليا، وكما فعل الأسبان في الأندلس وأمريكا، وكما فعل قيصر الروسيا في القوقاز والتركستان وفي سيبريا، وكما فعلت فرنسا في تونس والجزائر وسوريا، وكما فعلت إيطاليا في طرابلس والصومال وأرتريا، وما عمله الإفرنج في أصحاب أمريكا الأصليين، وإلا فأين مسلموا أسبانيا والهنود الحمر في أمريكا وسكان استراليا ؟ مع أن قبطياً واحداً توجه إلى

(1) الشرقيون: هم الذين استعمرهم الغرب من أمم أفريقيا وأسيا.

المدينة شاكياً، فأنزله أمير المؤمنين في داره وأغدق عليه نعمته، واقتص له من خصمه (ابن أمير مصر).

حشدت أوربا المدمرات في الجو وفي أجواف البحار، والمهلكات في السيارات والدبابات، والسالبات للعقول وللصحة بجيوش العهارة والمسكرات والمخدرات، والماحقات للدين والأدب والإخاء بكيد المبشرين وخدع السياسيين، وإفساد أبناء الأشراف المحبوبين للأمة، مع أن أوربا بجيشها ومالها وجيش المبشرين لم تتمكن أن تجعل شرقياً من الوثنيين نصرانياً، فكيف تؤثر على مسلم ولو كان ضعيف العقل ؟ ولم يقف شر أوربا على سلب مرافق الحياة وخروج كل أمة على الأخرى بكيدهم، بل ولا على إفساد العقول والأخلاق والعادات الفاضلة بجيوش المبشرين والعهارة والمسكرات والمخدرات، بل ولا على إذلال أسر الشرف، حتى تعدوا إلى أن أفسدوا عقائد من تربوا في بلادهم، وأرجعوهم جيشاً قاهراً للدين محارباً لأهله، وكيف لا ؟ وإننا نرى بعض من تربوا في الأزهر وحصلوا العلوم بأوربا حرموا ذوق حلاوة الإيمان، وفهم أسرار القرآن، وأقعدهم إفساد أوربا لهم عن القيام بالعبادة الواجبة عليهم، والأدب للدين اللائق بهم، ويا ليتهم وقفوا عند هذا الحد، حتى قاموا يؤيدون المبشرين، فمنهم من أنكر أخبار القرآن مجاهراً بذلك، غير هياب ولا وجل بين ظهراني أمة مسلمة وحكومتها مسلمة، فإذا قدم للقضاء لضعف الأمة أن تأخذ بناصر الدين، تعصب له من تسممت عقائدهم بتعاليم أوربا، ونصرهم من لا يعرفون من الدين إلا اسمه، ولا يعلمون منه إلا رسمه، ولكن الحق لا يعدم نصيراً.

كل ذلك كيد أوربا لنا في ديننا ودنيانا وفي وطننا العزيز. وهنا يكون الحكم بأن لا راحة للمسلمين، ولا للشرقيين، ولا حفظ لدين الإسلام، ولا لأهل الأديان الذين حفظهم المسلمون أربعة عشر قرناً إلا بالرجوع لأصول ديننا والعمل بفروعه، وبتأييد أولي الأمر منا تأييداً يحفظهم من كيد أوربا ومن الخارجين على الدين والأدب الشرعي. إن الحكومة إذا لم تقض عليهم القضاء الواجب عليها بقهر كل خارج يريد تفرقة الأمة، وإثارة عواطفها، فالأمة لم تعدم الأخذ بناصرها غيرة لدينها ودفاعا لشر كيد أعدائها، وها هي معاملة المسلمين من بداية الإسلام إلى الآن معاملة الرحمة والوسعة، ولو أننا قابلنا بين معاملة أوربا وبين معاملتنا لانكشفت الحقيقة، وعلمنا أن تحرير العبيد والرفق بالحيوان طليعة المدافع والطيارات، بل وجيش الإبادة والتدمير.

سلوا يا قوم الترك في صولتهم ودولتهم، كيف كان بينهم أقلية من النصرانية فحفظوها عملاً بالدين ؟ وانظروا إلى كل الأمم الإسلامية في أيام القوة والتمكين، كيف أكرموا من بينهم من اليهود والنصارى، فكنت لا تعرف اليهودي و النصراني من المسلم إلا في المسجد أو البيعة، فإذا خرج المسلم والنصراني واليهودي من المسجد أو البيعة كنت لا تميز بين الأمير المسلم وبين الحداد والبناء، هذه تعاليم الإسلام.

أما تعاليم أوربا التي تحرر العبيد وتشكل جمعيات الرفق بالحيوانات، فإبادة أهل الشرق، وتدمير مدن الشرق واستعباد من فيه، ولا خلاص لنا إلا بالرجوع للعمل بالدين، ولا نجاة لنا إلا بالمحافظة على منهج السلف الصالح، ولديها تعرف أوربا أنها تمكنت بالحديد وظلمت أهل السلم والسلام، فمحا الله ملكها وأذل سلطانها، والله غالب على أمره.

التمسك بالدين شرف في الدنيا والآخرة:

إن الله تعالى أمرنا أن نفكر في كل شيء خلقه، وأن ننتفع بخواصه التي لا يمكن الانتفاع بها إلا بالفكر والعمل، وحرم علينا أن نفكر فيما وراء المادة من الغيب المصون. وأمرنا أن نسلم لرسوله ﴿ﷺ﴾ فيما جاءنا به من عنده تسليماً، لأنه هو الخلاّق العظيم ونحن المخلوقون، والمخلوق مهما كمل وزكت نفسه لا يمكنه أن يعلم من الغيب شيئاً، لأنه لا نظائر له في الكون المحسوس ولا أشباه، وكيف الوصول إليه إلا به سبحانه ؟ وكيف العلم به إلا بخبره سبحانه ؟ ولو أن الإنسان يصل بنفسه إلى الخير الحقيقي لما جاءتنا الرسل مبينة لهذا الغيب.

والإنسان من غير الدين يكون كالبهائم السائمة، لا يحفظ عرضاً، ولا يفي بعهد، ولا يقوم بتأدية عقد، لأنه من حيث هو إنسان لا فرق بينه وبين الوحش والبهائم، يسلب القوي الضعيف، ويملك الشجاع الجبان، لا يراعي الحق في شئونه ولكن يراعي حظه وهواه، وبذلك تفقد الإنسانية معانيها، وإنما ينال الإنسان الخير الحقيقي إذا منحه الله تعالى نفساً فاضلة طاهرة، وكتب في قلبه الإيمان وزينه له، وأيده بروح منه، وبغير ذلك فالإنسان شر كله، ولا أدل على ذلك من دول أوربا التي تفننت في اختراع المقذوفات لإبادة بني جنسها من أفراد أمتها ومن غيرها من

الأمم، فتسوق أفراد الأمة إلى الموت الزؤام يقتلون غيرهم ظلماً، ويقتلون هم لسعادة أممهم، لأن الرحمة سلبت من قلوب المتسلطين على أممهم.

إذن يظهر من هذه المقدمة أن من لا دين له لا أمان له، وأن المتساهل بأحكام الدين خرج من الإنسانية وانحط إلى مرتبة البهائم، بل قد يكون بعض الحيوانات خيراً منه لبني الإنسان، فما شئت أن تراه سبعاً وبيده الخنجر يقتل أباه أو أخاه وجاره لما عنده من المال، أو يهتك عرض أخيه أو جاره لحسن فتاة عنده. بل ما شئت أن تراه يشرب السم الزعاف من الخمر والمخدرات كالبنج والأفيون والمعاجين ليقتل نفسه بيده، وما شئت أن تراه يدخل السموم إلى جوفه بشم العقاقير السامة إلا رأيته. والبهيم لا يأكل ولا يشرب إلا بعد تحققه من صلاحية مأكله ومشربه. قتل الإنسان ما أكفره. إن الدين حصن الأمن، ودليل على العقل والفضل والمروءة، وكل متمسك به أقام الحجة لنفسه أنه إنسان فاضل كامل، سعيد في الدنيا والآخرة، وكل متهاون بأحكامه أقام الحجة أنه انحط عن رتبة الإنسانية أو البهيمية أو الإبليسية بحسب همه ولمه.

فتمسك يا أخي بالإسلام، واعمل بشرائعه، وكن مع الحق مهما أصابك في سبيله، وإياك والعواطف والمسارعة إليها، فإن ذلك موبق في الدنيا بالأمراض والفقر، وموجب للعذاب في الآخرة بالخلود في نار جهنم، أعاذنا الله وإياك منها، ورزقنا الله التمسك بشرائع الإسلام لنسعد في الدنيا والآخرة.

عذر لا يقبل:

يعتذر أهل الضلال أن الملابس الإفرنجية لا تمكن الإنسان من الصلاة لتعذر الوضوء والركوع والسجود بها. ويعتذر من لا خلاق لهم أن الأعمال في الورش والمصانع تمنع الصناع من الصلاة لضيق الوقت !!.

وعجباً لهؤلاء !! إن الله وسع لأهل الضرورة أن يجمع العبد بين العصر والظهر في وقت واحد، وأن يجمع المغرب والعشاء في وقت واحد، وإن العمال الذين يعتذرون لضيق الوقت يسمح لهم بين الظهر والعصر بساعة على الأقل للغذاء، وصلاة الظهر أو العصر لا تضيع من الإنسان أكثر من عشر دقائق، فلو كان مؤمناً حقيقياً لما أضاع وقت الصلاة، فلو أنه توضأ وصلى الظهر

في وقت راحته وبقى على وضوئه حتى صلى به العصر في المعمل لأحبه صاحب المعمل ولو كان يهودياً، لأن المتمسك بالدين يحبه كل مخلوق. أما أصحاب الملابس الإفرنجية الضيقة فإن الرجل منهم يتوجه إلى بيته في الساعة الواحدة زوالية للراحة وتناول الطعام، فيمكنه قبل تناوله أن يخلع ملابسه ويتوضأ ويصلي في عشر دقائق يروض بها جسمه وقلبه، ثم يتناول طعامه وينام إن شاء فإذا قام من نومه توضأ وصلى العصر، وارتدى ثيابه وخرج لعمله إن كان وراءه عمل، ووقت غروب الشمس تنتهي كل الأعمال فلو أنه توجه إلى المسجد في طريقه فصلى المغرب لكان مؤدياً لواجب دينه ودنياه، ولما كلفه ذلك شيئاً في سبيل سعادته في الدنيا والآخرة. ولو تصور هذا الذي يمسح « جذمته » بمنديله أن جسمه سيأكله الدود في القبر وأنه أهمل جوهرته النورانية من تهذيبها وتثقيفها بالعلم النافع، لكان خيراً له من عنايته بمسح «جذمته » ونظافة بدلته، يعتني بنفسه ويبحث عن آخرته. وكم من جاهل مغرور يعتني بنظافة الثياب، ويترك اللطيفة النورانية فينحط إلى رتبة البهائم السائمة.

وما فخر الرجل بثياب وقد خاطها العامل البسيط، إنما الفخر كل الفخر بالأخلاق السامية، والأعمال النافعة، والعلوم الرافعة. ولكن ماذا نقول لمن سجل عليه القضاء أن يكون ضالاً مبتهجاً بالحياة الدنيا وزينتها، ناسياً يوم الحساب، ناسيا بدءه وهو بولة، ونهايته وهي جيفة، وهو فيما بين ذلك يحمل ما يعاف أن يشمه أو يراه من العذرة. ولكن.. قتل الإنسان ما أكفره، يفرح بالقليل الفاني، ويترك بهجة الحياة الدائمة في جوار الأخيار من الصديقين، والأبرار من المؤمنين، والأطهار من المقربين، قال تعالى: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ الكهف: ١٧ فليبادر إخوتي أعزهم الله تعالى بالرجوع إلى الحق، فالحق أحق أن يتبع، والباطل أولى بأن يجتنب، وكفى تعسة أن تسلط على الشرق من كانوا أتباعاً له، فمن نأت دارهم وقل عددهم، وإلا فكيف تسلطت دولة هولندا على جاوا وبينها المسافات الشاسعة وسكان جاوا كانوا أربعين مليوناً وهولندا كانت لا تتجاوز الخمسة ملايين ؟.

كل ذلك بترك الدين وراء ظهورنا، وتقليدنا لقوم سعدوا بترك دين كله رهبانية، وإطفاء لنور العقل، وميل إلى خراب الدنيا وتحريم طيباتها. والإسلام والحمد لله دين الوسعة والعلم والعمل

للدنيا والآخرة، والتاريخ شاهد عدل على ما كان لنا أيام تمسكنا بالدين والعمل بشرائعه، والله ولي المؤمنين.

الفصل الثاني: نصرة الحق

انصر الحق ولو على نفسك:

الحق وإن ثقل على النفوس فهو هنيئ مرئ، وقد ينسى الإنسان الحق أو يتناسى فيحصّل مالا ينفعه في الحقيقة من مال وجاه وذخائر، واتصال بذي سلطان لوسائل تذهب الدين والشرف، فيضيع نفائس الجواهر في تحصيل رديء الأحجار.

أيها الإنسان.. إن مسرات ضميرك بفعل الفضائل وتحصيل المكارم – إذا تبصرت – فوق مسرات حسك وجسمك بتحصيل المشتهيات، أو بالنظر إلى جميل المناظر، أو بالإصغاء إلى الثناء والمدح. يعتقد المسلم أنه بنصرته للحق ينال رضاء الله تعالى وثناءه الإلهي عليه، والفوز بالنعيم المقيم في جوار الأخيار من الأنبياء والصديقين. كيف يرضى المسلم أن يغضب الحق بنيل شهوة بهيمية، أو جاه لا يدوم، أو ذخيرة لا ينتفع بها، أو اتصال بقوم يتبرأ منهم يوم القيامة ؟ .

مكن الله للمسلمين في الأرض بالحق مذ كان المسلم إذا هَمَّ بمعصية أدب نفسه بالجوع والعطش أياماً، أو خرج من ماله، أو فارق الأرض التي سببت له الميل إلى المعاصي خوفاً من أن يكون سبباً في غضب الله على المجتمع. مكن الله لهم في الأرض بالحق، لأنهم كان العالم منهم يضرب بالسياط ليتولى عظيم الولايات كالإمام أبي حنيفة وغيره فيأبى، فكان الحق أحب إليهم من حياتهم العزيزة عليهم. كان الرجل يقول الحق ولو أدى ذلك إلى قتله نصرة للحق، مكن الله لهم في الأرض بالحق حتى انتشرت أنوار الفضائل على المجموعة، فانتفع العالم أجمع بهذا النور المشرق.

نصرة الهوى بطلان الرأي:

إن الأمة إذا وقفت أمام عدو قوي زهد أفراد الأمة فيما لهم من الكمالي رضاء بالضروري، حرصاً على نيل مالا تقوم الحياة إلا به من الإرادة والحرية التي خلق الله الإنسان مجملاً بها، لتنتفع الأمة بآراء أهل الرأي، وفقه أهل الفقه، وصناعات أهل الصناعة، وشجاعة الشجعان، وسياسة الساسة، فتكون الأمة كالجسد الواحد كل فرد منها ككل عضو، وجميعها كالجسد الكامل. ولما كانت سعادة الأمة متوقفة أولاً وبالذات على آراء أهل العقل والحصافة المحنكين، الذين خبروا الدهر، وعلموا العلل والبواعث والأغراض التي تعمى الأبصار والبصائر عن الحق،

وعرفوا حق المعرفة ما للنفوس الإنسانية من النزوع إلى الاستئثار بالخير، من نفوذ الكلمة، ووفرة المال، وكثرة الأنصار، ثم فهموا حق الفهم قصود الأعداء وخفي دسائسهم، وتربصوا الفرص التي تمكنهم من الغيرة لخير الأمة، واحتقار الحظوظ والشهوات، واحتقار الحياة أمام الخير العام للأمة، هؤلاء هم رجال الرأي الذين يجب أن تمدهم الأمة بما به تنفيذ آرائهم وتأييد مبادئهم.

على أن الأمة يجب أن تعتقد أن رجال الرأي ليسوا معصومين، فإنهم ليسوا رسلاً ولا أنبياء. يجب على الأمة ألا تضع ميزان النقد بالعدل من يدها، فإن الحكيم المجرب العالم بوجوه الرأي وسبل النجاة من مهاوي الهلكة، قد تعتريه أمراض نفسانية فتفسد عليه رأيه، وتلفته إلى العمل بما يضر ولا ينفع. وكم من أئمة بارعين في رأيهم خبيرين بخفي الأمور وجليها، أعماهم الهوى عن وجه الصواب، قال سيدنا عليّ: (الهوى أخو العمى).

الحق جلي لا يخفى:

نعم.. إن الإنسان يعرف الحق ويحبه، ولكنه مع هذا يميل إلى الباطل ويعمله مع اعتقاده بسوء عاقبته، وندمه بعد عمله، ما سبب ذلك ؟ سبب ذلك الهوى. انظر ترى عدو الإنسان الشيطان ونفسه، وهو يعلم ذلك حق العلم، ولكنه يعادي أنفع الناس له وأصدقهم، ويظاهر عليهم مظاهرة الخفافيش لضوء الشمس. يعادي الإنسان أباه وأخاه في نصرة هواه، والعائلة في معاملتها كالأمة، تجمع الأمة على مدافعة الشر وجلب الخير، وتثق بأهل الرأي منها فيبذلون النفس والنفائس في نيل هذا الخير العام على صفاء ووفاء، وبينما هم في صفائهم ووفائهم واتحادهم على نيل مقصدهم من عدوهم، وإذا بالهوى مر على هذا الماء الصافي فرجّه حتى امتزج بتراب الأرض، وعلى الروض البهيج المنظر فهزه هزة تناثرت منه الأزهار على الثرى، وتلاطمت أمواج الماء، وتضاربت أغصان الأشجار فاكفهر الجو. وكذلك الأمة الناهضة، تسرها الأقوال ولا سرور إلا بالأعمال، ومتى يسكن ألم الجائع ولو وعده الملوك بالغذاء حتى يأكل ؟ لذلك يجب على الأمة أن يكون سرورها بالنَّيْل، وأن تكون عند الاستعداد محافظة على الاتحاد بكل وسائل الحكمة، حتى تنال الخير المنشود لها.

إنما نفرح بنيل المقاصد، لأمة في حاجة أن تعمل لتنال، بماذا تعمل ؟ بكل أفرادها كما يعمل الجسد بكل أعضائه. ولكن إذا مرض فرد منها يجب أن تجتمع لمعالجته لا لبتره، كما يعمل الجسد إذا مرض عضو منه، فإنه بمرض خنصر قدمه تتألم رأسه.

الحق فوق القوة:

ظن الجاهلون بعجائب قدرة الله تعالى أن الشرق هرم فصار عقيماً، لا يلد رجالاً عمالاً لله ولرسوله وللوطن العزيز، وصار يقين أهل الجهالة حتى ظن رجال الشرق بأنفسهم هذا الظن، فاستسلموا للاستعباد، واستكانوا تحت لهيب الذل والهوان، حتى لم يقنع بنو الأصفر في أوربا وأمريكا بما نالوا في الشرق، وغرتهم الأماني فطمعت كل دولة في أن تستأثر باستعباد الأمم الشرقية فحمى وطيس الحرب بينهم، واستخدمت كل دولة منهم من قهرتهم من الأمم الشرقية في هذه الحرب الطاحنة، والشرق مستميت. بلغ ببني الأصفر الغرور مبلغا أن أوقفوا رجال المسلمين من آسيا وأفريقيا أمام جيش الخلافة العظمى تحت راية الصليب، فكانت تلك الجيوش الباسلة الإسلامية التي تقابل الخلافة، أكبر حجة على استغراق الشرقيين في نومة الغفلة ورقدة الجهالة. ولما أن وضعت الحرب أوزارها تيقن رجال الشرق أن ينالوا خيراً ولو كلمة ثناء عليهم، لجهلهم بما يراد بهم، وطالبوا بشيء من المكافأة على الطاعة العمياء التي أغضبوا بها ربهم ونبيهم، وشجُّوا بها رؤوسهم، وبتروا بها أيديهم وأرجلهم بمحاربة أنصار الله مع أعدائهم، فكانت مكافأتهم أعظم مكافأة، أولدت للشرق رجالاً أزالوا عن أنفسهم غبار الأوهام الباطلة وأباطيل الخدع الكاذبة، فامتد نظرهم بعد قصره، وتيقنوا أنهم بمساعدة الأعداء على إخوانهم مكن الخصم منهم، وسلطوه على أنفسهم، لأن العالم صار في جاهلية ثانية اشتد فيها الظلم، لأن الجاهلية الأولى كان الرجل يقابل الرجل بسيف، وتلك الجاهلية يقابل الرجل الرجل بالصواعق النارية التي تحصد الجموع وتكتسح المدن والجبال.

قام الشرق يطالب بحقه من الأطفال إلى الكهول، إلا مَن شذ ممن لا أب له في الشرق، فإن الحق إذا اتضح لا يميل عنه من له قسط منه، قام الشرق وما كان له أن ينام سلاحه، إنه يطالب بحق شرعي، وآلاته وأدواته قوة إيمانه، لأن القوة تنهزم أمام الحق مهما كانت.

الحق يظهر وإن أخفته القوة:

الحق وإن كان جلى البيان واضح البرهان إلا أن الذي يقبله من القوى الإنسانية هو العقل، والعقلاء قليلون، ولما كان الإنسان مخلوقاً من عجل فهو يميل بطبعه إلى ما يلائمه من الحظ واللذة والهوي، من غير تبصر فيما تنتجه تلك العجلة، فتراه يبتهج بنيل ما يلائمه غير مبال بما يكون بعد ذلك من العناء أو العقوبة. يظهر الحق جلياً ويلوح الباطل عياناً، وللحق ثقل على النفوس البهيمية لأنه حقيقة الفضائل، من الرحمة والعدالة والكرم والعفة والشجاعة والإيثار وغيرها من شكر المنعم، وعبادة الرب سبحانه، والبر والصلة وحب المساواة.

وتلك الفضائل تأباها نفوس البهائم حتى قد تبلغ من الجهالة بالفضائل أن تستخدم العقل لنيل الشهوات، بل وعمل المنكرات من الإفساد في الأرض، وإزهاق النفوس وإذلال الخلق. لو تفكر الإنسان في حال قوته، واعتقد أن الحق هو الخير الحقيقي، وأنه وإن كان ثقيلاً على النفس إلا أنه هنيء مريء ينال به الإنسان خيري الدنيا والآخرة، وحسن الأحدوثة في الدنيا والآخرة، ومن فقد الحياة الروحانية جهل المسرة بالحق، وكانت مسراته بالباطل.

لو علم الإنسان أن القوة التي يدحض بها الحق وينال بها مشتهياته بمضرة غيره، وملاذه بآلام غيره، وعزه بإذلال غيره، لا بقاء لها وقد تنقلب في ساعة وأقل إلى الضعف، لجعل القوة التي منحها الله إياه خادمة للحق، مؤيدة له، ليدوم له نفعها، ويدوم له حسن الثناء بها، وإن المسرة التي ينالها المتمسك بالحق المتحمل لغضاضته وصعوبته بظهور الحق وعلوه ودوام هذا الظهور لأنه حق، لا يمكن أن تصورها العقول ولا تبينها العبارات، وأن الخزي الذي يناله صاحب القوة المتلذذة بالباطل وبمضرة الغير إذا زالت القوة بالضعف، والتمكين بالحرمان، لا تطيقها الأجسام وهي شر من الموت، ولكن ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ عبس: ١٧ وتقوده شهوة أو حظ أو أمل، فيفجر ويقهر ويتكبر، ولا يدري المسكين ما هو له، إن الحق يظهر وإن أخفته القوة، وإن الباطل يزهق وإن ارتفع بأفواه المدافع، وارتقى بالسنان، وأيد بزخرف الكلام، وليس الأمر ببعيد على أهل الغرور. تلك بطون التواريخ، ألسنة مبينة للقارئ فساد ما شيدته القوة على أساس الباطل، ودفعته التدابير والسياسات على دعائم الأطماع فإنه انهار قبل تمامه، واندثرت معالمه قبل كماله، وإن

قوماً معهم الحق أقوياء وإن ضعفوا، وأعزاء وإن ذلوا، ولا يعدم الحق نصيراً، وإن قوماً معهم الباطل أذلاء وإن عزوا، إن الباطل كان زهوقاً.

ومعلوم أن مقتضيات الشجاعة والإقدام محصورة في شيئين: عدد للانتفاع وأدوات للدفاع، أو حق بين يطالب به مستحقه، وكفة فيها الحق لابد وأن ترجح، وأهل الحق إن توفر لهم العدد والمعدات فازوا بحقهم فوراً ولا محالة، وإن لم يتوفر لهم العدد والأدوات فسلاحهم الاتحاد على تحصيل حقهم، وتفريقهم في طلب الوسائل الموصلة لنيله لا تضر ما اتحدوا على المقصد، ما لم يختل الاتحاد بحسد، أو بحب علو، أو بطمع، فإن الخلاف فيها إتلاف، والتبصرة في العواقب تشفي من هذا المرض، وهذا الاختلاف لا يزيل الحق، ولا يغيره، فإن الحق لا يعدم نصيراً.

لقد قال حكيم: « المقاصد تبرر الوسائل »، ولما كان الحق أنفس الأشياء وأغلاها كان الحرص عليه داعياً للعناية بوسائله، لذلك اختلفت الآراء واضطربت الأفكار في تحصيل الوسائل الموصلة إلى الحق، وصار كل إنسان يتهمه غيره خوفاً من خطأ أو تساهل، وهذا لنفاسة الحق لا لعداوة وإرادة شر بالغير. وكم حصل اختلاف بين طالبي الحق أدى إلى منازعات ومعارضات وجدل بينهم وهم على صفاء ووفاق، وذلك لابد منه لتتمحص الحقيقة وتتضح جلية بالبرهان، وما يحصل من النضال والنزاع الذي يظهر أنه حصل للعداوة والبغضاء إنما هو للغيرة على الحق، وللتحفظ بوسائله، و نفاسة الحق تجعل المسارع إلى نيله يحتقر كل لذة وشهوة، بل قد ترخص أمامه حياته في سبيل نيل الحق، فكيف يعظم غيره إذا علم أن رأيه يعطل المقصود، وما يحصل من تجريح المتحدين على طلب حق لبعضهم، أو نشر عيوبهم إنما ذلك ليرجعوا إلى الحق، لا ليتمادوا في العناد، وكيف يطلب الحق من لا يخضع له، أو يمكنه أن يناله من تأبى نفسه قبوله ؟ إنما يفوز بالحق من طالب نفسه به، فلانت له، ودعاها إليه فاستجابت مسارعة إليه، ورجل يرى رأيه فوق الحق لا يصلح أن يكون معيناً على طلبه.

أنواع الحق:

إن الحق أنواع: فالحق الأول لذاته في مكانته العلية هو الله تعالى, وما كان منه سبحانه وتعالى, وهو كلامه المقدس الذي شرع لنا في دينه الحق, وبين لنا فيه ما يحبه ويرضاه من العبادات

والمعاملات والأخلاق. والحق بعد ذلك كثير, فما كان بطريق الشرع يقال له حقك, من زوجة ومال وعقار ووطن, وهذا الحق له أعداء كثيرون, لأن الإنسان نسى نشأته الأولى والآخرة, فتحقق البقاء في تلك الدار, ونافس ربه سبحانه في صفاته, فطمع في البقاء والعزة والكبرياء والسلطان, ونفوذ الكلمة والهيمنة على غيره, باذلاً ما تفضل الله به عليه من النفس والحس والجسم في سلب ما لغيره من الحق, بمعصية الله ومخالفته, تارة بالخداع والسياسة العوجاء, وآونة بالقوة القاهرة والتعاون على الفساد, لا سعياً وراء قوت يزيل به مر الجوع, ولا ثوب يدفع به شدة البرد, ولا بيت يمنع عنه تأثير الجو, وعدوان الأشقياء الوحوش, بل ليزاحم الربوبية في كمالها وجلالها, وقدرها وانتقامها.

ويجهل هذا الطاغية غيرة القوي القاهر القادر على أن يزاحمه في صفاته من الأذلاء المقهورين المخلوقين, فيفرح بنيل ما لا يدوم له, وينكر حقيقة نفسه, حتى يطمع أن يستعبد الخلق أجمعين, وهذه فطرة في الإنسان, لا يخرجها منه إلا دين كابح للنفوس, أو قهر من الله تعالى قاصم للظهور, ومتى جهل الإنسان نفسه, جهل ربه, فاستعمل نعمة الله تعالى في معصيته, وبذل فضل الله العظيم لديه في ظلم خلقه, فكان محارباً لله سبحانه وتعالى, ولرسوله ﴿ﷺ﴾, ظالماً لبني نوعه, غافلاً عن مآله في الغيب, ولو تذكر الإنسان أنه نطفة, جرى في مجرى البول مرتين, وأن القوي القهار القادر قريب لا يغيب, عليم لا يجهل, مطلع لا يحجبه شيء عن نظره, غيور على الحق مهما كان، لرضى بالجوع والعرى والعناء، لينال السعادة يوم اللقاء، ولو علم طالب الحق والغيور، عليه ما يناله بالمسارعة إلى إظهار الحق ونصرته، ودفع أهل الباطل عنه في الدنيا والآخرة، لما تلذذ بنوم على فراش وطئ، ولا بطعام تحت ظل سقف رفيع العماد، ولتلذذ بالنوم مكرها على التراب، وبأكل لقيمات يقمن صلبه، في ميدان المطالبة بالحق، لأنه ينال بنصرة الحق المجد إن طال عمره في الدنيا، ومجاورة الحق في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

وهذا خير لا ينال إلا بثمنه، وكثيرون يدعون أنهم ينصرون الحق وهم في معصيته. فيا من تحب أن تنصر الحق: ابدأ أن تنصره في نفسك أولاً، فاعمل ما يحبه، وتخلق بما يحبه، وعامل بما يحبه، واكره ما يكرهه، ومن يكرهه، وأحب ما يحبه ومن يحبه، حتى تقوم بنصرته في غيرك، وأضرب لك مثلاً في الحق القريب المحسوس الملموس: يدعي الإنسان أنه يحب أباه وأمه، ولكنك

تراه يؤذيهما، ويكرم غيرهما، ويؤذي أخوته منهما، ويتحد بالأغراب، ويستعين بهم، ويعينهم، ويدعي أنه يحب وطنه، ثم تراه يستحسن صناعة غير أهل وطنه، ويعامل في تجارته غير أهل وطنه، حتى تصبح ثروة الوطن في أيدي غير أهله، فتخرب بيوت مواطنيه من الصناع والتجار والملاك، ويصيرون عالة يتكففون، وهو يصيح: أنا ناصر للوطن، ثم تمر في الأسواق فتجد أعمر المحال وأكثرها وفوداً مصانع الأجانب، وحوانيتهم، وأنديتهم، حتى صار الصائح بنصرة الوطن يرى معه من يروج تجارات الوطن وصناعاته ليس متمدناً، ويرميه بالتعصب والخمول، وكم بيت عامر بالتجارة والصناعة أصبح خاوياً على عروشه، حتى أصبح الوافد على الوطن يفد فقيراً لا يملك نقيراً، فيصبح له من الأطيان والبيوت والمصانع والشركات ما به يكون مثرياً، وليس هذا بمحتاج إلى دليل.

لقد كان الشرق – وبالأخص بلاد مصر – مصدر الصناعات والتجارات، لما وهبهم الله من العقول والأجسام، وما تفضل به عليهم من أنواع الحيوانات والنباتات والمعادن، وكفى الشرق شرفاً أنه محل عناية الله، بعث فيهم الرسل وجعل فيه بيوته المقدسة، وذكرهم في كتبه السماوية، ولم تكن تلك العناية الإلهية إلا لأنه سبحانه أَهَّلَ الشرق لهذا الخير، وأعدهم – سبحانه – لأن يكونوا مصادر الخير لجميع خلقه، فمنهم صدرت أنوار الدين، وأسرار الحكمة وجميع الصناعات والفنون والحرف، وقد ذكر الله مصر بالخصوص في كل كتبه السماوية، ولم يظهر نور دين ولا جمال حكمة ولا خير صناعات إلا والشرق أرضه التي نبت فيها هذا الخير، ودام أهل الشرق يترقون في كل تلك المعاني، حتى كان من الشرق خاتم رسل الله، فأكمل الله به مكارم الأخلاق، وبين به سبحانه ما لابد للمجتمع الإنساني منه، من أحكام العبادات والمعاملات والأخلاق، ليعين الإنسان أخا الإنسان، عاملاً لدنياه وآخرته، خائفاً من الله، لا يذل لغير الله، ولا يتخذ له رباً سواه، وهو العزة التي تفضل الله بها على من آمن بحبيبه ﷺ.

هل تغيرت أرض الشرق وسماؤه ؟ أم فسد بالنعمة والترف أبناؤه ؟ أم ذل بمخالفة الكتاب والسنة نصراؤه ؟ نعم، فإن الله يعطي المجد بفضله، ويسلبه بعدله، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ

﴿لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾ الرعد: ١١ وقد آن لأهل الحق أن يطالبوا به، وطالب الحق يفوز بالحسنيين، أو بالحسنى الباقية، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا ۝٣٠﴾ الكهف: ٣٠.

الحق أحق أن يُتَّبع:

ظهر الإسلام بين وحوش كاسرة متنافرة، أبدانهم كالسباع وقلوبهم كالشياطين، في أمة جاهلية عمياء، ومن حولهم من الأمم أمم مضلة أو مبدلة، فالمضلة كالفرس وغيرهم سكان أفريقيا وسكان جنوب آسيا وشرقها، والمبدلة وهم اليهود والنصارى، فسرت أشعة أنوار شمسه فأحيت القلوب بالحق، وجمعت الأبدان بالرحمة والعاطفة، فأصبحت الوحوش الكاسرة أئمة هدى، كل واحد منهم كأنه نبي مرسل، فانتشروا في بقاع الأرض طولها والعرض، فنشروا التوحيد، حتى مكث المجتمع الإنساني قروناً في بحبوحة السلام متفرغاً للأعمال النافعة والبحث عن فتح الكنوز التي أودعها الله في الكون، حتى تقدم علم الطب وغيره، واخترعت الآلات والأدوات المعينة للإنسان، واستوى في عين الخليفة المسلم والنصراني واليهودي في المعاملات.

فكان الخليفة لا يميز نفسه عن أصغر مسلم ولا أحقر ذمي، يأكل الخشن، ويلبس الخَلَق، وينام على التراب، وكانت هيبته مع هذا تشق القلوب شقاً، دام على ذلك الخلفاء الراشدون إلى الحسن السبط عليهم السلام، بما فيه من النور الذي اتضح للعقل، ونشر العدل والفضائل للذي لا يقبل التوحيد، ثم عمر بن عبد العزيز، ولما تغيرت أحوال الخلفاء لم تتغير أحكام القرآن، فكان المسلم والذمي سواء أمام الحكام. وَرُئى قاضي القضاة أبو يوسف عند موته يبكي، فسُئل: لما تبكي ؟ فقال: وقف أمامي أمير المؤمنين هارون يخاصمه يهودي، فأحببت أن يكون الحق لهارون، فظهر لخصمه، فحكمت لليهودي فأنا أخاف من عذاب الله على ميل قلبي.لا يعترض عليَّ معترض بأفعال من لا خلاق لهم ممن خالفوا الشريعة، فإني أحث المجتمع أن يجددوا العمل بالشريعة لنيل السلام في الدنيا، والسعادة في الآخرة.

بين الحق والباطل أربعة أصابع:

ليس من رأى بعينه كمن سمع، وكيف يطمئن قلب السامع بحقيقة لم يرها بصره وهو متمكن من رؤيتها، والمسافة بين الأذن والعين مقدار أربعة أصابع، فمن حكم بالسماع على آخر ظلمه، والله تعالى أمرنا بأن نتبين قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ﴾ الحجرات: ٦. حكم في تلك الآية على المخبر بالفسق، وعلى من قبل منه بعدم البصر، إن لم يتبين، وعلى الأخ الذي تكلم فيه بالسوء بأنه أصيب بجهالة، ومن سمع فتأثر بالسماع فهو جاهل، والواجب على المؤمن أن يتبين في كل أموره، فإذا سمع تأنَّ حتى يرى، والفرق بين الجاهل والعالم التثبت والعجلة، كيف يخالف المؤمن حكم الله تعالى، ووصية رسول الله (ﷺ)، فيحكم على أخيه بشيء لم يره ؟.

العجلة من الشيطان:

أبى الشيطان إلا أن يفسد القلوب، فهو يسعى في ضرر أهل الحق فيتصل – لعنة الله عليه – بشياطين الإنس، ويوحي إليهم زخرف القول غروراً، كما قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَـٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ الأنعام: ١١٢ فالشيطان يبذل ما في وسعه في إطفاء نور الحق، ولذلك مثل: إذا أظهر الله وليا من أوليائه، فألقى عليه محبة منه، وألف بينه وبين القلوب أسرع الشيطان في تفرقتهم، فأوحى إلى نظرائه من الإنس زخرف القول غروراً، وألقى إلى أمثاله من شياطين الإنس فشنعوا على الولي، وأشاعوا عنه السوء، وما بعث الله رسولاً، ولا أكرم نبياً في عصر من العصور إلا قام إبليس وجنوده متصلين بشياطين الإنس فأضلوا العباد بعداوة الرسل، وأفسدوا العقائد باللغو في محبتهم، وكذلك ما أكرم الله عبداً من عباده بالولاية، وأذن له في البيان، إلا وقام إبليس ساعياً في إفساد عقائد الهمج الرعاع ممن سمعوا عنه الأباطيل الكاذبة، من أفواه إخوان الشياطين، ثم سلط إبليس على الولي أنصاره من الجهلاء فأشاعوا عنه السوء، وعن أتباعه المخلصين، بمجرد السماع عنه، ولو أنهم يريدون الخير، لما أشاعوا السوء بين الناس، بل كانوا يسارعون إلى رؤية الولي، ليتحققوا الخبر، فإن كان خيراً حمدوا الله تعالى، وإن رأوا شراً نصحوا لله ورسوله (ﷺ).

أطع الحق في الخلق، وخالف الخلق في الحق:

متى تجرد الإنسان من الأغراض، وتطهر من العلل والأهواء، وتجرد من الحظوظ، نظر بعين الحق التي يستبين بها حقيقة الدنيا وتظهر له علامات الآخرة ودلالاتها، وتلوح له سواطع الغيب المصون، ودلائل السر المكنون، فيعلم حق العلم دناءة تلك الحياة الدنيا، ويتحقق أنها دار تكليف وخدمة، لا دار ترف وبقاء، فيقوم عاملاً بالحق للحق مخلصاً لله رب العالمين، مسارعاً إلى نيل البقاء الأبدي في مسرات الحياة الدائمة،وجوار الأخيار من صفوة الله وخيرة عباده الذين قاموا لله شهداء ولو على أنفسهم، لأنه سبحانه أشهدهم حقيقة الدنيا وزوالها، وجمال الآخرة وبقائها وحكمة إيجادهم وإمدادهم.

حكمة خلق الإنسان:

حكمة خلق الإنسان جلية، قال الله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ الذاريات: ٥٦. ولا عبادة إلا بمعرفة، ولا معرفة إلا بتحصيل العلم النافع، ولا تحصيل إلا بعالم رباني.

جهل الإنسان حكمة إيجاده وإمداده، فظن لجهله بقاء تلك الدار الدنيا فطمع فيما به يبقى من مال وعقار، وعصبة من أولاد وحفدة وأنصار، وهي قوة جبلة الإنسان، ومن لم يجاهد نفسه حتى يضعف تلك القوة فيه حتى يمنحه الله الصبر أو الرضا، كانت تلك القوة العاملة في الإنسان سبباً في خلوده في النيران،،وإن نسى الإنسان كل شيء لا ينسى هبوط أبيه آدم من الجنة بسبب الطمع في البقاء، ولا بلاء أشد على الإنسان من طمعه في البقاء وهو مخلوق للموت والموت مخلوق له.

مسرات الإنسان في هذه الدنيا تحققه أنه سيموت، ومتى تحقق الموت عمل له ولما بعده، وصغرت في عينه الدنيا، ومتى صغرت الدنيا في عينه خاف الله في خلقه، وعامله سبحانه وتعالى فيهم، فأحبه الله والناس أجمعون، فعاش في عيشة راضية، لأنه راض عن الله، مسالم للخلق، قال الله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ الأعراف: ٩٦.

بينت لك أن الدنيا دار تكليف وخدمة لأنها ليست دار إقامة، ولكنها دار انتقال ورحلة، فصادق الإيمان فيها معتقد زوالها ومتحقق انتقاله إلى وطنه الحقيقي الذي هو الجنة في المسرات التي لا تزول، فهو في الدنيا عالم لمفارقتها، مسارع إلى الوصول إلى وطنه الحق مع سيدنا ومولانا مُحَّد وحزبه ﴿ﷺ﴾ وعليهم، ومن كان في شوق إلى لقاء أحبابه دام شوقه إلى إيابه.

من طلب الحق وجده:

قلت لك: الحق فوق الخلق، ومن طب الحق وجده وأيده ونصره، وإنا في حالة توجب علينا الرجوع إلى الحق، وكيف لا وقد سعد سلفنا الصالح بالحق، فمكن الله لهم في الأرض، وأعزهم، وسخر لهم جميع خلقه من إنس وجن، وملائكة وغيرهم، وأقامهم عمالاً له، فمحا بهم سبحانه سلطان الكافرين، وظلم الطغاة الظالمين، وبدع المفسدين، حتى كان الدين كله لله، ولكن خلف من بعدهم خلفاً تركوا وصايا رسول الله ﴿ﷺ﴾ وعملوا بحظوظهم، تركوا القرآن وعملوا بأهوائهم، نسوا الموت وما بعده فسلط الله عليهم أذل خلقه، وسلب منهم التمكين والعز حتى أصبحوا رقاً يملكهم العدو ولا يملكون، ويسومهم الذل والخسف بعد المجد والعز والملك والتمكين، كل ذلك سببه الطمع في البقاء الذي أنتج الحسد والبغضاء، والتفرقة والشحناء، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

كل ذلك حصل بين الأخ وأخيه، بل بين الولد ووالده، صار هذا المرض العضال من الجسد الإسلامي والمسلمين كأنهم سكارى بحب الدنيا، حتى جاس العدو خلال ديارهم، وطعن في دينهم، وغير السنة بالبدع، وأفسد الأخلاق بالرذائل بلغ هذا البلاء مبلغاً جعل المسلم ينكر المعلوم من الدين بالضرورة فترك الحج بالسفر إلى أوربا، وترك المساجد بالسهر في أندية المعاصي، وترك العلم النافع بتحصيل ما يرفعه في الدنيا من علومها، وكره أهل التقوى، وسارع في أعداء الله فسلط الله عليهم شر خلقه.

عظِّم الحق ولو من عدوك:

ليس بإنسان من أحب لنفسه وكره لنفسه، لأن ذلك حال الشياطين والحيوانات المفترسة، إنما الإنسان حقاً من أحب للحق وكره للحق، فيحب العدو البعيد إذا كان على الحق،

ويكره الحبيب القريب إذا كان على الباطل، وطالب الحق لا تخفى شمائله، فإن طالب الحق يكره التفرقة والعناد، ويستعمل الرحمة والوداد، ويبغض الفضيحة ويحب النصيحة.

أيها المسلم أنت مطالب أن تتخلق بأخلاق الله، فكيف تنحط عن أخلاق البهائم ؟ وكيف لا ؟ والكلاب إذا اختلفوا فيما بينهم، وقامت الحرب بينهم، ورأوا ذئباً مقبلاً عليهم، منتهزاً فرصة اختلافهم، تصافحوا وتصافوا، واتحدوا وهجموا على الذئب وقتلوه، أو أبعدوه، إن لم تكن رأيت تلك الحقيقة فجربها.

أيها المسلم أنت تطمع في نيل السعادة الباقية، والمسرات الدائمة في دار أخرى غير هذه الدار، وتعتقد أن هذه الدار دار العمل لنيل خير الأمل، وتؤمن بيوم القيامة وبقائها السرمدي، وتعتقد فناء تلك الدار الدنيا وما فيها ومن فيها بالشهود الحسي، وإلا، فأين أبوك وأجدادك ؟ فكيف ترضى أن تكون أدنى من الكلب خلقاً ؟ تسالم السباع وأنت طعامهم! وتحارب أعضاءك الذين بهم سعادتك في الدنيا والآخرة! تبصَّر أي عضو تقطع بعداوتك لإخوتك المسلمين، وأي مجد تفقد بموالاتك لأعداء الدين، هل سمعت بشاة تستسلم للذئب وتعتقد الخير عنده ؟ فكيف وقد بين لك الله ورسوله ﴿ﷺ﴾ وأيقظتك الحوادث ؟ والعاقل إذا مرض عضو من أعضائه عالجه حتى ينتفع به، أو تحمل آلامه حتى يبرأ، وفي الأثر « المَرْءُ قَلِيلٌ بِنَفِسه كَثِيرٌ بِإِخوَانِهِ » [1].

الحق والباطل:

يعلم الإنسان أنه وجد في الكون بعد أن لم يكن، وشهد ما أعده الله له مما لابد له منه، من هواء وماء ونور وحرارة ونباتات وحيوانات وغيرها من الأشياء التي لو فقد أقلها لهلك الإنسان، شهد ذلك، وتحقق أنه ليس من عمله ولا كسبه، ولا من عمل نظرائه، بل الخلق كلهم فيه سواء، وشهد الإنسان ما فيه من الجوارح العاملة الموهوبة له وهو في الرحم من غير عمل منه، ولا من والديه، بحيث لو فُقِدَ عضو منها لعجز العالم أجمع عن رده كما كان، ويعلم الإنسان أن كل ذلك بفاعل قادر حكيم، فيجهل، ويجهل أنه يجهل، مع أن عجزه ظاهر في أمس الحاجة به،

(1) رواه الديلمي والقضاعي عن أنس رفعه ورواه العسكري عن سهل بن سعد رفعه وقال في المقاصد: قاله النبي ﴿ﷺ﴾ حين عزى بجعفر بن أبي طالب كما في دلائل النبوة وغيرها.

فنرى القوى العالم المتقن الصناعات والحرف جائعاً عرياناً، ويرى الغبي الجهول غنياً مسيطراً، فيجهل حكمة ذلك، ومن قدَّره، والحق أظهر له من نفسه، ويأبى أن يكون من أهل الحق، ينسى الحق مع أنه هنيء مريء، ويقبل على الباطل مع أنه دنيء وبيء.

لقد أوجد الله الإنسان وأوجد له كل شيء، ومنحه العقل الذي يتصرف به فيما حوله، وسخر له كل شيء مع ضعفه وعجزه، فألان الحديد واستخدمه، وأذاب المعادن وانتفع بها، وأسعر النار واستخدمها، وسبح على وجه الماء وغاص فيه، وسخر الآلات تجري على الأرض، وطار في الهواء وهو الصغير حجماً الضعيف جسماً تنتنه عرقة، وتؤلمه قملة، وتذله جوعة، وتميته شرقة، وتهزمه عقربة إن مرت حوله، فهو الجبان الخائف من كل الأشياء، ومع هذا الذل فهو الجريء المتكبر على الله وعلى من والاه، إذا شبع طغى، وإذا أمن لغا، جاهلاً بحكمة إيجاده، ولو علم حكمة وجوده في هذا الكون أنها لمعرفة الله ليعبده شكراً على نعماه، وتحصيل العلوم النافعة ليعمل بها مخلصا طمعا أن ينال رضاه.

الناس أعداء ما يجهلون:

جهل الناس الخير الذي بينه الله تعالى، ووسائله التي وضحها رسول الله ﴿ﷺ﴾، فكرهوا الحق والخير، وزينت لهم أنفسهم الباطل فأفردوه بالقصد، نسى الإنسان الموت والبعث والحساب، فقصر همته وإرادته على الدنيا، فأصبح العلماء وقد أفسدت المنافسة في الدنيا عقائدهم، وغير الطمع فيها أخلاقهم، فاستعملوا الدين للدنيا، واستبدلوا أحكام الله بالهوى، وتركوا العكوف على الله بالعكوف على أبواب أهل الدنيا ولو كانوا كفاراً، وأهملوا دعوة الخلق إلى الحق مسارعة إلى نيل جاه أو منزلة، ففسدوا وأفسدوا، وقطعوا الخلق عن طريق الله، ترى قادتهم يفكرون الليل والنهار فيما يجعلهم مقبولين عند أصحاب السلطة، اعتقاداً بالخلود في الدنيا، وتيقنا بأن السلطة نزعت من الله إلى أعدائه، فيسارعون إليهم عداوة لله ولرسوله ﴿ﷺ﴾ وللمؤمنين، ويعينوهم على إطفاء نور رسول الله ﴿ﷺ﴾، وإذلال خليفته في الأرض، والله تعالى يقول: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ فاطر: ٢٨. فأين العلماء؟ هل يعادي الإنسان الحق المبين له

؟ وهل يوالي الباطل الجلى له، إلا إذا كان جاهلاً بالحقيقة ؟ فرأى الباطل حقا فوالاه، والحق باطلاً فعاداه.

إلى دول أوربا:

إنكم إخواننا في الإنسانية، ولكم كتاب سماوي ينذر بالهوان لمن ظلم، وبالذل في الدنيا ويوم الدينونة، وقد بينت التوراة والإنجيل عاقبة ظلم الفراعنة والعمالقة والقياصرة، وسجل التاريخ عاقبة ظلم الآشوريين والبابليين والفينيقيين وغيرهم من دولة الروم الغربية والشرقية. قد بينت الكتب السماوية أن الله حَكَمٌ عدل قهار، وأن الملك ملكه يؤتيه من يشاء وينزعه ممن يشاء، وقد قمتم تنازعونه في ملكه، وتعاندونه في خلقه، فهو سبحانه يخلق وأنتم تقتلون، فاحذروا عاقبة انتقام يمحق الظالمين، وقريب قهر يهلك الغاصبين، فإن الذي خلق الإنسان يغار وهو المنتقم القهار، يكره الظلم من نفسه فكيف يرضاه من عبيده ؟ وقد أظهرتم الفساد في البر والبحر بما آتاكم الله من القوة والحول والطول، وما أمدكم به من المخترعات الجهنمية، فتداركوا الأمر قبل فواته، وإلا فالانتقام قريب ولا لوم على من أنذر.

إلى المسارعين فيهم:

أيها المسارعون فيهم من المسلمين ومن أهل الذمة، قال تعالى: ﴿ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴾ [1] هل ضعف إيمانكم حتى شككتم في وعده ووعيده ؟ أم نسيتم يوم القيامة فرضيتم بالحياة الدنيا عن الآخرة ؟ أم فرحتم بمتاع يزول ويعقبه العذاب الأليم ؟ أم اضطركم الجوع والعطش فاستبحتم لأنفسكم الذل للقوت الضروري تمسكاً بقوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ (١١٩)﴾ الأنعام: ١١٩؟ أم بعتم الشرف بين الأمة والرحمة عليها بالتقرب إلى أعدى عدو لدينكم ولوطنكم ولمجتمعكم ولأفرادكم ؟ أم قامت القيامة فقال كل واحد منكم: نفسي نفسي ؟ إذا كان لا هذا ولا ذاك فليحذر كل إنسان خزياً وذلاً عاجلاً، وعاراً

---

(1) سورة المائدة آية 52.

ومقتاً باقياً، وناراً وعذاباً آجلاً. وإن كانوا أنكروا دينهم ونزع الله الرحمة من قلوبهم فلنحكم عليهم بأنهم ممن سارعوا فيهم حكماً حكم به الله تعالى في صريح كتابه بقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ﴾ [1] ويجب علينا أن ننفذ حكم الله فيهم، فلا نصلي عليهم إذا ماتوا، ولا ندفنهم في قبورنا ولا نصاهرهم.

إلى جماعة المسلمين:

قد تميز الحق من الباطل، وليس بعد العيان بيان، وحسبنا حجة كتاب الله تعالى، ولا ينبغي للمسلم أن يخسر الدنيا، بل ولا ينبغي له أن يبيع الآخرة بالدنيا، والأمر سهل، فلنكره أن يرانا ربنا حيث يكره أن يرانا، ولنسارع أن نكون حيث يحب أن يرانا، والحمد لله قد رأت العين، وسمعت الآذان، وفقهت القلوب، والله ولي المؤمنين.

الحق:

خلق الإنسان عجولاً يحب العاجلة ويذر الآخرة، وإنما يحب العاجلة لميله إلى ما يلائمه في الحال نسياناً ليوم الحساب. وقد يقهره حظه وهواه وشحه فيحصل ما يضره ولا ينفعه. ولو علم أن المقصود هو نيل الخير وتحصيل السعادة، لكره أشياء كثيرة يراها خيراً في العاجل، وأحب أشياء كثيرة يراها شراً في العاجل. الحق فوق الخلق، لأن رعاية الحق والمسارعة في معاملته سبحانه ومراقبته في الشئون كلها بها نيل الخير الحقيقي في الدنيا والآخرة. مهما ضحى الإنسان في سبيل ذلك من الأوقات والأموال والأنفس، فإن للحق بهجة يطمئن بها قلب العامل به مهما أصابه من الآلام والمتاعب، والسعداء في تلك الدار الدنيا هم الذين يقومون شهداء لله بالحق ولو على أنفسهم، لا تقهرهم شهواتهم ولا تغرهم الدنيا وزخرفها.

الحق أولا وبالذات هو الله تعالى، ثم ما جاءنا به الرسل من عنده سبحانه، ثم الرسل المعصومون صلوات الله وسلامه عليهم، ثم الدعاة إلى الخير من الموفقين لما يحبه الله ويرضاه، ثم ما هو للإنسان من مال وعقار، ومنزلة نالها بالوجوه الشرعية من ولاية أو أبوة أو سن أو فضل علم وتقوى. أما ما يناله الفرد أو الجماعة بغير الوجوه الشرعية فليس بحق وإنما هو باطل.

---

(1) سورة المائدة آية 51.

الحق نجاة في الدنيا والآخرة:

معلوم أن الأمر بالحق دائر بين حق وباطل، والحق تألفه كل النفوس وتحبه لأنه محبوب للجميع، وأهل الباطل وهم في باطلهم يحبون الحق ويمدحون أهله، ويكرهون أن ينسب إليهم الباطل، ويتبرءون منه وهم متلبسون به، لأن الباطل لا سلطان له، وإن قوى أهله وكثر عددهم وعدتهم وفرحوا بما أوتوا، فإنهم لا يلبثون إلا وقد أذابت حرارة شمس الحق ثلج الباطل ومحت ظلماته وظلمه، قال تعالى: ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾[1].

---

(1) سورة الإسراء آية81.

الباطل الذي يلتبس بالحق:

تبين أن الحق فوق الخلق، وأن الخلق قد تمرض قلوبهم بحظ يخفى عليهم أو بهوى يحجب نور الحق عن قلوبهم، أو بشح يعمى عيون البصائر. وأكثر تلك الأمراض يصاب بها أهل السيادة زعماء الأمم، الذين تمكنت محبتهم في القلوب فانعقدت القلوب على الاعتقاد فيهم، فظن الناس أنهم هم الحق فاقتدوا بأعمالهم، وصدقوا أقوالهم تصديقاً جعل الناس لا يرون حقاً إلا ما عليه الزعماء، حتى ولو أخطأوا أو ضلوا، وهذا هو السبب الذي أخفى الحق عن بصائر الناس.

والواجب على الناس في مثل هذا الحال أن يزنوا أعمال الرجال بميزان الحق، فيقبلون الحق من كل قائم به ولو كان حقيراً بعيداً بغيضاً، ويردون الباطل على من جاء به ولو كان سيداً – عالماً – عظيماً. حتى يكون الحق مقصوداً للكل، وهذا الشأن مزالق أقدام الأمم، وكم من مقلد لرجل اشتهر بصفة من الصفات الجميلة يضل إذا ضل معه مقلده، لأنه يرى أن صاحبه هو الحق. وكم ضاع حق وظهر باطل بسبب هذا الخطأ. والمعصوم المقلَّد حقاً هو رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾، وهو الحجة البالغة على كل قائم بالدعوة للحق أو الحجة لهم.

نوع آخر من التباس الباطل بالحق:

علمنا أن الإنسان خلق من عجل، فهو يتعجل ما يلائمه حقاً كان أو باطلاً، فترى الإنسان ضعيف الإرادة يحب أهل الثراء، ويسارع في أهل السلطة والكلمة النافذة، ويقلدهم في أحوالهم الشخصية من غير بصيرة ولا نظر إلى العاقبة، يقتدى بهم ولو كانوا ضُلاَّلا، ويسارع فيهم ولو كانوا كفارا اعتقاداً منه أن هذا هو الحق، أو رغبة في نيل قصوده، أو خوفاً على ماله وجاهه فيذل للباطل، وهذا النوع له سلطان على النفوس، وهو السبب في سلب خيرات الأمم وتقهقرها، والحق يغلب الباطل ويمحقه، وطالب السعادة يحب الحق وأهله، ويشين الباطل وأهله غير هياب ولا وجل حبا في الحق وبغضاً للباطل، واعتقاداً أن النجاة والسعادة بالحق.

البعد عن الحق مهواة للخلق:

جهل الإنسان رتبته في الوجود، ومنزلته في العالم حتى نسى من هو، ونسيانه هوى به إلى حضيض الأسفلين ومهاوي الأرذلين.

الإنسان خلقه الله وسطاً بين العالَمَيْن، فلا هو مَلَك مطهر من مقتضيات الجسم ولوازمه، ولا هو بهيم محروم من البهجة. يعلم ما حوله وما فوقه ومن الاتصال بعالم الطهر، ولكنه غافل عن حقيقته، وعن حكمة إيجاده وسر إمداده، فهو يستخدم القوى التي بها يفوز بالمقام العلي الذي فيه تخدمه الملائكة في تحصيل شهواته البهيمية، وملاذه الإبليسية، حتى صار شراً من الشيطان وأضر من الوحوش الكاسرة، وهي السنة التي عليها بنو الإنسان إذا أهملوا تربية نفوسهم وتزكيتها، وتركوا تحصيل العلم النافع اشتغالا بالعلوم التي تجعلهم خدمة للظلمة من الملوك والمستعبدين من الكفار، طمعاً في نيل ما به تيسير حظوظهم ومشتهياتهم البهيمية، وتحصيل بهجتهم السبعية. فترى الإنسان يسعى لينتقم من نظيره، ويتلذذ في الانتقام منه وتسليط الظلمة عليه، كما يتلذذ السبع بتمزيق فريسته. ويستعين بالظلمة من أمثاله وبالكفرة من أعداء الله ورسوله، فإذا تسنى له الانتقام ممن عاداه – ولو كان من أولياء الله الأتقياء – سهر ليله، فرح وجهل غضب الله عليه وغضب رسول الله ﴿ﷺ﴾، فكان فرحه عين النقمة وحقيقة البلية عليه.

ينظر الإنسان بحسه، ويحجب عين عقله وعين نفسه وعين روحه، ثم يستخدم الروح والعقل والنفس لأسفل القوى وأدناها، كما يستخدم الكافر أسيراً تقياً ولياً، أو كما يحكم الجاهلون على نبي من أنبياء الله تعالى. والفرد مملكة عظيمة.

بلغ الإنسان من الانحطاط مبلغاً حتى صار كالأنعام أو أضل، فجحد الله تعالى وأنكر شرائعه، ويا ليته وقف عند هذا الحد فرحم بني الإنسان من شروره، ولكنه بعد هذا كله قام فنظر إلى نفسه نظرة جعلته يعتقد أنه رب يُعبد، ونظر إلى بني جنسه بعين الاحتقار والدناءة، فاعتبرهم نباتات ضارة، أو حيوانات سامة، فجمع الجموع ليحصد تلك النباتات لينتفع هو وقومه، أو ليقتل تلك الحيوانات ليسلم هو وقومه، ويدفعه حظه ويعينه هواه وأمله، ويقويه صبر الله عليه، واستدراجه سبحانه له.

نسأل أمم أوربا.. ما هو الحق الذي لكم على الشرق حتى طالبتم به برشاشاتكم وغواصاتكم وطياراتكم ؟ الجواب: لا حق لهم. ثم نسألهم.. ما الضرر الذي لحق أهل أوربا من الشرق حتى هجموا بآلاتهم الجهنمية والوحوش من عساكرهم على الشرق فحاربوه في الدين والأخلاق والأعراض والأموال، حتى أذلوا الأعزاء وأعزوا الأذلاء، فمنحوا العبيد الحرية طغياناً وكفراً، ورحموا الحيوانات وجعلوا لها جمعية الرفق بالحيوانات, وأذلوا أهل الشرف والمجد والإمارة؟ الجواب: الشرق لم يضر الغرب. ثم نسألهم سؤالاً آخر.. متى كنتم رحماء ترحمون الأقليات في الشرق, وأنتم تمزقون جلود بعضكم بالمقذوفات في بلادكم, فهلاَّ رحمتم أنفسكم قبل أن ترحموا غيركم؟ متى استغاث بكم الأقليات أو وفدوا عليكم لأطفال فجرت بطونها, وجلود خرقت بالمقذوفات, ورؤوس كسرت بالعصي الحديد, وأقاموا الحجة لكم أن الرؤوس ملئت ظلماً من رؤسائهم, وأن البلاد خلت من قادتهم, وأن القبور ضاقت بقتلاهم؟ اللهم لا هذا ولا ذاك. الجواب: هي الأغراض تحل الحرام وتحرم الحلال. نسأل دول أوربا.. أنتم ترحمون الأقليات.. فلم عذبتم الأكثريات؟ الأقليات في الشرق تستعيذ بالله منكم, وتسارع إلى العمل لإخراجكم وإجلائكم عن البلاد, ولكنه الظلم يدعو, والطغيان يقضي.

ثم نسألهم.. ما الذي دعاكم أن تحكموا أنكم أولى بالشرق من أهله وأحق به من ذويه؟ هل أوحى الله إليكم بذلك؟ أم أُنزل عليكم كتاب من السماء بين لكم خير الإنسان فقمتم لتخلصوا بني الإنسان من كفر وضلال وظلم وهوان؟. الجواب: كل ذلك لم يكن ولا بعض ذلك, ولكن ترك أهل الشرق العمل بدينهم فسلط الله عليهم أوربا, كما سلط بختنصر على بني إسرائيل, وهذا التسليط متاع قليل.

ولو قام المسلمون من نومة الغفلة, وعلموا من أين أخذوا لتركوا السياسة ورجعوا إلى دينهم, وأقاموا حدوده, وسارعوا إلى الله عملاً بكتابه وسنة رسوله, فقذف الله الرعب في قلوب أعدائهم وهزمهم أمامهم, قال الله تعالى مخبراً عن بني إسرائيل: ﴿ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا

﴾[1] فأثبت سبحانه أن تسليط بختنصر إنما هو لأدب بني إسرائيل ولرجوعهم إليه سبحانه, فلما رجعوا إليه تعالى أمدهم وأهلك بختنصر. وهذا الحكم وإن كان سببه خاصاً فهو عام لكل أهل الإيمان, ولكن اليهود رجعوا إلى الظلم والإفساد في الأرض بغير الحق فلعنهم الله وأذلهم إلى الأبد, فلا تقوم لهم قائمة أبداً, وما يدَّعونه من ملك فلسطين فهو سحابة صيف وفتنة تنتج دوام ذلهم والتشديد عليهم.

وقد أفسد المسلمون في الأرض بمخالفة وصايا رسول الله تقليداً لأوربا الذين فارقوا دينهم, وشتان بين دين أوربا ودين الإسلام, فإن الإنجيل كتاب يطالب خراب الدنيا وعدم العمل فيها لها, ويحث على ترك الاشتغال بالدنيا والزواج, فتركوه لينالوا الخير الذي ناله المسلمون بالعمل. تركوا عقيدة المسلمين وعبادتهم, ولكنهم أخذوا هممهم وعزائمهم. وجهل المسلمون, فتركوا عمل دينهم الحق الذي جمع الخيرات في الدنيا والآخرة, فسلط الله عليهم أهل أوربا الذين آمنوا ببعض الكتاب وكفروا ببعض, لأنهم تركوا العقيدة والعبادة والأخلاق, وأخذوا بقسم المعاملات والتربية الاجتماعية, فكان ترك المسلمين لأحكام دينهم ذلاً لهم وهواناً, وشتان بين قوم تركوا دينهم فذلوا وبين من تركوا دينهم فسادوا وعزوا, ولكن السيادة المؤسسة على غير الإيمان والتقوى تنتج شر الظلم.

وإنا جماعة المسلمين قد أيقظتنا الحوادث, فعلمنا أن سعادتنا لا تكون إلا بالرجوع لديننا والعمل بسنه نبينا, والبرهان ما تفضل الله به علينا من النصرة والتأييد في هذا العصر بما أظهره على يد أنصاره سبحانه, فعلينا جماعة المسلمين أن نرجع إلى مغفرة من ربنا وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين, بتجديد شرائع الإسلام والغيرة له, وترك البدع المضلة, وعلينا أن نشجع رجال صناعتنا وتجارتنا وفنوننا, وأن نتخلق بأخلاق نبينا من الرحمة والعطف والسماح والعفو والتعاون على البر والتقوى, والصلة والعفاف والكرم والشجاعة والعدل, وحسن الظن بإخوتنا جميعاً واعتقاد أولويتهم بالنفع والخير, ولديها يعيد الله لنا مجد سلفنا, ويجدد سؤددنا والخير

(1) سورة الإسراء آية 4, 5, 6.

الذي كان لهم من التمكين في الأرض بالحق, وجعل الأمم الأخرى أذلة لنا, والله لا يضيع أجر المحسنين.

الحق والقوة:

﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [1] الحق صولة تمحق قوة الباطل المؤسسة على الخديعة تنكرها نواميس المجتمع الإنساني, الذي صارع بباطلة قوة الحق فصرعه الحق من حيث أنه حق, قال الحق في المعاملات, الحق في الحقوق, الحق في مساواة النوع الإنساني وإن استكان أمام قوة أهل الأطماع أهل الإفساد. فإن قوة الحق الأول الذي وضع الأسباب وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر وكره الظلم من نفسه سبحانه, لا تلبث إلا أن تمحق الباطل وأهله, وتحق الحق وتنصر أهله, ولديها يفرح أهل الحق بتأييدهم بقوته سبحانه وبقهر أعدائه.

قد تمثل أوهام ضعفاء العقول ظواهر كيد المغرورين بما اخترعوه من الحديد والنار أنها قوة مؤثرة بنفسها, قادرة على تنفيذ مراد مستعمليها, حتى إذا فرح الظالم بما أوتي من تسليط وتنفيذ كلمة باغتته قوة الحق, أو بينته فأصبح حزيناً أسفاً يقلب كفيه ندماً, ويعض بنانه هماً وغماً, قال تعالى: ﴿ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ [2] وقد شهد التاريخ شهادة عدل على من طغوا وبغوا وعلوا الآن على أمم الشرق, بعد أن كانوا سادة باتباع الإسلام, فلما خالفوا شرائع الدين فقدوا السيادة, وسلط الله عليهم دول أوربا الذين كانوا متمتعين بين الدول الإسلامية بالعدالة والمساواة, بل بالرحمة والإيثار, ولكن نسيت أوربا إحسان المسلمين إليها, وأكثر الأمم نسياناً (الإنجليز).

نعم, للباطل صولة, ولكنها صولة الحيوان المذبوح... وللحق صولة, ولكنها صولة الحكم العدل القهار... تظهر صولة الحق في الضعفاء من المستعبَدين وليس البرهان ببعيد: كان قيصر روسيا يظن أنه في الأرض والرب في السماء, فأذله الله وسلب ملكه على يد أضعف رعاياه. وكانت قوة دول التحالف محتلة دولة تركيا بجيشها البري والبحري, حتى ظنوا أنهم قبضوا على زمام الشرق باحتلال عاصمة الترك, وازدادوا طغياناً فسلطوا أمة كانت مملوكة للدولة التركية

---

(1) سورة الإسراء آية 81.

(2) سورة الأنعام آية 44 – 45.

وهم اليونان, فأمدوهم بالمال والآلات الجهنمية والقوات, طمعاً في محو أثر دولة أذل الله لها كل دول أوربا في عصر أبطالها الفاتحين.

وكانت دولة أسبانيا ذات القوة والمنعة بأمريكا, وذات السلطة المطلقة بالبحار, فأخزاها الله وأذلها على أيدي الإنجليز الذين لا يجهل أحد ما كانوا عليه قبل نابليون فرنسا. وكان الإنجليز يظلمون الأمم بعد أن سلبوا منهم ما به سادوا البحار وملكوا القفار.

ثم غَرَّ الإنجليز ما غَرَّ الرومان في المملكة الشرقية والغربية, حيث أجلاهم عن الشرق رجال المسلمين الذين لا يتجاوزون بضع آلاف, بل وأذلهم في روما أبناء المسلمين في صقلية الذين دعتهم الغيرة إلى مظاهرة فتحوا بها روما. كل ذلك من ظلم الرومان ومن صولة الحق التي أعان بها الضعفاء المظلومين في شمال إفريقيا وفي سوريا وفلسطين, وقريباً يعيد التاريخ نفسه فتصبح إنجلترا بعد ذلك المجد المؤسس على الخديعة والقهر والظلم والجور أثرا بعد عين، ويتذكر الشرق للإنجليز آثارهم التي أصبحت في كل واد.

لا يضيع حق وله مطالب:

الحق وإن ظهر للحس حتى لمسه لا يعدم طمعاً يخفيه، أو هوى يحجبه، وقد يضيع الحق إن لم يجد له مطالباً، ولكنه مهما خفي بالأطماع وتحجب بالأهواء وقوى أهل الباطل وكثروا، وانتشروا وخافهم أهل الحق، فإن الحكم العدل القوي القاهر يحدث بعد أمر أمراً، وقد قدر سبحانه في أزله أن يسبب الأسباب، ويحدث المقتضيات، ويعين بالقوة والإمداد أهل الحق وإن كانوا مستضعفين، فيظهرهم سبحانه بما شاء، وكيف شاء، وكم عمت الظلمات الأرجاء وتوالت السحب، حتى أخفت أنجم السماء في الأجواء، وبلغت روح أهل الحق الحلقوم، لما رأوه من أهل الباطل من القوة والآلات والأدوات، حتى تناسى بعضهم الحق الذي لهم، فنسى الذي عليه، وفر إلى الباطل مقلداً، أو فرحاً بنجاة نفسه، ونوال قوته، ولم ينسى بعضهم ولكن تحرف أو تحيز، وانتظار الفرج عباده، ولكنه مع ذلك رتب الأسباب على بعضها حتى كاد أن ييأس من ظهور الحق، ولا يتصورها، فلا يلبث إلا ريثما تظهر أسباب تقوي عزيمته، وتجذبه إلى فسيح الأمل وتدفعه إلى ميدان العمل، فيهب هبوب النار المحرقة، ويسرع سرعة ضوء الشمس في انتشاره على الآفاق، قائلاً عاملاً مجداً آملاً، برهان ذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ

إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [1]. وفي المثل: « لا يضيع حق وله مطالب » وقليل لهم حق معهم الحق سبحانه وتعالى، وكثير على باطل عليهم الحق سبحانه، وأهل الحق كثير وإن قلوا، وأهل الباطل قليل وإن كثروا، ومن لم ينتهز الفرصة في وقتها انقلبت عليه غصة.

بالرجوع إلى الحق يعود المجد:

إنا والحمد لله لم نغير عقيدة القرآن، ولم نبدل سنة وضحها لنا رسول الله ﴿ﷺ﴾. أصغر مسلم يفعل الذنب وهو يعلم حرمته، بل يكون وهو في أكبر الكبائر – إذا ذكر بالله سبحانه أو برسوله ﴿ﷺ﴾ – أقشعر جلده إعظاماً، ولان قلبه شوقاً، وسخط على نفسه توبة. بل وإن تكاثفت ظلمات الكبائر على الجوارح فإن نور الإيمان في القلب يشرق عند الذكرى، فيمحق كثائف تلك الظلمات، ويصير المسلم كأنه ملك روحاني، ليس فينا من يثبت لنفسه العصمة، وكل واحد منا يعترف على نفسه بأنه مخطئ مسيء ظالم لنفسه، وهذه من أخص صفاتنا – جماعة المسلمين – وإن الله سبحانه بشرنا بأنه يحب التوابين، والرجوع للحق إنما هو استبدال قبيح الأعمال المخالفة للشرع بأعمال حسنة شرعية، وحب الحق وأهله، وبغض الباطل وأهله، والحرص على تحصيل ما به نفع المسلمين، من علم ومال وفنون وصناعات وتجارات وزراعات، ليكون عاملاً للحق، مع الرحمة بالعالم أجمع، كل على قدر ما يستحق.

(1) سورة الإسراء آية 81.

الباب الثاني
الوسيلة الثانية لنيل المجد الإسلامي

الرجال العاملون

الباب الثاني
الوسيلة الثانية لنيل المجد الإسلامي
الرجال العاملون

ما يزع السلطان أكثر مما يزع القرآن:

هذه الكلمة الفذة، بل الحكمة البالغة، التي نطق بها أمير المؤمنين عثمان بن عفان ﷺ، بعد أن علم من رسول الله ﴿ﷺ﴾ حقائق الأشياء مُجْملة ومفصلة، وبعد أن سبر الأمور حتى انكشفت له حقائقها، فعلم باليقين الحق أن الحقائق التي تركب منها الإنسان على كمال التضاد، كل حقيقة منها منفردة تهوى إلى الدرك الأسفل من النار فكيف لو اجتمعت، إلا من عصم الله تعالى فأعانه على مجاهدة تلك الحقائق كلها بقوة منه تقهر مقتضيات تلك الحقائق. ولم تكن كلمة أمير المؤمنين إلا بعد العلم والتجربة. وإنما يزع القرآن من اجتباهم الله تعالى فكتب في قلوبهم الإيمان وزينه فيها، وأيدهم بروح منه وهم القليل، قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ [1] فلزم لصلاح المجتمع قوة قاهرة تنفذ أحكام الله تعالى التي هي حقيقة العدل، وتقهر النفوس الإنسانية على حب المساواة والرحمة، حتى يبلغ الإنسان كماله الذي هو به النوع الوسط بين عالم الملك والملكوت، ولا يكون ذلك إلاَّ بالسلطان، ولا سلطان إلا بقوة قاهرة، ولا تكون تلك القوة عاملة لخير المجتمع إلا إذا كانت منفذة لأحكام الله تعالى، وكل قوة تضع القوانين الوضعية وتنفذها فهي قوة قاهرة ظالمة، ودليل ذلك محو العدل لسلب المساواة.

---

(1) سورة سبأ آية 13.

التاريخ يعيد بعضه بعضاً:

الإنسان من أول نشأته هو الإنسان، لم تتغير أخلاقه وميوله النفسية، ولم يخرج عن الطبائع الحيوانية إلى أفق الأطهار إلا بالقوة القاهرة المنفذة لأحكام الله تعالى.

وها هي الأخبار الصادقة تدل على أن أعمال الأمم الجاهلية قبل عشرات القرون، من حب التسلط على الأمم الضعيفة، والمسارعة إلى سلب حريتها والانتفاع بمرافق الحياة فيها، لا تزال في هذا العصر بحالة أبشع مما كانت عليه، لأن تقدم الأفكار في الاختراع مكنت إنسان اليوم من التسلط على الأمم، تارة بقهرهم بالآلات الجهنمية حتى يصيروا عبيداً أذلاء، وأخرى بالسعي وراء تفرقتهم وتفكيك عصبيتهم الدينية والنسبية حتى يصير كل واحد منهم كالشاة الشاذة بين أيدي الذئاب لا يهمها إلا السلامة، بعد تجريدهم من آلات المدافعة، ومحو صناعاتهم وفنونهم حتى يصيروا عالة، لا يرى الواحد منهم قوته إلا في يد الأمة القاهرة. وتارة يخدعون الأمة بأنهم الرحماء فيعطفون على الحيوانات والمرضى، ويبغضونهم في بعضهم بعضا حتى يتمكنوا منهم، ولم يكن ذلك في الجاهلية الأولى. وكم امحت أمة بأسرها وما سمعنا أن قبيلة من القبائل امحت بظلم الظالمين.

لا تطمع فيما في يد القوى إلا بالقوة:

يظن كثير من الناس أن وضوح الحق يدعو إلى العمل به لجهله بالحقائق التي كون منها الإنسان، وهو في نفسه لو كان وصيا على أقرب الناس إليه يتمنى أن لا تخرج الوصاية من يده، بل ويرى في نفسه أنه إذا كان مدينا لآخر يكره أن يرد إليه دينه إن كان ضعيفاً، وقد يضطره إلى المحاكمة فلا يدفع الدين إلا بالحجز عليه، وها هي ذي دور القضاء غاصة بالمتخاصمين مع سهولة الأمر ويسره، فلا يدفع الحق لصاحبه إلا بقوة المطالب أو بقوة الحكومة المنفذة، يرى ذلك كله ثم ينساه أو يتناساه، ويقوم فيطالب السبع بشاة له وضع يده عليها، فيثبت بالقول أنها ملك له وترتعد فرائصه خوفاً من السبع، والأولى له أن يرجع فيحضر أنصاره وسلاحه ويهجم على السبع، فإما أن يهزمه تاركاً الشاة، وإما أن يقتله ليأخذ شاته، وتلك حقيقة لا مراء فيها.

كيف يقوى الإنسان ؟:

قوة الإنسان تكون باليقين الحق أن الله معه، وأنه عامل من عماله يسارع لنصره سبحانه وتعالى، وهذا أقوى الناس جميعاً، وهو منفرداً جيش عظيم ترهبه الجيوش، لأنه في هذا الحال يحتقر حياته في سبيل نيل رضاء ربه، لما تيقنه من حسن المآل وخير النوال، ويقوى بمجتمع كونته عصبته للدين الحق، علم كل فرد منه ما يناله ببذل نفسه ونفيسه بجوار الأطهار من الأنبياء، والأخيار من الصديقين في مقعد صدق عند مليك مقتدر، أو بعصبة ذات شوكة ومعدات كونها الحرص على نيل مجد من شرف وملك وخيرات، ويقوى بالتحيز إلى مجتمع قوي متمكن يجمعه به دين ونسب واشتراك في خير عام، فإذا أخطأ الإنسان تلك القوى الثلاث وطلب عيشة في حرية وأمن طلب النار من الماء.

الظلم مرتعه وخيم:

سرعان ما ينسى الإنسان ما شهده في غيره من نتائج الحوادث والأعمال، فكم يرى الإنسان من أمة شادت مجدها على الظلم والجور، واستلت عروش الملوك. وأذلت تيجانهم، لم تلبث إلا واندثرت معالمها، وانمحت آثارها، وأصبح ملكها الذي كان يزاحم الربوبية سوقة، يأمره وينهاه أذل الخدم. بل وكم من مجتمع في ضعف واضمحلال تحت سيطرة أهل الظلم والطغيان، يمسي ذليلاً فيصبح عزيزاً يسيطر على من تسلط عليه. كل ذلك من الظلم ووخامة عاقبته. الإنسان الظالم يفرح بتمزيق جسم أخيه الإنسان بمقذوفات النار، ويسره أن يرى المجتمعات من الإنسان تلتهب فيها النار، وقد ينشر بين الناس الغازات الخانقة، أو يلقى على البلاد القنابل المفرقعة، فإذا سمع أنين المحترقين يتلذذ به فرحا بما أحدثه من الظلم والجور بغيره. وجهل الإنسان، ويا ليته صب تلك الصواعق ورمى بتلك المقذوفات على مجتمعات الوحوش الكاسرة، التي هي آمنة في غاباتها، جهل والله.

الذي خلق الإنسان غيور عليه رحيم به، يمهل نعم.. ولكنه لا يهمل، فيضحك هذا الظالم قليلاً ويبكي كثيراً، لأنه لا يلبث إلا وقد نزع القهار المنتقم الملك منه والقوة، وسلط عليه من كان يحرقهم بالنار في الدنيا، وألقاه في الدرك الأسفل من النار يوم القيامة.

وحين سئل رسول الله ﴿ﷺ﴾ من خير الناس ؟ قال ﴿ﷺ﴾: (الصدِّيقُ بنُ النبيّ بنُ الخليل، يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام) دل ذلك على أن الشرف يحفظ في العائلة، ويورث لذريتهم من بعدهم إذا تولى تربيتهم من يحب لهم الخير. فإذا كان الوصي عدواً ظلوماً سلاباً تسلط على شرف العائلة ومجدها ومالها فأفسدها، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ [1]تشير هذه الآية الشريفة إلا أن المجتمع الإسلامي يجب أن لا يكون له ملك إلا الله، ولا عمل إلا بكتاب الله وسنة رسول الله، ومتى ضعف الإيمان في قلوب أهل الإسلام سلبت العزة التي كانت لهم بدليل قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [2].

ومؤمن كامل يعتقد قول الله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ [3] يكره أن يرى عبداً نظيره تؤلمه بقة، وتقتله شرقة، وتنتن جسمه المشقة ملكا نظير الله تعالى، يعصي الله في طاعته، ويبيع دينه لمسرته، ويحبه كحب الله أو أشد حباً. ومن أحب أن يوصف بالجلالة والملك، وكره أن يكون عبداً لله وأخاً لعبيده، ورضى عنه الناس وسارعوا فيه كذب على الله وعلى نفسه وعلى الناس، وأمة ترفع عليها نظيرها فتذل له وتسارع في هواه وحظه انحطت من الرتبة الإنسانية إلى أدنى مراتب الوجود، والملك في الحقيقة هو الله، والحكم له سبحانه لا شريك له، ومن جهل تلك الحقيقة فليس بمسلم، لأن الإسلام لم يجعل فوق الإنسان إلا الله بآية فذة في القرآن وهي قوله تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾ [4] ونفى سبحانه صفات الربوبية عن العالم أجمع وأثبت لهم صفات العبودية وهي قوله تعالى: ﴿ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴾ [5].

---

(1) سورة النمل آية 34.

(2) سورة المنافقون آية 8.

(3) سورة الإخلاص.

(4) سورة الجاثية 13.

(5) سورة مريم آية 93.

فالمسلم لا تقهره المدافع والمقذوفات، وإنما يقهره الحق سبحانه لأنه عبده، ولا يخضع إلا للحق، فهو وإن خضع لإنسان فهو إنما يخضع للحق الذي يأمر به أو يبينه للناس أو يدعو إليه، وكيف لا ؟ وهو يعلم أنَّ الموت لابد له منه، وأنَّ الموت في إعلاء الحق والعمل له سبحانه مجد يدوم فلا يزول، وأنَّ الحياة التعيسة التي يميل إليها سفلة الخلق في ذل الاستعباد الباطل حياة بهيمية لا يرضاها إلا من رد أسفل سافلين الجهالة بحقيقة نفسه، فنسى نشأته الأولى والآخرة. ومن أذلته بطنه وفرجه فصار عبداً لهما وذل للباطل فذلك في نظر العلماء الربانيين أحقر من الجعل « الجعران » الذي يترك نسيم الرياض وخضرة الأنهار ويتلذذ تحت الزبل والقاذورات.

كيف ترضى أمة جعل الله لها العزة ومكن لها في الأرض بالحق وأذل لها كل من لا يدينون بالتوحيد، أن تختار لها وصيا يحارب دينها ويسلب دنياها ؟ فإنها إما أن ترضى بوصايته معتقدة حسن ولايته، فتكون أقل من الحيوانات الداجنة التي تعيش في البيوت لتذبح، لأنها مع إكرام الإنسان لها، وعنايته بها، تفر منه فرارها من السبع، ولو نظرت إلى الدجاج وقد ألقى الإنسان له طعامه وشرابه وهو يلتقط الحبة يقظ القلب مستوفزه [1] للفرار لأول حركة من الإنسان، ينظر إليه نظر العدو لا يقهره إلا النوم، مع أنه في كل وقت يراه يخدمه وينظف له مكانه ويحافظ عليه من عدوه، وهذا الإنسان السافل الهمة الناقص العقل تبلغ به الجهالة مبلغاً حتى يشرب مع الحية الرقطاء في اليوم الصائف، مغتراً بحسن شكلها ولين ملمسها، مع أنه رأى قتلاها في كل نفس، وأدنى الحيوانات يحترس من غير جنسه ويكره الخضوع لجنسه. وإما أن تقبل وصايته مرغمة، وليس حالها يدل على ذلك وإلا فلم الثقة به وموالاته وإعانته ؟.

انحطت منزلة الإنسان حتى خالف ربه ووالى عدوه، والله تعالى يقول: ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾

---

(1) أستوفز في قِعْدته إذا قعد قعوداً منتصباً غَيْرَ مُطمئنٍ.

[1]كيف يترك الإنسان الحق وبه رفعته في الدنيا، وسعادته ومجده يوم القيامة ؟ وإني لأعجب من مسلم ولد من أبوين مسلمين، وتعلم القرآن من صغره، وتحصل العلوم النافعة في كبره يضعف إيمانه حتى ينسى الله واليوم الآخر !! وينسى حياته الإسلامية التي كان له بها العزة من الله تعالى، وكمال الثقة به سبحانه، والتوكل عليه وحسن الظن به سبحانه، ويتناسى حياته الاجتماعية، التي كان بها عضواً عاملاً في مجتمع له السيادة والتمكين بالحق، والسلطة على العالم أجمع بالعدل، كيف يفقد حياته العملية التي كان بها في مجتمع هو كعبة الأمم، ومصدر خيراتهم، ومورد نفعهم طبا وصناعات، وفنوناً وحكمة وسياسة، ونجدة وخبرة ومعونة ؟ عجباً !! بل كيف ينسى حريته التي كان بها في مجتمع ليس فوقه إلا الله تعالى. ثم الكتاب والسنة، ثم العامل بها المنفذ لأحكامها ؟ نسيت أيها المسلم أو تناسيت – ولا مكابرة في الحقائق — تغيرت الأحوال، حتى صار من كان يحتاج إليه العالم في تجاراته وزراعاته وفنونه وآدابه محتاجاً إلى الإبرة التي يخيط بها ثوبه، فأنتج ذلك الذل للمتساهل، فأصبح ذليلاً لمن كانوا عالة عليه وأرقاء يباعون في سوقه.

أقامك الإسلام فعلوت وسدت، واستوليت على الأمم فنشرت فيها النور، وأظهرت فيها العدل، حتى أيقظتهم من نومة الغفلة ورقدة الجهالة، وأحييتهم من موتة عبادة الأفلاك والبحار والأحجار والأناسي، وأطلقت عقولهم من سجن ظلمات تقديس الحيوانات وعبادة الملوك ونسبة الولد لله تعالى، فسعد بالإسلام من سبقت له الحسنى من الله في الدنيا والآخرة، وسعد به في الدنيا من لم يُقدِّر الله لهم السعادة في الآخرة فرتعوا في حصون الأمن، ورفعوا بالعدل، ونالوا الحرية والمساواة، حتى كان أعظم رجل من المسلمين مساو لأحقر رجل من أهل الذمة في المعاملات والانتفاع بمرافق الحياة. ثم انحرف المسلمون فتركوا ما به سعدوا وسادوا من العمل بالكتاب والسنة، بعد أن أيقظوا الأمم الجاهلية والضالة والمبدلة فالأمم الجاهلية عبدة الأوثان، والأمم الضالة من لا دين لهم، والأمم المبدلة الكتابيون الذين يحرفون الكلم عن مواضعه، فكانوا على المسلمين كالذئب الذي أكرمه الإنسان فغذاه لبن شاته، فلما أشتد أكلها، لأنه خالف أمر الحكيم العليم الذي قال سبحانه: ﴿ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ ﴾ [2] ومع كل

(1) سورة المجادلة آية 22.

(2) سورة هود آية 113.

تلك الحوادث فالمسلمون — والحمد لله — لا يزال بين ظهرانيهم كتاب الله وسنة رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾، ولا تزال قلوبهم مطمئنة لا تيأس من روح الله.

نعلم يقيناً أن الله إذا كره شيئاً غيَّره، وقد كره الظلم لنفسه، وقد ظَلَمَنَا من انتفعوا بسماحة الإسلام ووصايا القرآن لنا عليهم، وانتفعوا بتركنا للعمل بكتاب الله وسنة رسول الله، وقد تحققنا بسر تأخرنا وتسلطهم علينا، ولم يبق إلا أن نرجع بكليتنا إلى ما به سعد سلفنا وسادوا، وهو محصور في أمر واحد هو: العمل بكتاب الله وسنة رسول الله وهدى الأئمة الراشدين والمرشدين، مع الثقة بأن الله على كل شيء قدير، وأنه قابل التوب، وغافر الذنب، وأنه شديد الغيرة لأهل التوحيد على أهل الظلم، قال الله تعالى: ﴿ إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴾[2].

ومتى كشفت الحقائق بطلت الأوهام والظنون، والله وليُّ المؤمنين.

القوة لا تقهر المسلم بمعناه:

المسلم هو الإنسان الذي عقد قلبه على علم أنه عبدٌ خلقه الله، وأودع فيه من الحقائق ما حير العقول مما قامت به الحجة على عجائب قدرته سبحانه وغرائب حكمته. وخلق له سبحانه مالا بد منه وأكمل، من خيرات ميسرة له من غير عناء كالماء والهواء والأرض والحيوانات والشمس، وما في البحار والأنهار والمعادن بأنواعها، ووضع له كنوزاً غالية في كل تلك الحقائق ينتفع بها في ضرورياته وكمالياته بيسير عمل بجوارحه مع الاستعانة بالعقل، ليجمله بجمال العمال المخلصين للبحث عما كنز لهم الفاعل المختار الرزاق الكريم المنعم المتفضل ﷻ. فالمسلم الكامل يرى أن الله تعالى الرءوف الرحيم القوي المتين خلق كل شيء لمنفعته، لأنه سبحانه غني عن كل

(1) سورة مُحَمَّد آية 7.

(2) سورة النساء آية 64.

شيء، فالمسلم لا إمام له ولا قائد له إلا ما أنزل الله له على لسان رسله في القرآن المجيد، وما جاءنا بالسند الصحيح من قول رسول الله ﴿ﷺ﴾ وإقراراته وأعماله وأحواله. وهذا هو الصراط المستقيم الذي لا يكون المسلم مسلماً حقا إلا إذا هداه الله فسلك عليه للوصول إلى الغاية الأخرى، وهي الملك الكبير الذي يضمحل في جانبه كل نعيم في الدنيا وملك فيها. فالمسلم في الدنيا يعمل ليتمتع بزينة الله التي جعلها له، وبنعمته التي أغدق عليه، ملاحظا أنه عبدٌ لرب كريم متفضل منعم.

وبعيشك أيها القارئ؛ هل يتوهم متوهم أن مسلما بمعناه صدق بكتاب الله وسنة رسول الله ﴿ﷺ﴾ يرضى أن يذل نفسه لغير من تفضل عليه بنعمة العزة وواسع الفضل العظيم ؟ أو يقتدي بعبد مثله غرته القوة وهو علي يقين أنه إذا دفع الباطل انتقل إلى الملك الكبير والنعيم المقيم ؟ حاشا يرضى مسلم أن يمتع جسمه بما اشتركت فيه معه البهائم السائمة وعبيد المادة، ثم يحرم نعيم العزة بالله في الدنيا، وبهجة المسرة في دار البقاء.

يظن المستعمرون أن قوة الحديد والنار تسلب ما في القلوب من نور الإيمان، أو يتوهمون أن المسلم كحُمر أمريكا وأستراليا، فيخدعونه تارة بما لا يخدع به إلا مقلد لوالديه لم يباشر الإيمان قلبه، أو مَنْ ولد من غير مسلم، أو مَنْ نَسى يوم الحساب فقاده الطمع في رياسة أو جاه أو مال، مع بغضه لنفسه ولمن خدعه وتمنيه إهلاكهم، وتأوله أن هذا مداراة. وكيف لا ؟ وهو يعلم قوله تعالى: ﴿ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴾ (1) ويقول سبحانه: ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ ﴾... الآية (2). والعجب أن بعض هؤلاء يظنون أن عامة المسلمين تحت سيطرتهم ينقادون لزعامتهم، ويعلم الله أن أكثر الصائحين معهم معتقدون أن دعوة الزعماء للرجوع بهم إلى ما كانت عليه الأمة من الحول والطول والحرية والاستقلال والمساواة ومحو الرذائل المنتشرة.

---

(1) سورة المائدة آية 52.

(2) سورة المجادلة آية 22.

ولكن غَرَّ دول الإفرنج ما رأوه من الطاعة العمياء التي قدمها لهم من خدعوهم بالرياسة والسيادة والأموال، وجهلوا أن المخدوعين ممن رفعوهم على الأسرة هم أيضاً يخدعون الإفرنج، ولكن الله لا يؤيدهم لأنهم لم يقتدوا بما وعدهم النصربالعمل به، وقد انكشفت الحقائق لذي عينين، وإلا فأين حسين بن علي ووحيد الدين وعرابي باشا كشفت لنا جريدة السياسة في العدد يوم الأربعاء30 نوفمبر والخميس أول ديسمبر والجمعة 2ديسمبر سنة 1927 أسرار دلت على اقتدار الاستعمار في خديعة المسلمين العاملين بغير شرائع الإسلام. يعجب القارئ لتلك الأسرار عندما يرى مندوب المستعمرين بمصر يتملق الحسين بن علي ويمنيه بالملك والخلافة، بينما نرى حسين بن علي يتكبر على المستعمرين، ويطلب منهم الطلبات التي لا يطلبها إلا من له سلطة على القوم !! وهم يلبون دعوته، ويطلبون منه تأليف القبائل لأعدى أعدائهم وهم الأمة التركية، الذين هم أصل نعمته وسبب رفعته، فيقوم تحت راية الاستعمار بإهلاك المسلمين بسوريا وفلسطين وشرق الأردن والحجاز، فلما أدى ما يريدون منه قلبوا له ظهر المجن فرموه كما ترمى النواة، بعد أن سلطوا عليه آخر من أمراء المسلمين نظيره، وأمدوه بالسلاح وأذلوا نصيرهم ومعينهم حسين بن علي، ولو قرأت في تلك الأسرار أن حاكم السودان يكتب لمن ينتسبون إلى شرف النبوة فيستعين بهم على إهلاك المسلمين، وكان إذ ذاك فضيلة قاضي السودان الذي كافَأوه على جزيل خدماته ومقالاته المنشورة بجريدة السودان والمقطم وغيرهما، كما كافَأوا أغا خان صاحب المقالات المشهورة وستنكشف الأسرار وتسود وجوه وتبيض وجوه.

الأمة برجالها العاملين:

إذا رأينا إنساناً يضرب وجهه بحجر، أو يصدم الحائط برأسه نحكم عليه بالجنون ونرسله إلى المستشفى رحمة به. وكذلك الأمة إذا قام فرد منها يريد أن يؤذي فرداً أو أفراداً أو الأمة، يجب أن نوقفه عند حده، وأن الحكومة قد وضعت لهذه الأمراض حدوداً مخصوصة تنفذها على الأفراد المعتدين على بعضهم مدنياً. ولما كان الخير العام هو حق للأمة، وهو يجب أن يسلم لرجال الرأي في طلبه، فيجب على الأمة بصفتها تمثل جسداً أن تهتم بعلاج من مرض من رجال رأيها الموثوق بهم، حتى لا تجعل المرض يتفشى في الأمة، وأي عاقل إذا مرضت يده يقطعها أو مرضت عينه يقلعها ؟. وإنا في زمان يجب أن نخفي عيوب بعضنا خوفاً على الاتحاد أن يشوبه عكر تفرقة، فإن الإنسان ليس معصوماً، وقد يخطئ العامل معتقداً نيل الخير بعمله، وإنك لترى الرجل ينظر في المرآة فتريه الأوساخ على وجهه فيزيلها غير غضبان عليها، فالأخ المتمم للجسد يجب أن يكون لأخيه كالمرآة، يبدي له عيوبه منفرداً بأسلوب حسن ليميطها عن نفسه، قال رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾: (المؤمنُ مِرآةُ المؤمِنِ) [1].

أصبحنا نسمع من رجال الرأي في الأمة لفظة الأعداء، فرجال حزب يقولون: أعداؤنا فعلوا كذا، والحزب الآخر يقول: ترك أعداؤنا كذا. وكيف يجوز لرجال الأمة المجمعون على نيل حق من سباع كاسرة أن يعادي بعضهم بعضاً، ويظهرون ما به يتمكن العدو منهم، والسلاح

(1) رواه أبو داود في سننه 4918 والبيهقي في السنن الكبرى 3/ 375 والهيثمي في مجمع الزوائد 7/ 264 والبخاري في الأدب المفرد 239 والمتقي الهندي في كنز الأعمال 672، 673، 767 والزبيدي في إتحاف السادة المتقين 6/ 224، 292 والعراقي في المغني عن حمل الأسفار 2/ 181.

الذي أرهب من بيدهم الحق حتى طلبوا المصالحة هو قوة تماسك الأمة واتحادها، ومتى عادت اليد اليد، والرجل العين، واللسان القلب، استهان الصبيان بالجسد، فكيف بالسباع الكاسرة ؟!.

الأمة في حاجة إلى اليقظة:

يجب أن تتيقظ الأمة من تلك النومة، وتعلم بمقدار هذا الحق الذي يطلبونه حتى تبذل في سبيله قيمته الحقيقية من الاتحاد، واحتقار الوظائف والسيادة والهوى والحظ في سبيل نيل هذا المجد، الذي به صفاء الحياة، حتى تسعد الأمة بمواهب أبنائها، من علماء وحكماء وشجعان وصناع وزراع، وليس الأمر بعزيز على الأمة إذا قامت فنصحت رجالها، وتركت التفرقة والعناد، وأجمعت عن بكرة أبيها أنها تسقط من ادعى خدمتها من غير أن يقيم الحجة أنه عضو منها، عامل بالرحمة والحكمة، يسارع في جلب الشفاء لمرضاها، وإصلاح ذات بينها، حتى لا يرى العدو منفذا يدخل عليها منه.

بالزعماء المصلحين ترقى الأمم:

ليس أنفع للأمة من معرفتها قدرها معرفة تجعلها تقوم قوميتها حتى تقيم من شاءت إماماً لها، يقوم لها بما يقيم به الوالد الشفيق الرفيق لأبنائه البررة الذين يعملون للانتفاع بموارد ثروتهم، ولتنمية حاصلاتهم، وذلك الإمام يسهرليناموا، ويفكر في دفع المضار عنهم لتستريح قلوبهم، ويحفظ الثغور ليأمن من غائلة عدوهم، ويتعهدهم في شدائدهم ورخائهم، مشاركاً لهم ومعيناً بما لديه من أموالهم وما عنده من رجالهم حتى تكون الأمة أسرة واحدة، يعمل كل واحد منهم لخير المجتمع، فهو كما يحصن الثغور لدفع العدو الخارج، يصلح الأخلاق لاستئصال العدو الداخل، فيجهد نفسه في قهر المتغلبة والمتلصصة، ونفي المفسدين في الأرض، والانتقام من الخوارج على الدين أو على الأمة، أو على الحكومة، وخير الزعماء الذين هم أئمة الأمم هم الأنبياء والرسل، ثم يليهم أهل النفوس المشابهة لنفوسهم الذين ملئت قلوبهم رحمة بالخلق، وشفقة عليهم، فضحوا بالمشتهيات ليفوزوا برضاء الله تعالى، وحسن الثناء عليهم في الدنيا من الخلق وخير الأحدوثة بعد موتهم، والنعيم المقيم يوم القيامة، وهؤلاء الزعماء كالشمس في الكرم وكالليل في الستر، وكالأنهار في النفع العام، وهم الذين تفديهم الأمم بكل غال ورخيص، وهم الذين بلغت

بهم الأمم أعلى مقامات الرقي في الدنيا والآخرة، قال سبحانه: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾النحل: ١٢٠والتاريخ شاهد عدل.

على الأمة أن تبحث عن القائد الحكيم المصلح:

معلوم أن النفوس الإنسانية عشاقه بالطبع، بحسب جواهرها، فالنفوس التي صيغت من النور تعشق النور، فتسارع إلى الغيب المصون محتقرة الدنيا وما فيها، والنفوس التي صيغت من الصفاء تعشق الفضيلة والعفة والكرم والشجاعة والنفع العام لبني الإنسان بما تملك، والنفوس التي صيغت من النار تعشق الهرج والمرج، والعناء والنزاع والشرور والقبائح والإفساد والإضلال، والنفوس التي صيغت من الظلمة تعشق الظلم والانتقام، والتفرقة والاختلاف، وتهوى الفسوق والفجور، وإثارة الخواطر، ووقوع الخصومات وإسعار نار الفتن، وأما نفوس العلماء الربانيين الأفراد الروحانيين فهي نفوس صيغت من جمال الله تعالى، فعشقت العلم والمعرفة والورع والزهد والتنسك، وسارعت إلى بيان الغيب المصون لمعاصريها وأحبت نشر الفضائل والعلوم لتنويع أفكار الأمة.

تقرر لنا أن أكمل الزعماء – ولو كان عمر بن الخطاب – لا تنتفع به الأمة إلا إذا اتحدت معه على ما يحب، وسارعت إلى تنفيذ آرائه، وكان كل فرد من الأمة بالنسبة له ككل عضو من جسمه، ولذلك فإن الأمم الجاهلية الأولى قتلت الأنبياء، فلم تنتفع أكثر الأمم بأنبيائهم، ذلك لأن الأمم إذا كانت راقية لا يضرها متغلب – ولو كان إبليس – وإذا كانت سافلة منحطة أفسدت أخلاق المتغلب حتى تجعله شراً منها، وأمة لا بصيرة لها تذل للقوة أين كانت، وكيف كانت، فيهان العالم الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر، ويعز القوي الجريء ما دامت القوة في يده، فإذا زالت زالوا عنه، بعد أن كانوا يبالغون في تعظيمه، ويقيمون الحجة تلو الحجة أنهم له وعلى أعدائه، فيضرونه من حيث لا يعلم، ومثل تلك الأمة تحتاج إلى تقويم أخلاقها، أو إبادتها، لتقوم أمة عرفت مقدارها كما فعل الله ببني إسرائيل، إذ قدر عليهم أن يتيهوا في الأرض أربعين سنة، ليموت كبارهم ويبقى أولادهم الذين لم يستعبدهم فرعون بالقهر، وشتان بين نفوس تأبى الضيم فتعمل لتحيا تحت الشمس في عزة وأنفة، وبين نفوس همها البطن والفرج، لا يهمها أن يحفظوا مجد آبائهم ولا أن يبقوا شرفاً لأبنائهم، ولا أن يدخروا لهم خيراً عند ربهم، ومثلهم كالبهائم السائمة، أو هم أضل سبيلاً.

إذاً فالقائد موجود ولكن تعوزه الجنود، والحكيم المصلح بين ظهرانينا ولكنه في حاجة إلى القلوب، فإلى الأمة نوجه هذا النداء الحار، كي تقوم من هذه الرقدة الطويلة، وتفتش عن القائد المصلح الذي يحق له أن يحمل رايتها، وتعود صفوفها، فإن هي ظفرت به — وهي لا شك ظافرة — فلتجتمع حوله، ولتكن كل القلوب فيها على قلبه، ولديها يسعد آخر هذه الأمة بما سعد به أولها، فيعود للمسلمين مجدهم، وينصرهم الله ويؤيدهم، وما النصر إلا من عند الله.

خصال الزعماء المصلحين الذين يعيدون للأمة مجدها:

الخير مطلوب كل حي، وأكمل الحياة وأشرفها وأعلاها الحياة الإنسانية، ومن أجل ذلك فزعامة المجتمعات الإنسانية يجب ألا تنحصر إلا فيمن جمعت فيه أربع خصال:

أولها: أن يكون الرجل نشأ من أسرة عريقة في المجد والشرف، فتغذى من طفوليته بلبان الفضائل والآداب وكرامة النفس، ونمت قواه النفسية بغذاء الهمة والعزيمة بتلقي العلوم النافعة، وشهود ما يقوم به أولياء تربيته من الفضائل، وما يدعونه إليه من المسارعة إلى الأخذ بالأجمل من كل شيء، وإلى التحفظ من الوقوع فيما تدعو إليه النفوس المهملة، مما تقتضيه أحط الهمم وأدنى النفوس، مما يقع للناس من شبابهم، أي في سن التقليد، فإن الولد في شبابه الأول يرتسم على جوهر نفسه ما يرى والديه وأقاربه يعملونه، فينشأ خبيثاً رديء التصور، ميالا بطبعه للمفاسد بسبب ما يتلقاه ممن تولوا تربيته، وكم من رجل تصدر في العالم وقاد الأمم، ولكنه يوقع من وثقوا به وجعلوه زعيماً في هاوية الرذائل والأغلاط الاجتماعية، وتكون زعامته عليهم شراً مستطيراً، وذلك لأنه نشأ على حب الانتقام والحرص والإيثار لنفسه، فتدعوه تلك الخصال الذميمة إلى أن يترك الحق جانباً وينفذ ما حسَّنه له هواه وطمعه وحرصه على نيل المشتهيات. وهذا لا يكون زعيماً.

والخصلة الثانية التي يكون بها الزعيم نافعاً: أن يكون واسع الصدر، عالماً بأن اتحاد الأمة وإصلاح ذات بينها هو القوة التي تغنيه عن ملء الأرض جيوشاً جرارة كاملة العدة والعدد، فيغض بصره عما يراه من موجبات التفرقة فضلاً عما يسمعه من ذلك.

الخصلة الثالثة: أن يصطفي أهل التقوى والصلاح الذين يألفون ويؤلفون، الذين يجمعون له الأمة ويداووها من أمراض التفرقة والحسد، فإنه إن اصطفى أهل النفوس الخبيثة الذين يجعلونه قنطرة الفوز بمشتهياتهم كالانتقام من أعدائهم ونيل الرياسة وتحصيل حطام الدنيا أرداه في هاوية سحيقة.

الخصلة الرابعة وهي ملاك الأمر: أن يكون تقياً عاملاً بأصول الدين وفروعه، مراقباً أن فوقه قوة الله تعالى التي تحسن إليه إن أحسن، وتنتقم منه إن أساء، فيكون الله معه. ومن لم تجمع له تلك الصفات فذله أقرب إليه من ظله.

الزعيم هو من يحسن إلى من أساء، ويصل من قطعه، ويعفو عمن ظلمه، وبذلك يكون كالشمس نفعاً، لأن خيرها عام لكل موجود، وكالليل ستراً، فإن المعاصي تكثر فيه، ولا يعلم بها أحد، وكالأرض تواضعاً، وإذا وجد هذا فهو السيد الذي يلجأ العالم إليه بعد الله تعالى، وأين هذا والمجتمع الإسلامي أحوج ما يكون إلى مثله في هذا الوقت العصيب، ولعمري أنه ليفدى بالأرواح. فليتدبر من دعته نفسه لأن يكون زعيماً عظيماً.

قال العربي:

لا يحمل الحقدَ مَن تعلو به الرتبُ ولا ينال العلا مَن طبعه الغضبُ

على أني لا أيأس من روح الله، فإن الله لا يخلي الأرض من قائم له بحجة، والليالي حبالى يلدن كل عجيبة، وطالب الحق لا يعدم نصيراً، والواجب كله منصب على الأمة، فإن لها الغُنم، وعليها الغرم، وما توفيقي إلا بالله.

أخلاق الولاة في عهد السلف الصالح:

لما قدم عمر بن الخطاب إلى الشام وفد عليه أهل حمص يشكون إليه واليه عليهم. سعيد بن حزيم، فناجت عمر نفسه بأنهم إنما يشكونه بطراً وأشراً، وأرسل في طلب سعيد بن حزيم

ليخرج من شكايتهم، فلما قدم عليه قال عمر: اللهم لا تخيب فراستي في أهل حمص، ثم طلب إليهم أن يبسطوا شكواهم لينظر فيها ويسأل الوالي عنها فقالوا:

1- إنه لا يبكر بالخروج إلينا كل يوم، بل يصبر إلى ضحوة النهار. فقال عمر: أجب يا سعيد. فقال: إن أهلي ليس لهم خادم، فأنا في كل يوم أعجن عجيني وأصبر إلى أن يختمر ثم أخبزه وألبس ثيابي ثم أخرج إليهم.

2- إنه لا يجيب من دعاه بليل. فقال عمر: أجب يا سعيد. فقال: أما هذه فما كنت أحب أن أجيبهم عليها، فإني قسمت اليوم بينهم وبين ربي فجعلت النهار لهم والليل لربي. فقال لهم عمر: فالثالثة، فقالوا:

3- يوم في كل شهر لا يخرج إلينا فيه. فقال عمر: أجب. فقال: إنه ليس لي سوى ثوب واحد فأنا أغسله في كل شهر مرة، ثم أنتظر إلى أن تنشفه الشمس فيكون قد ذهب أكثر النهار فلا أخرج إليهم. فقال عمر: الحمد لله الذي لم يخيب فراستي فيكم يا أهل حمص. اذهبوا بواليكم وأعينوه على خير ما هو فيه ثم إن عمر أرسل إلى سعيد بن حزيم بعشرة آلاف درهم ليستعين بها على إصلاح شأنه، ففض تسعة أعشارها في الأيتام والفقراء وأهل الحاجة، وأبقى منها ألفا لعله يجد من هو أحوج إليها منه، وظل محافظا على سيرته الأولى.

هذا نموذج مما كان عليه ولاة السلف الصالح رضوان الله عليهم، وكان فوق ذلك الإمام أبو عبيدة بن الجراح ﷺ وهو أمير المجاهدين، وأبو هريرة ﷺ، وسيدنا معاذ بن جبل وهو والي اليمن، وأبو موسى الأشعري ﷺ، وغيرهم من الولاة. فكانوا كالنجوم المشرقة في الآفاق، تضيء نهاراً على الناس، وتضيء ليلاً في ملكوت السموات بما يقومون به من ترتيل كلام الله تعالى، كان الرجل منهم يخدم نفسه في منزله، ويعلف دابته، ويكرم ضيفه، ولا خادم له، مع ما ملكهم الله فيه من الملك ونفوذ الكلمة، ساروا في الناس بسيرة رسول الله ﴿ﷺ﴾، حتى كأن المسلمين لم يفقدوه ﴿ﷺ﴾، فأشرقت بهم أنوار الحق في جميع الخلق، وإنا لفي شوق شديد إلى أن يوجد الله تعالى للمجتمع الإسلامي ولاة يتشبهون بالسلف الصالح، حتى يعيد الله لنا هذا المجد، ويكون معنا كما كان معهم.

وسنفتح بابا للتراجم أبين فيه أخلاق الولاة من السلف الصالح إن شاء الله تعالى.

الباب الثالث
الوسيلة الثالثة لنيل المجد الإسلامي

عودة الخلافة الإسلامية

الوسيلة الثالثة لنيل المجد الإسلامي
عودة الخلافة الإسلامية

الخلافة حصن المسلمين:

عرّف العلماء الإنسان بأنه حيوان ديني بالطبع، لأنه هو النوع الذي خلقه الله لعمارة الكون، ولينتفع بما خلقه سبحانه في عالم ملكه وملكوته، ولنيل تلك الكمالات التي يجب أن

يتعاون الإنسان بكل أفراد نوعه، ليقوم له كل واحد منهم بحاجته، إذ لا يمكنه أن يقوم لنفسه بكل ضرورياته فضلاً عن كمالياته.

لذلك كان ولابد للإنسان من قوة قاهرة تدفع عنه الظلم والتظالم عن المعاملات، تلك القوة إما أن تكون بقانون وضعي مجرد عن الصبغة الدينية تنفذه الحكومة، وأنواع الحكومات كثيرة جداً، وكلها لم يصل بها الإنسان إلى كماله المنشود له في الدنيا والآخرة.

أما الحكومة التي تحكم على الجسم والروح فهي الحكومة الدينية، وكل نبي من الأنبياء الذين سبقوا أتى بمقدار من الأحكام يناسب زمنه، حتى أتم الله الرسالة وختمها برسوله وحبيبه سيدنا مُحَمَّد ﴿ﷺ﴾، كمل الله للناس الدين الذي به يكونون في الدنيا كأنهم في الآخرة، إذا هم حافظوا على العمل به، لأن كل فرد من المسلمين يؤثر أخاه بالخير والرحمة والمساعدة، يحسن إليه إذا أساء ويصله إذا قطعه، ويعطيه إذا حرمه، وبذلك يكون كل مسلم كعضو عامل في جسد المجتمع الإنساني.

جمع القرآن ما به خير النفس والعقل والحس والجسم، فحكم على الروح حتى قامت للجسم بما يجب عليها له، وحكم على الجسم حتى فطر على طاعة الروح والاتحاد بها، وعلى المسارعة إلى تنفيذ ما تحبه الروح وترضاه، وبذلك صار المسلمون يمثلون الجسد الواحد في تعاطفهم وتوادهم.

والمسلمون إذا حافظوا على الكتاب والسنة أذل الله لهم أعداءهم، ومكن لهم في الأرض كما مكن لسلفنا الصالح، بالمحافظة على العمل بالشريعة المطهرة، وإن ما أصاب المجتمع الإنساني إنما هو من الإهمال في القيام بواجب الخلافة العظمى، لأن الخليفة يمثل مقام النبوة وهو قلب الجسد الإسلامي الذي يدير الجسم والجوارح، وبفقده يختل نظام الجسد.

والخليفة في الحقيقة هو المسيطر على الروح والجسم بتنفيذ أحكام القرآن والسنة وهو الإمام العدل، وما تمكن الأعداء من المسلمين إلا بفقد هذا الركن المهم، أو بعدم قيامه بما يجب

عليه للمسلمين، وإهمالهم فيما يجب عليهم له، وجسم يفقد قلبه كيف تصح له الحياة ؟ وإليك تحقق هذا الموضوع:

كان المسلمون أصحاب الطول والحول والقوة والمنعة، وكان العالم بأجمعه أتباعاً لهم، وكان هذا القلب قائما بما يجب عليه، حتى ضعف الخليفة بخروجه عن حدود الشريعة، واتخاذه أهل الغواية والطمع أعواناً، فمرض المجتمع الإسلامي بالتفرقة والاختلاف، مرضا مكن منه العدو الضعيف، إلى أن صارت الحال كما ترى من احتلال الأعداء أو استعبادهم أكثر الأمم الإسلامية، أو استبدال المسلمين بغيرهم، كماحصل في الأندلس وغيرها، أو بخروج بعض الأمم الإسلامية على بعض كما حصل بين الحجاز وسوريا وفلسطين والعراق بخروج حسين بن علي وأولاده على دولة الخلافة، وما اعتور المجتمع الإسلامي من خروج بعض من ولدوا في زمان انتشار العهارة، فإنهم نشروا الجحود، ومنهم من تنصر ودعا للنصرانية، ومنهم من مرق من الدين كما يمرق السهم من الرمية، نجد سبب ذلك كله فقد الإمام القائم لإعلاء كلمة الله، وإن المسلمين يجب عليهم أن يتداركوا الأمر بالعمل لعودة الخلافة ليعود لنا مجد سلفنا.

الخليفة:

الخليفة على هذا هو أكمل صورة لرسول الله، فهو: الذَّكَر المسلم العاقل الغيور لله ولرسوله ولجماعة المسلمين، المحب لمحاب الله ولمن يحبهم الله، المبغض لمغاضب الله ولمن يبغضهم الله، الموالي لمن والى الله تعالى، المعادي لمن عادى الله ورسوله بكفر أو ظلم أو معصية. وله على الأمة حقوق واجبة يعصون الله بتركها، وعليه للأمة حقوق لا يكون خليفة بتركها. قال رجل لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب: لو وجدنا فيك اعوجاجاً لقومناك بسيوفنا، فقال عمر ما معناه: الحمد لله الذي جعل في أمة مُحَّد من يقومني بسيفه إذا اعوججت. وما دامت الأمة الإسلامية على ما كان عليه السلف الصالح فالخليفة فرد من أفرادها، لا فرق بينه وبين أدنى مسلم، لا حق له على مسلم إلا على مرتكب إثماً يوجب حداً، والخليفة في هذا الوقت منفذ لأحكام الله، والحكم في الحقيقة لله.

والمسلمون مع سيد الرسل المعصوم الموحي إليه شركاء في الشئون العامة، قال تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾الشورى: ٣٨وقال تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾آل عمران: ١٥٩وكان الصحابة رضوان الله عنهم في الأمور العامة يسألون رسول الله ﴿ﷺ﴾، وقد سأل صحابي رسول الله في غزوة بدر عندما نزل في مكان قائلاً: يا رسول الله، هذا من عند الله ؟ أم هذا الرأي والمشورة ؟ فقال ﴿ﷺ﴾: « بل هو الرأيُ والمشورةُ ». فقال الصحابي: ننزل بمكان كذا، فأجابه رسول الله، وكان النصر والظفر. وفي وقعة أحد حيث أحب رسول الله أن يجاهد المشركين وهو في المدينة، فرأى الصحابة الخروج إلى أُحد فخرج رسول الله وخرجوا معه. وفي وقعة الأحزاب شاورهم رسول الله فاستحسن سلمان الفارسي حفر الخندق حول المدينة، فقبل منه رسول الله.

والحوادث في هذا الشأن كثيرة، وهذا هو رسول الله المعصوم، ولكن الله تعالى أحب أن يجعل للأمة منزلة عنده سبحانه، وأن يرفعها لديه باستعمال مواهبهم التي وهبها لهم، لهذا يجب أن تكون الأمة فوق كل شيء، وليس فوقها إلا الحق، وأن يكون لها الحق في خلع من شاءت خلعه من الخلفاء، ما دام لا يحرص على إعلاء كلمة الله، وحفظ سنن رسول الله، والقيام بحفظ ثغور المسلمين، ومعاداة أعدائهم، ولهم أن يُولُّوا من شاءوا من المسلمين بالإجماع بالشروط المشروعة، وهذا حق من حقوق الأمة، وأعني بالأمة التي تولي وتخلع: أهل الشورى والغيرة من أئمة الأمة وأولي رأيها، ومتى أجمع هؤلاء كان حكماً لازماً على كل مسلم.

الواجب على الخليفة:

الواجب على الخليفة — إذا تحقق عجزه عن حفظ الثغور، وإقامة الحدود، ودفع الأعداء المحتلين البلاد الإسلامية — أن يجمع أهل العلم والشورى، وأن يجعل نفسه فرداً منهم، وينتخب خليفة غيره، رحمة بنفسه، وحفظاً للدين والمجد. فإن لم يفعل فعلى الأمة أن تخلعه بعد أن تقيم عليه الحجة، حفظاً للدين ورحمة بالمسلمين، ورغبة في نيل ثواب الله، ومحافظة على سنة رسول الله.

الواجب على المسلمين:

الواجب على المسلمين في مثل هذه الفتن المضلة؛ أن يتعصبوا للحق جميعاً، وأن يغاروا لله ولرسوله وللسنة المطهرة، وأن يتداركوا الأمر بالاتحاد على خلع رجل لا يضر المسلمين خلعه،

تحفظاً من وقوع الفتن التي تفتح أبواب الشرور على المسلمين، وتمكن العدو من التداخل في شئونهم. وليس خلع خليفة بالبدع المضلة، وخصوصاً إذا كان المسلمون محاطين بالأعداء المستعبدين المستعمرين، فقد خلع المسلمون ذا النورين عثمان بن عفان ﵁، وخلع الإمام أبو موسى الأشعري عليًّاً، وخلع معاوية بن أبي سفيان الحسن بن عليٍّ، وخلع بنو أمية معاوية بن يزيد بن معاوية، وغيرهم. إلى أن كان آخر مخلوع رجل الغيرة وليّ الله عبد الحميد خان رحمه الله. هذا وإن الشريعة تخلع الوالد عن التصرف في أولاده إذا أسرف في ماله المملوك له شرعاً، وتولي من يصلح شرعاً، وهذا الوالد، فكيف بمن ولاَّه المسلمون ليقوم بإصلاحهم وصلاحهم ؟.

الحجة على ذلك: يعلم كل مسلم مطامع الأعداء الذين مزقوا المجتمع الإسلامي كل ممزق، وأجمعوا على أن يطفئوا نور الله بأفواههم بمعاهدة سيفر، وأعانوا برجالهم وأموالهم وسلاحهم اليونان على محو الخلافة وقوة الإسلام، ومزقوا جسد الأمة، فأعانوا رجلاً في الحجاز وألبسوه تاج الملك، وآخر في العراق، وآخر في الشام، وخدعوا في كل مجتمع من يدعون الانتساب إلى رسول الله ﴿ﷺ﴾، واستعملوهم آله لمحو الدين، وتمزيق المجتمع. حتى أظهر الله بقيته الباقية له من أنصار الله ورسوله وأنصار الخلافة الإسلامية وقتئذ، فقاموا لدفع شرور الأعداء عن بلادهم، فأيدهم الله ونصرهم وأمدهم بروح منه سبحانه، حتى تمكنوا من دفع العدو عن بلادهم، فظهر أن الخليفة المحصور في بيضة الإسلام والى الأعداء، وسارع لهم في تنجيز ما يحبون، وذل أمامهم فقبل مطالبهم، وأمضى عنه وكيله معاهدة سيفر، وأعلن خروج أنصار الله تعالى عن الحق، وهم الذين كانوا يقاتلون أعداء الله وأعداء رسول الله ﴿ﷺ﴾، ويدفعون عنه شرور الأعداء، وأفتى بقتلهم، وأعلن حربهم، وأرسل لهم جيوشاً، متحداً مع الأعداء مسالماً، راضياً عنهم، مسارعاً فيهم. وهذه الأعمال إذا ثبتت على أقل مسلم حُكِم عليه بالكفر، والله تعالى يقول: ﴿لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾البقرة: ١٢٤فكيف يكون الموالي لأعداء الله إماماً للناس ؟ أو خليفة لرسول الله ﴿ﷺ﴾ ؟ والله تعالى يقول: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ﴾الممتحنة: ١والموالي لعدو الله عدو الله.

المتعين الآن بعد إلغاء الخلافة:

أن ينتخب أهل الشورى والرأي والعصبة الإسلامية خليفة من أتقى المسلمين وأورعهم إن تيسر، ودليل ذلك من آثار السلف الصالح أن عمر بن عبد العزيز ﵁ طلب من أستاذه مُحَمَّد بن سهل أن يبين له صفات عمر بن الخطاب ليعمل بها، وأن يدله على أهل التقوى فيوليهم أعمال المسلمين. فكتب إليه: يا عمر، إذا أنا بينت لك ما كان عليه أمير المؤمنين وقمت بها، فأين الرجال الذين كانوا مع عمر ؟ يا عمر، سر في الناس بقدرهم في زمانهم، ولكني أدلك على خير: وَلِّ أمور المسلمين ذوي البيوت والشرف والمجد، فإنهم إن لم يمنعهم عن الدناءة دينهم؛ منعهم شرف أنفسهم.

والخليفة إنما هو حصن المسلمين ووالدهم، والشريعة لم توجب تعيينه من بيت مخصوص، ولو كان كذلك لتولى الأمر بعد رسول الله ﴿ﷺ﴾ العباس بن عبد المطلب، أو عليّ بن أبي طالب، وهُمَا مَنْ يعلم المسلمون قرابتهما من رسول الله ﴿ﷺ﴾، وتولاَّه رجل من بني تميم أمره رسول الله أن يصلي بالناس في حياته، فلما تبين للمسلمين أن رسول الله اختاره لدينهم اختاروه لدنياهم، وهو أبو بكر الصديق ﵁، فالخليفة مختار الأمة، وأمينها، ووليها بعد رسول الله، فالحق في تعيينه للأمة.

الأولى بالمسلمين الآن:

الأولى بكل مسلم أن يشكر الله، ويتقرب إليه سبحانه بالصدقات والقربات على ما أولانا من النصر على أعدائنا، وأن يؤيد أهلاً ومحلاً، وتستقبل الأمة الإسلامية كل ما رآه المسلمون خيراً لنا بقلب هاش باش حرصاً على الاتحاد وحفظ المجتمع الإسلامي.

وإني أسأل الله تعالى أن يجعل الرجال القائمين بتجديد الإسلام والسنة من الذين بشرنا الله بهم بقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ المائدة: ٥٤.

الإمام:

هو قيم الأمر المصلح له، ورسول الله ﴿ﷺ﴾ إمام الأئمة من الرسل الكرام قبله — عليه وعليهم الصلاة والسلام — ومن الخلفاء بعده، والخليفة إمام الرعية، ولفظة إمام لا تزال علما على الملك في بلاد اليمن، أو على المتقدم على الأمة. والاصطلاح الشرعي إبدال لفظة الإمام بالخليفة، لأن أصحاب رسول الله ﴿ﷺ﴾ كانوا يسمون الإمام أبا بكر الصديق خليفة رسول الله ﴿ﷺ﴾، وكانوا يسمون عمر بن الخطاب ﷺ خليفة خليفة رسول الله ﴿ﷺ﴾، حتى دعا رجل مصري عمرو بن العاص بيا أمير المؤمنين، فقال: هذه أولى بها خليفة خليفة رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾، وكتب بها إليه.

وقد شرحنا طريق تعيين الخليفة، والواجب عليه للأمة، وعلى الأمة له في كتاب (النور المبين) [1] ولكننا في سياق التفسير لا نخلى الموضوع من مزيد، قال رسول الله ﴿ﷺ﴾: (مَا رآهُ الْمُسْلِمُون حَسَناً فَهُوَ حَسَنٌ) [2].

معلوم أن الله تعالى يقول: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾ **الأنعام: ٣٨**. فما من شيء كان في عهد رسول الله أو يحدث بعده إلا وبينه القرآن المجيد، إما بالصريح الجلي، أو بآية جامعة تتضمن ما يحتاج المسلمون إليه إلى آخر الزمان كما قال الله تعالى: ﴿ **وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ** ﴾ **الشورى: ١٠**. هذه هي الآية الجامعة، ثم فتح لنا باب الاستنباط بقوله تعالى: ﴿ **وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ** ﴾ **النساء: ٨٣**وإلى الرسول أي إلى السنة، وإلى أولي الأمر العلماء الراسخون في العلم، سواء كانوا ظاهرين أو مستورين، وقد فهم قوم أن الأئمة هم الرسل عليهم السلام، ونعم، ولكن ذلك كان قبل إشراق

---

(1) يطلب من دار الكتاب الصوفي لنشر تراث الإمام المجدد السيد مُحَّد ماضي أبو العزائم 114 ش مجلس الشعب القاهرة.

(2) رواه أحمد في الجزء الأول صفحة 379 والحاكم في المستدرك 78/3 والزيلعي في نصب الراية 133/4 والسيوطي في الدر المنثور 156.

شمس رسول الله ﴿ﷺ﴾، لأن الرسل السابقين تنسخ شرائعهم، وترسل رسل أُخر، حتى أكرمنا الله برسوله ﴿ﷺ﴾ وأبقاه ﴿ﷺ﴾ فينا قال تعالى: ﴿ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ ﴾ [1].

وبقاؤه ﴿ﷺ﴾ فينا بتجديد أئمة الهدى، وقد غالى الإمامية حتى قالوا بعصمة الإمام، وليس الأمر كذلك في الحقيقة ونفس الأمر، والأمة لا تسلم تسليماً إلا لله ولرسوله، ثم تسلم لأصحاب رسول الله، ثم تأخذ وتترك من غيرهم، فإن العصمة للرسل صلوات الله وسلامه عليهم، والواجب على الأمة أن تبذل ما في الوسع في اختيار الخليفة، ثم تكون سياجاً حوله، تحفظه من الأعداء إعانة له على الحق، وترده إلى الحق إعانة للحق عليه، حتى يكون الحكم لله وحده، قال تعالى: ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾الأنعام: ٥٧.

وأمة تقبل من الخليفة ما ليس صريحاً في كتاب الله وسنة رسول الله، ولا مأخوذاً منهما بتأويل قريب، عرضت نفسها لالتفات الله عنها ومفارقة رسول الله ﴿ﷺ﴾ لها، وسعادة الأمة بدوام مواجهة الله تعالى لها، ووجود رسول الله فيها، ومتى فقدت الأمة رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ سلط الله عليهم أذل خلقه، فساموهم الخسف وجاسوا خلال ديارهم، وطعنوا في دينهم، واستعبدوهم في قعر دارهم بعد أن كانوا أرقاء يباعون في الأسواق، ولا أقوى من البرهان الحسي الملموس: كان السلف الصالح مجملاً بعزة الله وقوته وتمكينه إياهم في الأرض بالحق، محا الله بهم الكفر والظلم، وأذل بهم الجبابرة الطغاة من كسرى وقيصر وابن السماءين ملوك الهند والصين، وأراح عباده من ظلم الظالمين وإفساد المفسدين، حتى اختلف الخلف فتفرقوا شيعاً، قال تعالى: ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا إِلَّا مَن تَابَ ﴾مريم: ٥٩ - ٦٠. ونعم أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسلط الله عليهم من كانوا أرقاء تحت أيديهم.

من هم اليونان والأرمن والإنكليز وأسبانيا وغيرهم ممن جاسوا خلال الديار وطعنوا في الدين ؟ بل و من هم الإفرنج واليابان والأمريكان إلا سياط غضب الله على قوم التفتوا عن الله وعن رسوله ﴿ﷺ﴾ بإضاعة حدود الله وشرائعه، وكيف لا ؟ وقد أباحوا الزنا حتى صار مألوفاً

---

(1) سورة الحجرات آية 7.

والربا حتى صار معاملة، والخمر حتى صار تحفة للزائرين، وأقبح من هذا أنهم سارعوا في أعداء الله، بل وأعانوهم على محو آثار رسول الله ﴿ﷺ﴾ من العمل بالقرآن والسنة، ومن تأييد الخليفة الأعظم، ومن التشديد على حجاج بيت الله، ومن التفرقة بعمل الأحزاب لمساعدة ألد خصوم رسول الله، ومن التعاون على إطفاء نور الله بفصل البلاد الإسلامية من الخلافة، وجعلنا ممالك بسفك دماء المسلمين كما فعل في الحجاز وفلسطين والعراق وغيرها من بلاد الشرق، كل تلك البلايا وهم لا يحسون بآلامها ولا يدركون سببها.

سبب ذلك — يا قوم — الالتفات عن الله ورسوله، وإنا — والحمد لله — مهما اشتدت الأزمة، وضاقت الحلقات، لا نيأس من روح الله، ولا نقنط من رحمة الله، قال الله تعالى: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ ﴾الفرقان: ٧٠. وقال ﴿ﷺ﴾: (إنَّ الله لا يَجْمَعُ أُمَّتِي عَلَى ضَلاَلَةٍ) [1]، وهذا الحديث معجزة من معجزات رسول الله ﴿ﷺ﴾.

الخلافة العظمى للائتلاف لا للاختلاف:

لا يزال الحق والباطل يتنازعان منذ خلق الله الإنسان، وأول نزاع حصل قبل إبراز الإنسان لسببه؛ ما أجاب الله به الملائكةُ ربَّهم سبحانه وتعالى بقولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ ﴾البقرة: ٣٠فوضح الله لهم حكمة إيجاده لآدم، ثم قام الباطل ينازع الحق، ولم تكن المنازعة من الشيطان لباطل اتضح، ولكنه الباطل يدعو أهله للحسد المفسد، والضلال المهلك. ودامت تلك المنازعة، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون. دامت تلك المنازعة، فكان الباطل ينازع الحق، وأهل الباطل هم الكفار ومن تابعهم، وأهل الحق هم الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ومن تابعهم، والباطل وإن ظهر فإنه كما قال الله تعالى: ﴿ ٱعْلَمُوٓاْ

---

(1) رواه الترمذي في كتاب الفتن الباب 7 والدارمي في كتاب المقدمة الباب الثامن وأحمد في الجزء الخامس صفحة 145 والحاكم في المستدرك 1/ 115، 116 والدولابي في الكنى والأسماء 2/ 56 والسيوطي في جمع الجوامع 5102 والمتقى الهندي في كنز العمال 34461 والتبريزي في مشكاة المصابيح 173.

أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ ﴾ الحديد: ٢٠ قام كفار قريش، بل قام العالم أجمع ينازع الحق في ذات رسول الله ﴿ﷺ﴾ منفرداً، وهمّ الناس جميعاً ليطفئوا نور الله بأفواههم فأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون، ثم هجم الشيطان بخيله ورجله، وجعل الخلافة باب الشر ليفرق المجتمع الإسلامي، فكان ما كان بين الأنصار والمهاجرين، والحق لا يعدم نصيراً. وكلما أذل الله الباطل وأهله فتح الشيطان هذا الباب، والله سبحانه وتعالى هو القاهر فوق عباده، يؤيد الحق مع قلة أهله وضعفهم، ويمحق الباطل مع كثرة أهله وقوتهم ﴿ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا ﴾الإسراء: ٨١.

كانت تلك الحوادث بين المسلمين وبعضهم تؤجج نار الفتنة بين أهل المطامع والنفاق من أنصار الشيطان، والحق ثابت الأساس، نير النبراس، لا تقوى عليه عواصف العناد، إلى الحروب التترية، وكان المجتمع مخالفاً لما كان عليه السلف، فوكلهم الله إلى أنفسهم. ولكن الله أرحم بأهل التوحيد من أنفسهم، فمحا الباطل - سبحانه – وأحق الحق بكلماته، لكن حصلت التفرقة، وطمع أهل الحظوظ في السيادة والرياسة، فحصل الاختلاف وكثر أدعياء الخلافة، فهبت عاصفة الحروب الصليبية حتى كادت أن تفسد الأرض بعد إصلاحها، ولكن الله سبحانه غيور على كتابه ودينه إذا كره شيئاً غيره، فجمع القلوب، وأيد الحق، وأذل أهل الباطل، وبقيت الخلافة سلم الشيطان يستعمله للتفرقة والإفساد، حتى كثر الكلام فيها، ولم يرد أهل الباطل بهذا الكلام إلا المسارعة إلى إطفاء نور الحق بتمزيق الجسد الإسلامي، وضرب بعضه ببعض، ولكن جهلوا قوله سبحانه: ﴿ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ الحجر: ٩وكيف يرضى مسلم – ولو كثرت عصبيته وقويت شوكته – أن يمكن العدو منه بتفريق المجتمع ؟.. اللهم إلا إذا أراد الله أن يهلكه ومن معه، فإن قضاء الله لا مرد له.

كان الاختلاف في الخلافة بين جماعة المسلمين لحجج يقيمها كل فرد منهم، وكان الغالب منهم يدعى أنه أولى بها دينا ودنيا، ولكنا في زمان المتعرض لها يسعى في إطفاء نور الله

تعالى، لأنه قوته المتعصب بها وجيشه المعتمد عليه كفار يكيدون للإسلام والمسلمين، والله تعالى يقول: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ المائدة: ٥١.

الإمامة:

هي عبارة عن خلافة شخص من الأشخاص لرسول الله (ﷺ) في إقامة الأحكام الشرعية، وحفظ حوزة الملة على وجه يجب اتباعه على كافة الأمة، وأهل السنة أوجبوه علينا، فوجب تعيين الإمام علينا لدفع ضرر لا يندفع إلا به، لأن البلد إذا خلا عن رئيس قاهر يأمر بالطاعات؛ وينهى عن المنكر؛ ويدرأ بأس الظلمة عن المستضعفين؛ استحوذ عليهم الشيطان وفشا فيهم الفسوق والعصيان، وشاع الهرج والمرج. ودفع الضرر عن النفس بقدر الإمكان واجب بإجماع الأنبياء واتفاق العقلاء؛ فإن قيل: يحتمل مفاسد أيضاً، إذ ربما تستنكف الناس عن طاعته فيزداد الفساد، أو يستولي عليهم فيظلمهم، أو يحتاج لدفع المعارض وتقوية الرياسة إلى مزيد مال فيغتصبه منهم، قلنا: احتمالات مرجوحة، وترك الخير لأجل الشر القليل شر كثير.

وقد قام الصحابة رضوان الله عنهم بعد أن رُفِعَ رسول الله (ﷺ) إلى الرفيق الأعلى، فبايعوا سيدنا أبا بكر ﷺ بالإجماع بعد ما حصل بين الأنصار والمهاجرين، وهذا دليل على وجوبها علينا.

الواجب للإمام الأعظم على كل فرد من أفراد المسلمين وعلى جماعتهم:

الإمام الأعظم خليفة رسول الله (ﷺ)، وعليه أعظم واجب، لأنه مطالب بحقوق قدر ما على الأمة بأسرها، وكيف لا ؟ وهو مطالب بإقامة حدود الله تعالى، وبتنفيذ أحكام الله، ودفع المظالم عن المسلمين وأهل الذمة، وحفظ الثغور، وإحياء الأفراد بمادتي العلم الضروري والكمالي للحياة. وكما أن الواجب عليه عظيم ومسئوليته أعظم، فقد أوجب الله سبحانه وتعالى وأوجب رسول الله (ﷺ) على كل فرد من أفراد المسلمين وعلى جماعتهم للإمام واجبات، وقد حذرنا من الإهمال في القيام بها، فإنه كما تحصل المضرة بإهمال الإمام، فقد تكون المضرة أعظم بمخالفة أمره والتهاون بشأنه، فإن ذلك ربما فرق كلمة الجماعة وأكثر الأحزاب في المسلمين،

ومكن منهم عدوهم الشيطان الرجيم، وأدخل بينهم الدسائس والمفاسد من أعدائهم، والحوادث السابقة عبرة للمعتبر.

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ ﴾ النساء: ٥٩والذي عليه أكثر المفسرين أن أولي الأمر منا هو الإمام ونوابه ولاة الأمور، وهؤلاء علماء فقهاء، جعل الله طاعتهم طاعة لجنابه العلي ولرسوله ﴿ﷺ﴾، فالواجب على كل مسلم أن يطيع الله ورسوله وولاة الأمر، وأن تكون طاعته لولاة الأمر عن حب خالص لخير المسلمين جميعاً، وإخلاص في النصيحة لهم، ويتحقق أنه بطاعته لولاة الأمر ونصيحته لهم كأنه أحسن إلى

نفسه وإلى أخوته المؤمنين في الدنيا، وفاز برضاء الله سبحانه ورضاء رسوله ﴿ﷺ﴾ وبالنعيم الأبدي.

ولما كان القائمون بالأمر رجالاً منا جماعة المسلمين لم تثبت عصمتهم، ولكن لهم اجتهاد فيما لم يرد عنه نص صريح في الشريعة، ولا نظائر له في عمل أئمة الهدى، بقدر وضوح الدلالة، وطمأنينة القلوب، والتحرى أن يكون أقرب إلى الحق. فما على كل مسلم قضى عليه وال من ولاة المسلمين بما هو بريء منه بعد اجتهاده في الحكم إلا أن يتلقى ذلك راضياً بقضاء الله، داعياً لمن حكم عليه أن يوفقه الله للصواب، وإذا أداه اجتهاده إلى عمل ما يضر بصالح الأفراد أو الأمة فالأولى أن يتلقوا هذا الأمر بتسليم لقضاء الله وقدره، وبدعاء للأمير أن يبين الله له الحق في كل أعماله رحمة بالمسلمين، واجتماعاً لقلوبهم على إمامهم، والاجتهاد من جماعة المسلمين في نصيحة الأمير بطرقها المقبولة، ووسائلها المؤدية إلى الخير العام، من غير تنفير ولا تفرقة. حتى لو ظهر أن الأمير يقصد المضرة، فعلى المسلم أن يحسن ظنه، مفوضاً أمره لله خشية من تفرقة الجماعة، والتشنيع على الإمام، لأن ذلك يؤدي إلى التحزب والخروج عليه، فيكون المسلمون عاملين على إضعاف قوتهم، وذهاب سلطانهم، وتسليط عدوهم عليهم، وبذلك تهمل أحكام الله، وتتعدى حدوده سبحانه وتعالى، وفي ذلك هلاك للنفوس، وضياع للأموال، وخراب للعمران، ومحو للصناعات النافعة والعلوم المفيدة، وبذلك تتمكن الأعداء، فيكون جماعة المسلمين أذلاء بعد العزة، ومعلوم أن في عزة جماعة المسلمين وقوتهم ومنعتهم وقوة سلطانهم عز لكل فرد من أفراد

المسلمين أين كانوا وكيف كانوا،ووسعة لأرزاق كل فرد، وإعلاء لكلمة الله ولسنة رسول الله ﴿ﷺ﴾.

وجوب طاعة الأمير:

قال رسول الله ﴿ﷺ﴾: « من أطاعني فقد أطاعَ الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن يُطع الأمير فقد أطاعني، ومن يعص الأميرَ فقد عصاني، وإنما الإمامُ جُنَّةٌ يقاتَلُ من ورائِهِ ويُتَّقى به، فإن أمَرَ بتقوى الله وَعَدَلَ فإن له بذلك أجراً، وإن قال بغيرِهِ فإن عليه منه وزْراً » (1).

مفارقة الجماعة مفارقة للدين والخروج على الإمام خروج من الدين:

قال رسول الله ﴿ﷺ﴾: « من رأى من أميره شيئاً يكرهُهُ فَلْيَصْبِر، فإنه ليس أحد يفارق الجماعة شبراً فيموتُ إلا ماتَ مَيْتَةَ جَاهِلية » (2).

وقال أبو هريرة ﵁: « من خرج من الطاعةِ، وفارق الجماعة فمات؛ ماتَ ميتةَ جاهِلِيَّة. ومن قاتل تحت راية عَمِيَّةٍ، يغضبُ لعصبيةٍ، أو يدعو لعصبية، أو ينصرُ عصبيةً فَقُتِل؛ قُتِل قَتْلَةَ جاهِلِيَّة، ومن خرج على أُمتي بسيفه بضربُ بَرَّهَا وفاجرَهَا، ولا يتحاشى من مؤمنِها، ولا يفي لذي عهدٍ عهدَهُ، فليس مني ولستُ منه ».

الصبر على الإمام الظلوم خير من فتنة تدوم:

عن عوف بن مالك الأشجعي قال: قال رسول الله ﴿ﷺ﴾: « خيار أئمَّتِكُم الذين تُحبونهم ويُحِبُّونكم، وتُصَلُّونَ عليهم ويُصلَّون عليكم. وشِرَارُ أئمتِكُمْ الذين تَبْغَضُونَهم ويَبْغَضُونكُم، وتَلعَنونهم ويَلعنونكم. قال: قلنا: يا رسول الله أفلا نُنَابذُهُمْ عند ذلك ؟ قال: لا، ما أقاموا فيكم الصلاة، إلا من وُلِّيَ عليه والٍ فرآه يأتي شيئاً من معصيةِ اللهِ فلْيَكْرَهْ ما يأتي من معصية اللهِ ولا

(1) أخرجه البخاري ومسلم عن أبي هريرة في كتاب الإمارة.

(2) أخرجه النسائي في كتاب التحريم، وورد هذا الحديث بروايات أخرى عند البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي وأحمد.

يَنْـــزعَنَّ يَـــداً مـــن طاعـــةٍ الله »[1] وعـــن أم ســـلمة قالـــت: قـــال رســـول الله ﴿ﷺ﴾: « يكونُ عليكم أمراءُ تَعرفون وتنكرون، فمن أنكر فقد بَرِئ. ومن كَرِه فقد سَلِمَ، ولكن من رضى وتابع. قالوا: أفلا نُقَاتلُهم؟ قال: لا، مَا صَلُّوا» [2] وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال لنا رسول الله ﴿ﷺ﴾: « إنكم سَتَرَوْنَ بعدي أثرة وأمورا تُنْكِرُونها، قالوا: فما تأمُرُناَ يا رسولَ الله ؟ قال: أدُّوا إليهم حَقَّهُمْ، وسَلُوا اللهَ حَقَّكُمْ »[3]وسأل سلمة بن زيد الجعفي رسول الله ﴿ﷺ﴾ قال: « يا نبيَّ اللهِ، أرأيتَ إن قامتْ علينا أمراءُ يسألوننا حَقَّهُمْ، ويمنعوننا حَقَّنا، فما تأمُرُنا ؟ قال: اسمَعُوا وأطيعُوا، فإنَّ عليهم ما حُمِّلُوا وعليكم ما حُمِّلْتُمْ ».

رفض البيعة رفض للإيمان:

اتضح أن المقصود شرعاً من الخلافة هو تعظيم شعائر الله تعالى، وتنفيذ حدوده، وحفظ جماعة المسلمين من الفتن داخلاً وخارجاً، وتقرر أن تعيين الخليفة واجب على المسلمين، وظهر أن الخروج عن الإمام الأعظم خروج من الملة ورفض البيعة رفضٌ للإيمان، ودليل ذلك ما ورد عن سـيدنا عبـد الله بـن عمـر رضـي الله عنهمـا قـال: قـال رسـول الله ﴿ﷺ﴾: « من خَلعَ يداً من طاعةٍ لَقِيَ اللهَ يومَ القيامِة لا حُجَّةَ له، ومن ماتَ وليس في عنقِهِ بيعةٌ ماتَ ميتةَ جَاهِلِيَّةٍ » [4] وما ورد عن سيدنا أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾: «كانتُ بَنُو إسرائيلَ تَسوسُهم الأنبياءُ، كلما هلكَ نبيٌّ خلفه نَبِيٌّ، وإنه لا نبيَّ بعدي، وسيكونُ خلفاءُ فيكثرون، قالوا: فما تأمُرُنا ؟ قال: فُوا بيعةَ الأولِ فالأولِ، أعْطُوهُم حقهم فإن الله تعالى سائلهُم عَمَّا اسْتَرْعَاهُمْ » [5] وقال رسول الله ﴿ﷺ﴾: « آمرُكم بخمسٍ: بالجماعةِ، والسمعِ، والطاعةِ، والهجرة، والجهادِ في سبيل الله. وإن من خرج من الجماعةِ قيدَ شبرٍ فقد خَلَعَ رِبْقَة الإسْلامِ من عُنُقِهِ إلا أن يُراجعَ، ومن دعَا بدعوى الجاهليةِ فهو من جثاء جهنم وإن صَامَ

([1]) أخرجه مسلم في كتاب الإمارة، والترمذي في كتاب التفسير،والدرامى في الرق

(2) أخرجه مسلم في كتاب الإمارة، وأبو داود في السنن، والترمذي في الفتن وأحمد 295/6.

(3) أخرجه أحمد في المسند 384،387،433/1 والبخاري في المناقب والفتن، ومسلم في الإمارة، والترمذي في كتاب الفتن.

(4) أخرجه مسلم في كاب الإمارة

(5) أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء، ومسلم في الإمارة وابن ماجة في الجهاد، وأحمد في المسند 297/2.

وصَلَّى وزعم أنه مسلمٌ » [1] وكفى حجة قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾الأنعام: ١٥٩ فإذا كان سلب الإيمان محققاً لمن فرق كلمة المسلمين بوقوع الفتنة بينهم؛ فكيف يكون حال من أعان أهل الكفر بالله على محو الإسلام والمسلمين طمعاً في الإمارة ؟ وهو يجهل أنه إنما يسعى في إهلاك نفسه ودينه وإخوته المؤمنين. إنما استعملوه ليذل أنصاره ويضعف قوته، حتى إذا انفرد بعد إذلال قومه أذلوه، وتحققوا أنه خائن لا يؤمن، والظالم الذي يستعين بالولد على قتل أخيه يقتله خوفاً من غدره، وإن الذين شنع الله ورسوله عليهم هم الخارجون الذين خرجوا من المسلمين على الإمام الأعظم طمعاً في الخلافة، فكيف يكون تشنيع الله ورسوله على من أعان أهل الكفر على خليفة الله ورسوله وجماعة المسلمين ؟ أعتقد أن الشيطان يكره أن يعمل هذا العمل في إخوته الشياطين. وقد كثر في هذا الزمان الكلام في الخلافة من أعداء الإسلام والمسلمين ليغروا الجاهلين بدين الله طمعاً في إطفاء نور الله، ومن نكث فإنما ينكث على نفسه.

لا يكون الإمام إلا واحداً شرعاً:

نعم، لا يكون الإمام إلا واحداً لاتحاد الكلمة، وحفظ الدماء والأعراض، والتحرز من الأعداء، دليل ذلك قوله ﴿ﷺ﴾: « إذا بُويعَ لخليفتين فاقتلُوا الآخرَ منهما ». وقال ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾: « من أتاكم وأمرُكمُ جميعٌ على رجل واحدٍ يُريدُ أن يَشُقَّ عَصَاكُمْ، ويُفَرِّقَ جماعَتَكُمْ فاقتلوُه » وقال ﴿ﷺ﴾: « من بايَع إماماً فأعطاهُ صفقة يدِه وثمرةَ قلبِهِ فَلْيُطعْهُ إن استطاعَ، فإن جاءَ آخرُ ينازِعُهُ فاضربوا عنق الآخر » [2].

وجوب طاعة الإمام ما دام عاملاً بالكتاب والسنة:

---

(1) عند النسائي وكتاب التحريم بلفظ: (من خرج من الطاعة وفارق الجماعة... الحديث) وله روايات أخرى بلفظ: (من فارق الجماعة شبرا مات ميتة الجاهلية) البخاري في كتاب الفتن، والأحكام، ومسلم في الإمارة وأبو داود في السنة، والترمذي في الأدب، والدارمي في السير، وأحمد في المسند 1/ 275، 4/ 130، 5/ 180.

(2) أخرجه مسلم في كتاب الإمارة، وأبو داود في الفتن، والنسائي في البيعة، وابن ماجة في الفتن، وأحمد في المسند 2/ 161، 119.

يجب على كل مسلم أن يطيع الإمام قرشياً كان أو غير قرشي فإن الله يقول لسيدنا إبراهيم: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾البقرة: ١٢٤وقال ﴿ﷺ﴾: « إنْ أُمِّرَ عليكم عبدٌ مجدع يقودكم بِكِتَابِ اللهِ فاسمعُوا لَه وأطِيعُوا » [1].

وقال رسول الله ﴿ﷺ﴾: « اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبدٌ حبشيٌّ كأن رأسه زبيبة » [2] وما ورد من قوله ﴿ﷺ﴾: « الأئمةُ من قريشٍ » [3] فمقيد بقوله تعالى: ﴿ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ [4] والمراد بقريش هنا من جمله الله بالنسبين روحاً وجسماً لقوله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾: « سلمانُ منا أهلَ البيتِ » وقوله ﴿ﷺ﴾: « أدخلَ الإسلامُ بلالاً في نسبي، وأخرج الكفرُ أبا لهب من نسبي » وقد ولى رسول الله ﴿ﷺ﴾ رجلاً قرشياً على الزكاة ثم ذكره الله تعالى بالفاسق فقال سبحانه: ﴿ إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ ﴾ [5] وولى رسول الله ﴿ﷺ﴾ معاذ بن جبل وأبا موسى الأشعري وغيرهما من الأنصار ﵃، والحديث الشريف وإن كان عاماً إلا أن العام يخصص غيره. وقد ورد قوله ﴿ﷺ﴾: « الولاةُ من قريشٍ ما أطاعُوا الله واستقاموا » [6] والمعتبر شرعاً النسب الروحاني، ومعلوم أن طالب الولاية لا يولى، فإن سيدنا العباس بن عبد المطلب طلب من رسول الله ﴿ﷺ﴾ أن يوليه، فردّه بالحُسنَى.

---

(1) أخرجه مسلم في كتاب الإمارة، والحج، والترمذي في الجهاد، وابن ماجة في الجهاد، وأحمد في المسند 4/ 170، 5/ 581، 6/ 404، 403.

(2) أخرجه البخاري في كتاب الزكاة، والأذان، والأحكام، مناقب الأنصار، ومسلم في كتاب الإمارة والحج، والترمذي في كتاب الفتن، وابن ماجة في الجهاد.

(3) أخرجه أحمد في المسند 3/ 129، 183، 4/ 421.

(4) سورة البقرة آية 124.

(5) سورة الحجرات آية 6.

(6) ومن رواية أخرى عن عليٍّ أن رسول الله ﴿ﷺ﴾ قال: « ألا إن الأمراء من قريش ثلاثة ما أقاموا بثلاث: ما حكموا فعدلوا، وما عاهدوا فوفوا، وما استرحموا فرحموا، فمن لمن يقبل ذلك منهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين » رواه أبو يعلي على ما في مجمع الزوائد 5/ 191. وعند أحمد: « استقيموا لقريش ما استقاموا لكم » المسند 5/ 277.

دسائس الشيطان بتفرقة أهل الإيمان:

كم للشيطان من دسيسة بذرها في القلوب المريضة ليفرق كلمة المسلمين، وقد ذكر التاريخ حوادث جمة سفكت فيها الدماء البريئة، بما يلقيه لعنة الله عليه من الدسائس في موضوع الخلافة، ولا يزال لعنة الله عليه قاعداً على الصراط المستقيم. وإنا ليهمنا أن نبين دسائسه في هذا الزمان، سارع أعداء الله الكافرون أن يمزقوا جماعة المسلمين لمحو القوة الإسلامية، ولإطفاء نور الله تعالى، والله متم نوره رغم أنوفهم، فألقوا في قلوب بعض من لا خلاق لهم ممن ينتسبون إلى قريش أو إلى العرب، وخدعوهم بالأماني الباطلة ليعيدوا الخلافة لهم، لا حبا في الدين، ولا رغبة في إحياء سنة خير المرسلين صلوات الله وسلامه عليه، بل ليهلك بعض المسلمين ببعضهم، بغضاً في القرآن الذي هو حصن الله الأمين الماحق للكفر والضلال والظلم والبهتان، والله جل يدافع عن الذين آمنوا.

اجتهد أعداء الله تعالى في إفساد قلوب أهل الطمع، فسارعوا فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة.. وكذبوا.. فإن أهل الإيمان الكامل لا يرضون بالحياة الدنيا ولا يطمئنون بها، وإن الموت جوعاً أو قتلاً أحَب إليهم من الحياة في معصية الله ورسوله ﴿ﷺ﴾.

قام أعداء أنفسهم فاتخذوا أعداء الله أولياء من دون المؤمنين، وسلوا السيوف معهم على أهل الإيمان بالله، مع علمهم بأحكام القرآن، واعتقادهم بما يقصده أعداء الله من محو كتاب الله وسنة رسول الله ﴿ﷺ﴾، بل وإهلاك جماعة المسلمين، والله تعالى يقول: ﴿**لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ**﴾ المجادلة: ٢٢ ويقول سبحانه: ﴿**يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ**﴾الممتحنة: ١ ويقول سبحانه: ﴿**لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ**﴾آل عمران: ٢٨ وكم من آية في القرآن المجيد أقامت الحجة ووضحت المحجة، ومع هذه الآيات القرآنية والأحاديث ترى هذا النفر الذين حكم الله عليهم بالكفر يدعون أنهم أولى بالإمامة، وحجتهم أن أعداء الله تعالى يعينونهم على ذلك. وأن الله تعالى لا يهدي كيد الخائنين، وفي الخبر: « من أعانَ ظالماً سلطهُ اللهُ عليهِ ».

وها هي البلاد الإسلامية التي استولى عليها أهل أوربا بأمثال تلك الخدع قد ذلوا من أعانهم، بل محوا آثارهم، واستعبدوا المسلمين، وصارت الحيوانات والأرقاء أعز من المسلمين الأحرار، والله غالب على أمره، وكفى غيرة للعاقل ما يراه محسوساً. والله تعالى أسأل أن يحفظ جماعة المسلمين من المنافقين الذين يغرون الناس بظاهرهم، وقلوبهم مفعمة بالكفر، وستظهر تلك الحقائق في الدنيا قبل الآخرة، ويعض هؤلاء المنافقون أيديهم ندماً، وسيتمنون يوم القيامة أن يكونوا تراباً.

الإصرار شر الآراء:

جليُّ البيان أن إصابة الحقيقة في نفس الأمر لا سبيل إلى نيلها، وعلم المستقبل غيب عن كل إنسان، انفرد الله به دون غيره، قال الله تعالى مخبراً عن حبيبه ومصطفاه ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ﴾ **الأعراف: ١٨٨** وهذا من تعلم.. كيف بنا نحن ؟ ولم يبق لنا من الحجة البينة والمحجة الواضحة إلا أن ننظر في الأمور من حيث هي، نظرة يستبين بها حكم الله في الأرض، حتى يتضح لنا حكمته سبحانه بمحكم آيه، أو بأثر عن رسول الله ﴿ﷺ﴾ صح إسناده، أو بإجماع أئمة الهدى من أصحاب رسول الله ﴿ﷺ﴾، أو باستنباط أهل الخشية من الله من العلماء الربانيين، كاستنباط الفروع من الأصول. فإذا اتضحت لنا المحجة عملنا بعزيمة ماضية، بنية صادقة وإخلاص لله تعالى، فإذا عدمنا هذا الأصل وجبت المشورة. فقد يكون خير الآراء لحقير مهين نكرة، فلا نحتقر الرأي لصدوره من غير أهله، إنما تعرف الرجال بالحق، ولا يعرف الحق بالرجال. ومن عرف الحق بالرجال هلك،ومن عرف الرجال بالحق سعد، هذه القاعدة هي سر النجاة وبراق السعادة، وكم نرى مجتمعات هلكت بسبب إصرارها في إقتدائها بعظيم نشر ذكره، مع أن الله تعالى يبين لنا في كتابه العزيز كل البيان، فأمر سبحانه المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى بقوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ **آل عمران: ١٥٩** وكم من خير أظهره الله على ألسنة المجهولين فحُرِمه العالم، وكم من شر ظهر وانتشر بسبب إصرار مشهور نابه بين الناس قلده فيه العامة.

الرجوع إلى الحق أحق:

الحق الذي لا شبهة فيه هو ما ورد عن الله تعالى ورسوله ﴿ﷺ﴾، والواجب علينا أن نترك الإعجاب برأينا واتباع الهوى، ووقوفُنا عند العمل بالشريعة مهما كان ذلك ملائماً أو غير ملائم لنا، فإن الإعجاب بالرأي واتباع الهوى مع وضوح المحجة الشرعية — وإن كان فيه للإنسان لذة نفسانية — إلا أن تلك اللذة تنقلب ألما دائما حتى لو ظفر بقصده، فإن الرأي والهوى يعميان عيون العقل، فيقع الإنسان فيما حرمه الله تعالى. فإذا لم تستبن الحقيقة صريحة في الشريعة، فالأولى الأخذ بالمشورة، وكلما كثر أهل الشورى كان الحق مع الأكثرين، وكان الإقدام على العمل خيراً، فإن فاز العاملون نالوا السعادتين، وإن لم يفوزوا نالوا السعادة الدائمة في الدار الآخرة، وما من حادث من الأحداث يحدث إلا وله حكم في الشريعة صريح، أو نظير في أعمال السلف، أو يجعل الله للأمة نوراً يلهم به من شاء من عباده تستبين به الحقيقة، قال تعالى: ﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ﴾ النساء: ٨٣.

أنواع الرجال ثلاثة:

1- رجل جعل الله له نوراً، فهو يرى بهذا النور الحق وسبله بعد الاجتهاد والإخلاص، وهذا هو الذي ألهمه الله الخير، وأخص علامة له أنه إذا حكم اليوم برأيه بعد الاجتهاد فظهر له في الغد خطؤه قال: أنا مخطئ، ورجع إلى الحق. والمسلمون لا يعدمون مثل هذا في كل زمان، فقد يكون ظاهراً مشهوراً أو باطناً مستوراً. وقد يجب عليه أن يظهر نفسه ويبين خصوصيته، قال سيدنا يوسف الصديق: ﴿ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾يوسف: ٥٥، وبإظهاره نفسه للأمة سلم من العقوبة، وللأمة أن تمتحنه في ظاهره وباطنه مع الإخلاص، فتقبل أو لا تقبل.

2- ورجل يرى الرأي ويعجب به، ويأبى أن يقبل الحق ولو ظهر، وهذا النوع إن كان تعصبه لرأيه لوضوح الدلائل عنده وحرصه على الحق وغيرته له واعتقاده أن رأيه هو الحق، فذلك نرجو أن يعينه الله تعالى على الرجوع إلى الحق، وإن كان يعجب برأيه علوا وحبا في السيادة وعناداً للحق، فهذا شيطان مارد حفظ الله المسلمين منه.

3- ورجل ذيل دنئ النفس، لا علم له يخشى به الله، ولا شرف يمنعه عن الدنايا، وهذا كالمرض المعدي في الأمة، يسارع إلى من بيده السيف والمال فيكون معول هدم للمجد، إذا رأى السيف والمال في يد كافر اتصل به، وتحقق أن اتصاله به هو السعادة، ثم يقوم في الأمة فيثبط الهمم، وينشر الأراجيف، ويبين عورات المسلمين لأعدائهم، ومواطن ضعفهم لخصمهم. وهو المنافق، بينما تراه مع ذي سلطان بكليته، إذا به مع غيره من أعدائه عليه، وتراه يكره الحق وأهله وإن كانوا أقرب الناس إليه إن عاندهم الحظ، ويحب الباطل وأهله ولو كانوا أعداءه، إن أقبلت عليهم الدنيا. وهذا هو مرض المجتمع، الذي إن لم يدافع بالعلاج الشديد كالكي انتشر في الأمة فأذلها. وهذا يناله من الذل أكثر مما ينال الأمة، لأن العدو يستعمله معتقداً دناءته، فإذا استغنى عنه بادر بإهلاكه خوفاً منه أن يعين عليه عدواً، ومن أعان العدو على قومه كيف يُؤْمَن؟ !!.

نداء الفضيلة:

أيها المسلمون، أنتم جسد واحد، وكل فرد من المسلمين ككل عضو من الجسد، فتنبهوا لحفظ هذا الجسد، فإن أصغر عضو منه لو مرض أضر جميع الجسد، واعلموا أن الجسد ينبغي أن يتحفظ بكل قواه في أيام الأوبئة، فيحتمي من الشراب والطعام، ويكثر تطهير جسمه وثيابه وبيته، ويبعد عن المرضى، وكذلك المجتمع في هذا الوقت الحاضر قد أحاطت به أعداؤه الذين يرونا ولا نراهم كالشياطين، وقد انتشروا كالميكروبات، فيظهرون الرحمة، ويعلنون أنهم جاءوا لدفع المظالم عنا، ولانتشار الصنائع والعلوم والفنون بيننا، وليجعلونا أحراراً في بلادنا، فنستسلم ولا نحتاط لأنفسنا منهم، فإذا تمكنوا سلبوا منا البقية الباقية، واغتصبوا منا ميراثنا ونتائج جهودنا، واستبدلوا ذلك كله بانتشار العهارة والقمار والخمور والربا، ثم قبحوا فضائلنا، وذموا أشرافنا، وانتقموا من المتمسكين بديننا.

كل ذلك أمر هين لو أن الأمة يقظة، ولكن البلاء الأكبر أن الأمة عظم بلاؤها برجال نعتقد أنهم أبناء المسلمين، وتقوم حجة أعمالهم على أنهم شر من الكافرين، عشقوا تلك المخازي التي كان يتمنى المسلم أن يموت ولا يراها، فضلاً عن أن يعملها أو يحبها أو يستحسنها وينشرها، ولم يكفهم هذا حتى نشروا بين الأمة تلك المخازي فحسنوها زوراً وبهتاناً. فكم قالوا: مدنية أوربا وتوحش الشرق.. وحضارة أوربا وخمول الشرق.. وتقدم أوربا وجمود الشرق.. ورحمة أوربا وظلم الشرق.. لعل القارئ يعتقد أن أجهل جاهل يخجل أن يظهر عيوب أقاربه، وقد يدعوه شرفه أن يستحسن القبيح منهم، ويتعصب له بغضاً خشية أن ينسب القبيح لنفسه، وإن الرجل قد يكون قريبه فاجراً مجاهراً، فإذا سمع من يذكره غار له ومحا عنه هذا العيب. لعل قائلاً يقول: إن المستحسنين لمدنية أوربا يريدون أن يقوموا بالأمة. وهذا وهم باطل، لأن القيام بالأمة له وسائل.

ومن أراد أن يمكن العدو من أمته بتقبيح ما هي عليه فهو شر من العدو، ولا يشك العاقل أن هؤلاء وإن كانوا من أبناء المسلمين، إلا أن ماءهم من نجاسة الخمر والربا أو الكسب الحرام، ولك أن تتطرف فتقول: إنه من بذرة نجسة، وإلا فما الذي جعله يسارع في أعداء قومه ويستحسن ما هم عليه ؟ وحبيب العدو عدو، قال الله تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ﴾آل عمـــران: ٢٨ ومتى رأيت الجسم

الثقيل يميل إلى العلو ؟ لم يكتف هؤلاء بما نالهم من الذل والخزي بالمسارعة في أعدائهم، حتى هموا بضياع المجد.

القول للعمل لا للجدل:

قد آن وقت العمل، فأقلوا الكلام، لأن العامل لا يرجع خائباً أبداً، فإنه إما أن يظفر دينا ودنيا وأخرى، وإما أن يستريح ضميره بأنه سن سنة حسنة لقومه، فأرضى الله ورسوله وأحيا قلوب قومه.

من يتكلم ومن يسمع:

يجب أن يكون المتكلم ذا حجة قائمة، وسيرة عادلة، وخصوصية للقلوب جاذبة، وغيرة للحق، واحتقار للدنيا وزينتها، وحب لخير كل مسلم أين كان وكيف كان. هذا وإن كان خفيا دنيا فالواجب على المجتمع أن يطلبه أين كان – ولو في الأكواخ – فكم في الزوايا من خبايا. ولا يغتر المجتمع بالقصور، فكل الفجور في القصور. يتكلم أهل الشفقة والرحمة على الأمة الذين تبين لهم الحق والباطل، وعلموا دسائس الأعداء وقصودهم، من أكسبتهم التجارب خبرة، وعلم سير الأوائل عبرة، وسياسة الأعداء معرفة. يتكلم الذين يرجون ثواب الله يوم القيامة، ويخشونه ولا يخشون أحداً سواه. ويتكلم مع هؤلاء أهل بيوت المجد والشرف، من يخشون فقد سيادتهم وضياع مجدهم. ثم يتكلم من يطمع في حسن مستقبله، ويرجو السعادة لنفسه ومن بعده من عشيرته. هذه الأنواع هم رجال الشورى المتكلمون لخير الأمة، الذين يسرهم الاقتداء بذي الرأي الصائب. فإذا قامت الحجة ووضحت المحجة قاموا جميعاً عمالاً، كما قال رسول الله ﴿ﷺ﴾: « كلُّ واحدٍ من المسلمين على ثغرٍ من ثغورِ الإسلامِ، فإذا تهاوَنَ إخوانُك فَاشْدُدْ لئلاَّ يُؤْتَى الإسلامُ من قِبَلِكَ »[1].

العاملون:

(1) وفي رواية أبي داود (كتاب الجهاد) والدارمي (سير) والموطأ (في الجهاد): « فإذا تهاون أخوك فاشدد لئلا يدخل العدو من قبلك ».

هم « الصناع » لأنهم حصون الأمة الذين يخترعون ما أمرهم الله به من قوله تعالى: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ **الأنفال: ٦٠**وهم الركن الأول لنيل المجد.

« والزراع » الذين بهم حفظ العافية والأمن والصحة.

« والتجار » الذين بهم جلب ما لابد منه من تصريف ما لا حاجة إليه.

« والمعلمون » الذين يغرسون بذور الإيمان في قلوب النشء، ويبثون روح الاستقامة والفضائل في عامة الأمة.

« والولاة » في كل بلد وأعوانهم من الشرطة والعسس دفاعاً للمظالم، وحفظاً للأمن وخدمة للشريعة.

« والجند » الذين بهم حفظ هذا المجد وإعادته لأهله.

هؤلاء يجب أن يكونوا عمالاً غير متكلمين، فإن اشتغالهم بالكلام إضعاف للقوة وإذلال للأمة، وإن العدو يتمكن من الأمة إذا اشتغل هؤلاء بالكلام، فينتشرون بينهم في صورة صناع وزراع وتجار ومعلمين، وهذا هو الخراب العاجل.

اليقظة بشير الخير:

إنا نحمد الله تعالى حيث أظهر لنا جميعاً ما كنا في غفلة عنه من الاستسلام للعدو والرضا به، واستقباح عمل الحبيب والنفور منه، فتحققنا حبيبنا حقا وعدونا، وقد أعاننا الله تعالى – وهو المعين – فسلب من أهل الظلم ما كان مدهم به. فالواجب علينا أولاً أن نشكر الله تعالى، وأن نرجع إليه مخلصين له الدين، وأن نعمل بوصايا نبينا ﴿ﷺ﴾، وأن نحب لكل مسلم ما نحبه لأنفسنا، وأن نشعر بآلام المسلم أين كان وكيف كان، وأن نسارع بقدر استطاعتنا في نصرته وتأييده ما دام مظلوماً، لرد الظالم عنه. ويرد المسلم عن الظلم غيرة لله تعالى ولرسوله

(ﷺ)، ليكون الله معنا كما كان لسلفنا الماضي، قال سبحانه: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾محمد: ٧وقال (ﷺ): « اللهُ في عونِ العبدِ ما دامَ العبدُ في عونٍ أخِيهِ ».

المجتمع الإسلامي:

المجتمع الإسلامي يمثل رسول الله (ﷺ)، فمن الرحمة والعطف والغيرة لله والجرأة على أعداء الله واليقظة في كل الأحوال وضع الأشياء في مواضعها، فالمسلم صافي النية، حسن السريرة، لا يخدع أحداً ولكنه حذر يقظ لا ينخدع، لا يدخل في شأن من الشئون يقتضي خروجه منه إلى تعب وعناء، ومن قال إن المسلم لا يتبصر في الأمور ويستسلم حتى يمكن عدوه منه فقد أخطأ، ومن استسلم حتى مكن عدوه منه فليس بمسلم كامل، والمسلم لا يسلم تسليماً إلا لله ولرسوله (ﷺ)، وإذا تساهل ولدغ من جحر فإنه لا يلدغ من جحر ثانية، وإذا سمعت أن مؤمناً لدغ من جحر ولدغ منه مرة ثانية فقل: إنه ليس بمسلم كامل. ومن قرأ تاريخ المسلمين يعلم مقدار الحكمة العالية، والنفوس الفاضلة التي رفعها الدين الإسلامي حتى ارتقت عن عالم الملكوت الأعلى. أدهش المسلمُ المتمسك بدينه العالمَ أجمع، تراه مع كمال ثقته بالله وحسن رضاه عن الله ورحمته بالعالم أجمع؛ لا يسلم إلا لله، فيغضب لله، ويرضى لله، ويحب لله، ويكره لله. دام المسلمون على هذا حتى قهرهم الحظ والهوى، فتركوا وصايا رسول الله وأحكام الله، واستسلموا لحظوظهم، وخدعتهم الأمم الذين كانوا أرقاء تحت أيديهم، فانخدعوا لضعف الإيمان في قلوبهم، وسلطان الشهوة عليهم. لدغوا من جحر الإفرنج في الحروب الصليبية، فأيقظتهم تلك الحوادث يقظة جعلت التفرقة اجتماعاً، والتخاذل تعاوناً، والتنافس اتحاداً. ولكن بعد ذلك استسلم المسلمون، والإفرنج ثعالب. وأمنوا العدو، والعدو مخادع. حارب الإفرنج المسلمين بأسلحة الخداع والخبث، وبجيوش النفاق والأباطيل، حتى لم يبق شبر على الأرض إلا وسرى فيه فساد أوربا.

ندعي أننا مسلمون، ونلدغ من الجحر ونعود فنجلس بجواره، بل بعضنا يدخل يده فيه تسليماً للتمويهات والزخارف والتزوير. خدعنا الإفرنج حتى أخذوا كل شيء، وصاروا كالكلاب السعرانة، حرصوا على ما سلبوه، فتوهموا يقظة المجتمع الإسلامي بعد تلك الرقدة الطويلة، فأعدوا الآلات الجهنمية ليذلوا بها الشرق أو يمحقوا أهله، نام أصحاب المجد ناسين ما كان لهم، ونسى

المغتصب أنه مغتصب، وقام لمحق من اغتصب منه بدعوى أنه ليس أهلاً للخير لأنه ليس من طبقة الإنسان، ونفَّذ ما يحبه بالرشاشات والمقذوفات النارية، ومع ذلك فالشرقيون لا ينتبهون.

طالب الحق لا ييأس من نيله:

إن من العجب أن نرى المغتصبين يطمعون في جعل الناس المغصوبين عبيداً لهم، بعد أن سلبوا منهم كل شيء!! ونرى رجال الوطن يئسوا من عودة مجدهم، وطالب الحق لا يرضى حتى ينال جميع حقه. والظالم لابد أن ينتقم الله منه وأن يهلكه بعَدده وعُدده، لأن الله هو الحق سبحانه، وناصر الحق ﷻ.

المسلمون والاستعمار

قال الشاعر العربي:

ومهما تكن عند امرئ من خليقةٍ   وإن خالها تخفى على الناسِ تُعْلَمِ

مضى نصف قرن تقريباً والمسلمون كالأطفال الرضع، يغرهم بصيص النار وبريقها، ولين الثعبان ولونه، فيقربون منه. فكان المسلمون يتشدقون برحمة المستعمرين حتى على الحيوانات، وبصدقهم ووفائهم وبحسن معاملتهم، وببذل صناعاتهم وأموالهم لمنفعة الشرق رحمة بالشرق وأهله. ولو قرأنا مقالات جريدة المقطم وغيرها، وحفظنا أحاديث المعجبين بالمستعمرين، لاعتقدنا أن رجال الاستعمار هم تلاميذ عيسى بن مريم، الذي خلص العالم من خطيئة آدم بدمه.

ظن المسلمون أن المستعمرين نشروا الحرية والعدل بينهم.. ونعم.. ولكن نشروا الحرية في المفاسد، بما هدموا به فضائل الأخلاق وجمال العوائد من جيوش البغاة والخمور والربا، ومن ظلمات المبشرين الذين انتشروا لإفساد العقائد الحقة، وتمزيق الجامعة الإسلامية. واحتلوا الشرق ليعالجوه من مرضه، وليزيلوا عنه الظلم والجهل، فاستسلم الشرق لهم فكانوا — أعاذنا الله منهم — كسراب يحسبه الظمآن ماء، وإذا به لون الماء ولا ماء، ابتسموا في الوجوه، وقدموا البغاة والميسر والخمروالربا، حتى خدعوا المغرورين. ثم قاموا فاستعبدوا من خدعوهم، واستعبدوا بهم غيرهم،

وجهلوا قهر القهار المنتقم. وسينتقم الله منهم كما قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةً فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ ﴾ الأنعام: ٤٤.

الخلافة والمسلمون:

كشف الإسلام للإنسان حقيقته حتى سوى بين الأبيض منه والأسود، حيث لم يجعل لإنسان على آخر فضلاً إلا بتقوى الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾الحجرات: ١٣وقال (ﷺ): « المسلمُونَ متكافِئُونَ يسعى بِذِمَّتِهِمْ أدناهم على أعلاهم، وهم يدٌ على مَنْ سِوَاهُمْ » وقال صلوات الله عليه وسلامه: « المسلمون كالجسدِ الواحدِ، إذا اشتكَى منه عضوٌ تداعى له سائرُ الجسدِ بالسهرِ والحُمَّى » فلم يَعتبر الإسلام نسباً ولم يفضل ولداً لفضل أبيه، قال تعالى: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ ﴾ المؤمنون: ١٠١فليس فوق المسلم إلا الله تعالى، وقال عليّ في الحديث الطويل: فإن المرء المؤمن كالقادح الياسر ينتظر إحدى الفوزتين من قداحه. ما لم يغش دناءة تظهر فيخشع لها وتغرى بها لئام الناس. والفالح الناجح والياسر الرابح والمسلم الكامل لا يذل إلا للحق.

الإسلام والسياسة:

السياسة الحقة قوة للإسلام خادمة له، ما دامت مآخذها من أحكامه بحسب استنباط أهل التقوى القائمين لله بالحجة، فإن مداراة الناس سياسة، والخديعة في الجهاد سياسة، وكشف غور الحقائق بالرأي والتدبير سياسة، واستنتاج بعض الوسائل المبلغة للقصد سياسة، كما أن كل عمل يعمله الداعي إلى الله تعالى لرجوع الناس من المعصية إلى الطاعة سياسة حسنة (بدعة حسنة). أما السياسة التي أسسها أرسطو وشيعته وهي جعل الباطل حقاً، والمكر السيئ لسلب الأخلاق الفاضلة من الأمم والأموال والأملاك بالقوة القاهرة، فهي السياسة المقبوحة التي هي ضد الإسلام، ومحو السلام ومحاربة الملك العلام، وإظهار الفساد في البر والبحر للتكبر في الأرض بغير الحق.

الباب الرابع
الوسيلة الرابعة لنيل المجد الإسلامي

العدل والحرية

الفصل الأول: العدل

من طلب الملك بالاعتساف أضاعه:

إن الله خلق الإنسان وسخر له كل شيء، فهو من حيث رتبته التي هو بها في الوجود إنسان لا فرق بين أي فرد منه وآخر، لأن كل إنسان طويل القامة عريض الأظافر ضاحك بالقوة، فلا فضل لأبيض على أسود، ولا لعربي على عجمي إلا بما قدره الله تعالى به من العلم والتقوى والنفع لبني الإنسان. ولكن جهل الإنسان حقيقته، ويرى لنفسه على غيره حقوقاً ليست له، مغروراً بما يعطيه الله من القوة أو الأموال أو العصبة، فيستعمل نعم الله تعالى فيما يغضبه، ويسعى في الأرض فساداً متسلطاً على أفراد نوعه، جاهلاً بقدره، كما فعل فرعون ونمروذ وغيرهما ممن ظلموا أنفسهم بمحاربة الله تعالى، فظلموا العباد وتكبروا حتى قال فرعون: أنا ربكم الأعلى، وكذب. ولا تزال تلك النفوس الخبيثة تتوارث تلك القبائح، وتنسى قهر المنتقم القهار بمن رفعوا أنفسهم عن رتبة الإنسان، فجعلوا أنفسهم أربابا من دون الله.

الإنسان ابن آدم وآدم من الطين، ولا شرف إلا بالتقوى والإحسان والرحمة، ولكن الإنسان جهل الحق وجهل قدر نفسه، فظن أن الشرف بالقوة والسلاح والظلم وإزهاق الأرواح، وتحقق أنه يملك الملك إذا قهر العباد بتمزيق الجلود بمقذوفات النيران، وتكسير الرؤوس بالعصى والأحجار، وقهر النفوس بسلب النعمة من الأيدي. وجهل الإنسان.. لأنه بذلك يحارب القوي القهار المنتقم الجبار. والإنسان وإن ملك بهذا الظلم، وتمكن بهذا القهر، وفرح بما نال فهو جاهل بالمآل، لأن الملك لله الواحد القهار، وإنما يهبه سبحانه وتعالى لمن يشاء، وينزعه ممن يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء، وليس من مَلَكَ بالقوة والقهر والظلم بِمَلِكٍ في الحقيقة ونفس الأمر، ولكنه على شفا جرف هار، لأن الحكم العدل الذي خلق الإنسان حراً مريداً، وسخر له كل شيء، يكره أن يظلم الإنسان إنساناً أو يستعبده، ومتى ظلمت أمة أمة واستعبدتها سلط الله على الأمة الظالمة من يستعبدها ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ﴾ **الفتح: ٢٣.**

كيف يملك الإنسان الأجسام بالانتقام والقلوب تبغضه ؟ أم كيف يرى الإنسان إنساناً نظيره يظلمه ويتحكم فيه ويسلبه كمالياته ولا يسوى بينه وبينه فيما خلقه الله له ويرضى عنه ؟ أنا علي يقين أن الجسد لابد له من قلب يمده ويستمد منه، ولابد لذلك القلب من أعوان وأنصار حتى يتقوى الجسد ويعيش في صفاء ومسرة. وكذلك المجتمع لابد له من قلب هو الخليفة، ولابد

له من أعوان هم الوزراء والعمال، ولابد له من أنصارهم الجيوش والصناع والزراع والتجار، وكل فرد من هؤلاء هو ككل عضو من الجسد بالنسبة للقلب، فلا فضل للخليفة على أقل عامل إلا بمقدار ما يقوم به من العمل بكتاب الله وسنة رسول الله، وإصلاح المجتمع، مع الرحمة بكل فرد من أفراد المسلمين، والنظر إليهم بعين المساواة، ما لم يقع أحدهم فيما يغضب الله أو يخالف سنة رسوله، وعند ذلك فإنما هي حدود الله وأحكامه تنفذ، ويكون الخليفة عندها منفذاً لأحكام الله، نائباً عن رسول الله ﴿ﷺ﴾، وبذلك يدوم الملك ويبقى، ويدوم المجد ويتجدد، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ الرعد: ١١.

وكل أمة قهرت غيرها بالحيلة أو القوة، وسلبت حقوق الأمة ومزاياها وظنت أنها ملكت فقد كذبت، لأن الملك من ملك القلوب بالعدل والرحمة، لا من ملك الأبدان بالعنف والقوة، وكيف لا ؟ وإن الحيوانات المفترسة قد يملكها الإنسان بالقهر، ولكنها تنتهز فرصة التخلص، فإذا تخلصت فرت إلى الحرية والإرادة مفترسة من عارضها، وهي حيوانات يقهرها الإنسان وتأبى، فكيف يقهر الإنسان أبناء نوعه ويخضعهم له مع أنه يرى نفسه فوقهم درجة، وأولى منهم بخيرات بلادهم، أيحق السلام من غير رحمة وعدل ؟ ذلك ما لا يتصوره أهل العقل ولا يقبله أهل العقل ولا يقبله أهل الفكر.

وكم دانت دولة على غيرها بالقوة القاهرة، فما فرحت بالملك إلا وأتاها العذاب من حيث لا تحتسب، فأصبحت لا ترى إلا مساكنهم. وخير الملك ما أسس على العدل والمساواة والحرية، وإن الخلق لينظرون إلى الأقوال والأعمال الظاهرة، ولكن الخلاق العظيم ينظر إلى القصود والنوايا، متى أراد أن ينزع الملك من دولة سلبت من قلوب أهلها الرحمة بخلقه، والشفقة على عباده، فظلموا وتكبروا في الأرض بغير الحق، فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر، أعوذ بالله من سَلب النعمة، ومن الغرور بالقوة، ومن قصد الشر بعباد الله. وكم من دولة ارتفعت حتى ملكت الأرض شرقاً وغرباً، وظلمت العباد انتقاماً وظلماً، فصب عليهم المنتقم القهار النقم من السماء والأرض، وفرق كلمتهم، وألقى بينهم العداوة والبغضاء، فبادوا كما باد فرعون ونمروذ وبابل وآشور وملك اسكندر وملك الروم، والملك لله الواحد القهار، يهب الملك بفضله وينزعه بعدله، لا معقب

لحكمه، وتلك سنة الله في خلقه، قال الله تعالى: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾القصص: ٥ - ٦.

ليس المَلك من ملك الأجسام:

لا ينسى الإنسان ماله من الحقوق وإن ترك المطالبة بها، ولا ينام الليل المظلوم مطمئن القلب وإن أظهر للظالم أنه مواليه، فإن كل مظلمة تعتري الإنسان دون حياته، فإذا علم أن الظالم يفقده حياته إذا طالبه بحقه يحرص على الحياة ولو في شظف العيش، متربصاً الدوائر بالظالم، حتى إذا تعدت يد الظالم إلى الدين أو الحياة صار الضعف قوة، والجبن جرأة، والأمل يأساً، وتبدلت الغفلة ذكراً.

وقد ملك المستعمرون أجسام الملايين من المسلمين، ورأوا كثيراً منهم يترددون عليهم ويخلصون لهم، ويظهرون لهم الولاء. وربما بينوا لهم عورات إخوانهم المسلمين ووجه ضعف المجتمع، فتطمئن قلوب القوم، ويعتقدون أن المجتمع تفكك من كل جهة، ولم تبق فيه واجهة واحدة تجمعه، وأخذوا يحتقرون العوائد والأخلاق والآداب، ويمحون الفنون والصناعات، ويضعون اليد الحديدية على كل المرافق والمنافع، سعياً وراء سلب الحياة الاجتماعية القومية والشعور الوطني، لتصبح الأمة كالحيوانات الداجنة، يقدم لهم القوم ما فيه مصلحتهم، كما يقدم صاحب الحيوانات الداجنة القوت والماء لها خدمة لمصلحته لينتفع بها، وهي لا تشعر بمستقبلها، كذلك يفعل المستعمرون بالأمم التي استعبدوها. ولهم في ذلك ضروب من السياسة، كالتقرب إلى بعض رجال الدين الذين نالوا الشهرة بما لآبائهم من الشهرة الدينية، فيخدعونهم كما يخدع الصياد الحمام برمي الحبوب، وكرفعة السفلة الذين شنع الله عليهم بقوله: ﴿وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا ﴾يونس: ٧ وكتعيين من ليسوا من الأمة وليسوا منهم في إدارة شئون الأمة ليذلوهم، وكوعد بعض من لا خلاق لهم بالمساعدة والرقي، وكانتشار المبشرين ليفسدوا أخلاق البسطاء، وكالتصريح بانتشار الخمر، وإباحة الزنا، وشرب الحشيش، والميسر (القمار). وكل تلك الحقائق ثابتة، وهي كالسيل

الجارف الذي يجعل الأمة أقل من الحيوانات الداجنة، لأن العقول إذا سلبت أصبح الرجل عدواً لأخيه.

العدل أساس الملك:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ﴾الرعد: ١١ومعنى ذلك أنه سبحانه وتعالى افتتح إيجاد الإنسان بالمحبة والرحمة، فأحب أن يعرف فخلق الخلق ليعرفوه، ويعبدوه، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾الذاريات: ٥٦. والمعنى ليعرفوني بآثار قدرتي وإحساني وفضلي وحناني، فيخصوني بالعبادة دون غيري. ثم سبقت رحمته غضبه فعم العالم برحمته، وسخر لهم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه رحمة وفضلاً. فإذا جهلوا جميعاً حكمة إيجادهم وإمدادهم صبر سبحانه وحلم ليتذكروا فيتوبون، فمن الناس من يستدرجهم سبحانه كما استدرج أوربا فسلب منهم الإيمان والرحمة، فجعلهم عبيداً للمادة لها يعملون وبها يعاملون غيرهم، قال تعالى: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ﴾الحشر: ١٩لا الكثير يقنعهم ولا القليل يشبعهم. وعباد المادة – أعاذنا الله من الجحود – سلبت من قلوبهم الرحمة فعثوا في الأرض فساداً، وصرفوا ما وهبه الله لهم من العقل والفكر في اختراع ما به إهلاك العالم، من المقذوفات الجهنمية ومن الزخارف الشيطانية، ليستعبدوا عباد الله، وليسلبوا الحياة التي وهبها الله محاربة له سبحانه، وبغضا لمن يحبهم من الأنبياء والرسل والمرشدين، وما يحبه سبحانه من العدل والرحمة والإحسان، فأصبحنا لا نرى في العالم ذا عرق ينبض إلا وهو في أشد الألم من سيطرة عُبَّاد المادة الذين عرضوا أنفسهم لعاجل نقمة الله تعالى وسريع عقوبته، من الأوربيين والأمريكيين.

الظلم مرتعه وخيم، بالعدل يدوم الملك ولو مع الكفر، والظلم يمحق الملك ولو مع الإيمان، وإن ظن الجاهل بأسرار الكون وحكمة إيجاده — لقصر عقله — أن الظلمة لا يزالون فإن الحقائق تكذبه، ومن نظر بعينه في تواريخ القرون السابقة وما فعل الله بالأمم الجاهلية والأمم المبدلة والأمم المضلة؛ يحكم يقيناً أن كل أمة ظلمت محقت.

وها نحن الآن نرى بأعيننا أمما شمخت بأنوفها إلى منافسة الربوبية؛ مما أعدته من العدة والعدد، ومن القوة والمدد، بل طارت في الهواء وغاصت في أجواف البحار، واستخدمت العناصر الكونية من هواء ونار وكهرباء، فلم تمض عشية أو ضحاها إلا وعاجل نقمة الحكم العدل الرحمن الرحيم استأصلتهم مثل ألمانيا وروسيا والنمسا واليونان والأرمن، وها نحن نرى بأعيننا بقية الأمم الذين ادعوا الربوبية واعتمدوا على المادة جحوداً بالله، ونظروا إلى العالم أجمع بعين الازدراء معتقدين أنهم فوق العالم، وأن العالم جميعه يجب أن يكون مستعبداً لهم، لأنهم آلهة

يُعبدون من دون الله، وقد ضربهم الله ببعضهم ضربة جعلت الحليم منهم سفيهاً، والعاقل محتاراً، والآمن خائفاً، مثل إنجلترا وفرنسا وإيطاليا وأسبانيا وأمريكا. والملك لله الواحد القهار يهبه لمن يشاء، فإذا ظلم الظالم عباده نزعه منه إلى مَن يشاء، قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾ [1].

الملك العادل من مَلَك بالدين:

اعلم أن راكب الأسد مهيب، وقلبه يحترق خوفاً، لأنه يحرص على ما اعتاده من تعظيم الناس له، وما فاز به من تحصيل أموالهم، ولا يأمن صولة الأسد التي تمزق عظامه، لأنه عدوه وغذاؤه، فلا هو يصبر عما اعتاده، ولا هو آمن على حياته. كذلك من ملك من ليسوا له وليس منهم، واستعان بهم بالقوة القاهرة أو بالحزم والسياسة فإنه وراكب الأسد سواء، يهابه الناس جميعاً بما له من القوة والعدد والعدة، وعدده وعدته وقوته هي في الحقيقة عليه لا له، وعزه هذا ذل، ولذته ألم. والأجسام إذا مرضت كرهت الحلو من الطعام، وتلذذت بالمر منه، فكذلك النفوس لها أمراض تتلذذ فيها بالسيادة التي تنالها بقهر الخلق، ومعصية الحق، وكل سيادة تنال بالظلم يعقبها العذاب والهلاك. قال ابن المقفع: اعلم أن الملوك ثلاثة: ملك دين، وملك حزم، وملك هوى.

فأما ملك الدين فإنه إذا أقام لأهله دينهم، وكان دينهم هو الذي يعطيهم الذي لهم، ويلحق بهم الذي عليهم، أرضاهم ذلك وأنزل الساخط منهم بمنزلة الراضي في الإقرار والتسليم.

---

(1) سورة الأنعام آية 61.

وأما ملك الحزم فإنه يقوم به الأمر ولا يسلم من الطعن والسخط، ولن يضر طعن الذليل مع حزم القوى. وأما ملك الهوى فلهو ساعة ودمار دهر.

إنما الملك من ملك بالدين، ولا دين إلا ما وسع العالم عقيدة وعبادة ومعاملة وأخلاقاً، فإن المجتمع إذا عومل بالدين خضع قلباً وقالباً، لأنه يرى خضوعه للحق

لا للخلق، ويرى أن الملك الحقيقي هو الله تعالى، وأن هذا الإنسان الجالس على سرير الملك إنما هو منفذ لما يحبه الله، فيسعد به جميع الخلق، وليس ثمة دين استوفى كتابه المقدس، وبيان الرسول الذي جاء به جميع ما لابد منه للفرد والمجتمع عقيدة وعبادة ومعاملة وأخلاقاً وتدبيراً للنفس والمجتمعات على ملاءمته لكل زمان ومكان من حيث استنباط الأحكام لكل الحوادث التي يقتضيها رقى الإنسان إلا دين الإسلام، وهذا حكم سلم له العقل، فإن الأديان قبل الإسلام محصورة في التوراة والإنجيل، وسفر الثالوث في التوراة قاصر على ما يتعلق بالأحوال الشخصية غير مستوفي ما لابد للفرد منه، وللعائلة وللمجتمع في كل الأنواع التي لابد منها لبني الإنسان.

أما غير هذين الكتابين فكانت عقائد باطلة، وأحكام بالهوى والحظ، حتى جاء الإسلام وعامل الناس بمقتضى الحق، فسعد العالم أجمع به، وإن أساس قوانين فرنسا وغيرها مأخوذ من مذهب الإمام مالك فيما يتعلق بالقسم المدني، فكيف يمكن أن يذل مجتمع يعلم حق العلم أن له ديناً بين له سبل الخيرات في الدنيا والآخرة، ويسر له سبل السعادتين إذا حافظ على العمل به، ثم يذل لقوة ملكته بالقهر أو بالسياسة تحكم عليه بغير دينه الحق بضوابط وضعتها لا تسكن إليها النفس، ولا يطمئن لها القلب، ولا يستريح بها الجسم، ويا ليتهم لما أن تسلطوا هذا التسلط حفظوا للناس دينهم وعوائدهم، وجعلوهم أحراراً في بلادهم، ولكنهم تدخلوا فغيروا الدين والعوائد والصناعات والفنون، وكيف بعد ذلك يدوم الملك أو يصفو ؟!.

المُلك لا يدوم مع الظلم:

والقوة أين حلت أضرت، إلا في أهل التقوى. ترى القوي من الرجال يحتقر غيره من الضعفاء، فيستعبد أهل الضعف ويظلمهم، ويغتر بقوته، فلا يلبث إلا وقد أضعفته الأمراض، أو أذلته الشيخوخة، فيستعبده أضعف الضعفاء، وكذلك الدول تغتر بآلاتها وأدواتها وفنونها وصناعاتها

فتستعبد الأمم حتى تكون نسبة الرجل منهم إلى من استعبدوهم كنسبة الواحد إلى المائة، ويقوى بهم الغرور حتى يروا من استعبدوهم كأنهم نوع سافل لا يعتني بهم لغرورهم بالقوة، فلا يلبثون إلا وقد سلط الله عليهم من هو أقوى منهم من مرض داخلي يجعل الحليم منهم حيراناً، أو عدو قاهر يتطاحنون معه في ميدان الدمار والهلاك، فيصبحون ولا ترى إلا مساكنهم جميعاً، وترتد بقيتهم فيكونون خدمة عند من استعبدوهم، وهي سنة الكون.

وما طار طير وارتفع   إلا كما طار وقع

والملك لا يدوم مع الكفر بالله، ولا بقاء له مع الظلم، وقد دام ملك الفراعنة أكثر من خمسين قرناً، حتى ظلموا بني إسرائيل، فأغرقهم الله تعالى ومحقهم من على وجه الأرض، وكم من دولة ارتفعت ثم ظلمت، فمحا الله آثارها، وأبقى خربات تدل على ما كان لهم من المجد.

القرآن دستور الحق الذي يملأ الأرض بالعدل:

الدستور: كلمة فارسية معناها الدفتر الذي يجمع فيه قوانين الملك وضوابطه، لتطمئن قلوب الأمة وتنفذ ما فيه بصفتهم عمالا لها في تنفيذه، وقد توسع فيه الناس حتى استعملوه في الوزير الذي يدبر أمر الملك، وفي الاستئذان للدخول على الأكابر، والدستور على هذا هو الضابط الذي يجب أن ينفذ على الأمة لتكون أمة حرة سعيدة آمنة على نفسها من الثورات الداخلية، ومن هجمات الأمم الأجنبية، الدستور هو الذي يجعل هيئتي الأمة الحاكمة والمحكومة كأعضاء الجسد الواحد يسعى كل عضو لجلب الخير ودفع الضرر.

يجعل الأمة لا تخاف إلا الله تعالى، ولا تخشى ظالماً يحدث فيها الظلم والتظالم، فيسلب منها الحرية والمساواة، بل تكون أمة قوية حرة عاملة بالقرآن، كما قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ: إن الناس ولدتهم أمهم أحراراً. وهذا الدستور الذي تبلغ به الأمة هذا الشرف، وتنال به الحياة الفاضلة، هو القرآن الشريف، الذي أخذ به الصحابة والتابعون، فملأوا الأرض قسطاً وعدلاً، وقد نشر تلك المبادئ ابن رشد في فرنسا، فخرجوا من الظلمات إلى النور، وقد ثبت في التاريخ أن القانون الفرنسي — إلا بعض مواد منه — مأخوذ من مذهب المالكية بإرشاد ابن رشد في فرنسا، ولما أن أبى القسس أن ينشروه خدعوهم بأنهم أخذوه من القانون الروماني، مع

أن الرومانيين كانت الأحكام عندهم بحسب المصلحة من المنفعة لا بحسب العدل والإنصاف، ومن أنكر علينا ذلك فها نحن في القرن العشرين كما يقولون، قرن الحضارة والمدنية والرحمة بالحيوانات، ومحاربة ألمانيا من تخليص العالم من ظلمها، ولتحرير الشعوب.

ونرى العدل الذي تريده إنكلترا وغيرها من الأمم هو ما فيه مصلحتها ونفعها، ولو أهلك الحرث والنسل، فهي تجاهر بهذا في مصر وفي غيرها من بلاد الشرق التي احتلتها، فإنها تقهر الأمة على ما فيه مصلحتها، ولو بفساد العرض والدين والمال، فالعدل عندهم الاشتراك مع اليونان على ظلم إخواننا في الأناضول، فأفسدوا أرضهم، وسفكوا دماءهم، وأحرقوا بلادهم ظلماً، فقاموا يدفعون عدوهم عنهم رحمة بالضعفاء، وحفظاً للدماء، فأعانتهم إنكلترا بالنار والقوة، ثم أرسلت جيشاً خفياً يفسد في داخليات البلاد بالفتن والتفرقة، ومثل هؤلاء لو وجدوا في بلادهم لأحرقوهم بالنار، أو لو وجدوا بين أمة احتلوها لأهلكوهم، فإذا قامت رجال الترك ليبعدوا المفسدين في داخل بلادهم شنعوا عليهم، واستنصروا بالدول عليهم، واسترحموا القلوب، وهم يرون بأعينهم ما يعمله الجيش اليوناني في البلاد الإسلامية من هتك الأعراض، وحرق المدن، وهدم المساجد، وقد أنكرت أمريكا كل ذلك وبينت فضائح اليونان.

أحذر الظلم ولو ملكت به الأرض:

أيها الظالم: أنت تجهل الغيب المصون، فكيف تظلم ضعيفاً وفوقك القهار المنتقم ؟ يكره الظلم لنفسه فكيف يرضاه لك ؟ إذا أمهل الله الظالم فقد استدرجه، قال ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾: « إنَّ اللهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إذا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ » [1].

فليحذر الظالم نقمة الله في أكمل ما يكون من الأمن، وليخش قهره في أشد ما يكون من القوة، فإن الله تعالى لا يعجزه شيء.

(1) رواه البخاري في كتاب تفسير القرآن (سورة هود) الباب الخامس ومسلم في كتاب البر الحديث 62 وابن ماجة في كتاب الفتن الباب 22.

أحذر من يكرهك طمعاً فيما في يدك:

من عادى الإنسان طمعاً فيما في يديه لا يرضى عنه بغير سلبه، فإذا سلبه لا يرده بغير القوة القاهرة، فلا تصدق وعده ولا ما يمنيك به، ولكن اعمل لنفسك حتى تشعر بالقوة، أو تركن إلى ركن شديد، ولديها اطمع أن تسترد ما سلب منك بالعمل، لا بالقول والأمل.

التائب من الذنب كمن لا ذنب له:

معنى هذا الحديث الشريف والله أعلم ورسوله، أن التائب من الذنب يمحو الله سيئاته حتى لا يبقى عليه ذنب، أو يبدل الله سيئاته حسنات حتى يكون كأنه لم يتنجس أبداً، وقد ثبت برهان ذلك. فإنا جماعة المسلمين خالفنا وصايا نبينا وتعدينا حدود ربنا، فسلط الله من كانوا أرقاء يباعون في أسواقنا على من تعدوا حدود الله تعالى، فأيقظنا من رقدة الجهالة ونومة الغفلة، وعملنا بوصايا نبينا، فجمع الله قلوبنا وأيدنا بروح منه، وأذل لنا أعداءنا، ومكن لنا في الأرض بالحق، له الحمد وله الشكر. ولا عجب فإن الله تعالى يقول: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ البقرة: ١٨٦.

ودليل ذلك ما تفضل الله به علينا بنصرة إخواننا أنصار الله في الأناضول، وبقيام كل مجتمع من المسلمين في كل أرض مطالب بحقوقه الشرعية في بلاده بعزيمة خالصة، ونية صادقة لله رب العالمين، بعد أن كنا جميعاً نتغنى برحمة أوربا وحضارتها ومدنيتها، ونلقي بأنفسنا في حضانة أممها، ونبذل النفس والنفيس لننال الراحة والسعادة بهم، جهلا منا بما كان لسلفنا الصالح، وجهلا بما في أيدينا من نعم الله وخيراته. حتى ابتلينا بهم فأهلكوا الزرع والضرع، وسلبوا الرحمة والعدل، كنا لا نتحمل السوط فأصبح الشرق ميداناً لمقذوفات النيران وتمزيق الجلود وقصم العظام.

هل هذه الرحمة التي كنا ننشدها !! والمدنية التي كنا نتلهف عليها.. ولكن والحمد لله الذي أظهر لنا نوايا أوربا بنا وخصوصاً دولة الإنجليز، فإنا نسمع كل يوم خطب المستر كرزون [1] وبياناته التي ترمي إلى محو الإسلام والمسلمين، وإعانة غير المسلمين ولو كانوا لا يعدون على

(1) المستر كرزون: كان وزيراً لخارجية إنجلترا في ذلك الوقت.

الأصابع، كالأرمن وسكان تراقيا من اليونان والبلغاريين، وجعل الأقليات سلّماً لظلم المسلمين وتظالمهم، ولم يرد بذلك إلا إظهار العداوة الكبرى لأهل الإسلام، نسمع خطبه في تمزيق الجامعة الإسلامية، واستخدامه بعض من لا خلاق لهم لتفرقة المجتمع الإسلامي، وفَصْل أعضائه من جسده كالحجاز والعراق والموصل وفلسطين، كما عملوا من قبل في عمان وحضرموت ومصر وغيرها من الأمم الإسلامية. ولكن القهار المنتقم الذي خلق السموات والأرض بالحق وأقامها بالعدل لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يهب الملك لمن يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، ويعز من يشاء، بيده الخير وهو على كل شيء قدير.

الفصل الثاني: الحرية

الحرية الحقة وآثارها في النفوس البشرية ونتائج ذلك في الإنسان وغيره:

الحرية لغة عدم حبس النفس للانتفاع بها، واصطلاحها: خلوصها من قيود الرق والاستعباد والذلة والاضطهاد. وهي بهذا المعنى صادقة على الفرد والجماعة، فالأمة لا تعد حرة ولا تعتبر مستقلة إلا إذا كان لها تصرف عام في جميع شئونها، وتدبير خاص في أحوال معاشها، ومتى كانت كذلك نالت بغيتها وبلغت أمنيتها، وحق لها أن تنافس غيرها من الأمم المجاورة لها والنائية عنها. أما إذا فقدت هذا المجد الميسور باستسلامها لعدوها وتسليمها إياه قياد أمورها، فقلّ أن تبلغ أملا من آمالها، أو تنال غرضاً من أغراضها، بل أنها تعيش عيشة مرة تسام فيها الخسف والجور، وتعدم بسببها العزة والنعمة.

وبئس هذه حياة. فإن الإنسان الذي خلقه الله ليعيش حراً يتحرك بإرادته ويسكن بإرادته، ظلم نفسه وغيره، فسلط الله عليه أشر أشرار خلقه، فسلبوا منه حريته وضيقوا عليه جولته فأصبح ذليلاً بعد العزة، ضعيفاً بعد القوة، وضيعاً بعد الرفعة، فرحماك اللهم رحماك.. قد خلقت الإنسان وفضلته على كثير ممن خلقت، ثم منحته بجانب ذلك قوة اختيارية يتحرك بها إذا شاء، ويسكن متى شاء وكيف شاء، فهل طرأ طارئ غيّر الإنسان فجعله يعمل برأي الثعلب، ويمشي على مذهب الجراد، ويحكم بحكم العقارب ؟ أم هذه نقمة منك أنزلتها به فصيرته كذلك ؟ أنت يا مولاي خلقته ضعيفاً ولا حول ولا قوة إلا بك، فكيف تكله إلى نفسه حتى تمكن منه عدوه وتنصره عليه وتخذله أمامه ؟ فاللهم رحمة منك بعبادك الضعفاء، وحناناً من لدنك بعبيدك الأذلاء، فأنت المعز وأنت المذل وأنت على كل شيء قدير.

هل الحرية خاصة بالإنسان فقط أم له ولغيره ؟

اعلم أن لكل شيء من الأشياء نفساً تتأثر بالخير أو الشر حقيقة أو حكماً، ولكن تختلف مظاهرها باختلاف ذواتها وأعيانها، فهي في الإنسان والحيوان غيرها في النباتات والجمادات، لأنها في الأوّل عبارة عن القوة التي تصدر عنها الأفعال وتتأثر بالطوارئ. أما كونها في

الثاني فهي عبارة عن حال إلهامية يمكنه بها معرفة الخير فيسكن إليه، والشر فيعرض عنه ويتملل منه. وأما كونها في الثالث والرابع فهي عبارة عن رقة في جوهرهما ونضارة في ذاتهما، وبهجة في شكلهما، فإنْ حدث ما ينافي حقيقة فطرتهما ولا يلائم طبيعة زهوتهما، فلا شك أنهما يتغيران في الحال، تغيراً يدل على أنهما فقدا حريتهما وعدم استقلالهما. ومن هنا تعلم أن الأشياء كلها تشارك الإنسان في طلب الحرية، غير أن هذا الطلب يختلف اختلافاً متبايناً بحسب اختلاف العوالم، فالإنسان يطلب الحرية بلسان المقال، وغيره ينشدها بلسان الحال.

آثار الحرية في النفوس البشرية:

تعتبر كلمة الحرية في العالم بمنزلة الكلمة الطيبة في الكلام الخاص، فإن جميع النفوس بشرية كانت أو عجماوية تطلبها، وأقرب دليل على ذلك الطير السائح في جو السماء، فإنك إذا أمسكت بواحد منه ثم حبسته في قفص فإنك تراه يتأثر لذلك الحبس كثيراً، وبذل مجهوده في الخروج منه ليتمتع بالحرية المطلقة والإرادة التامة، لذا لا يهدأ له بال ولا يطمئن له خاطر إلا إذا أفلته. وإذا كان هذا حال الحيوان الذي لا يعقل، فما بالنا بالإنسان الذي وهبه الله تعالى قوة الإدراك ومنحه العقل والتمييز ؟

فيا أيها القوم الذين نصبوا فخاخ المكر والخديعة لبني الإنسان طمعاً في مص دمائهم، ورغبة في استنزاف أموالهم، وطلباً في سلب حريتهم، وحباً في الانتقام منهم، انظروا إلى العالم بعيون بصائركم قبل أن تنظروا إليه بعيون أبصاركم، فإنكم والحالة هذه، لا تودون أن يضغط أحد على حريتكم، أو يتصرف في إرادتكم، فكيف تحبون ذلك لغيركم ؟ ألستم خُلقتم من طين وماء مهين ؟ أم أنتم خلق آخر ترون المذلة لغيركم هي عين المعزة لكم ؟.

أيها القوم.. حرروا ذلك الإنسان الظاهر من العبودية الباطلة، وأعطوه حريته، وخلصوه من قيود الرق والاستعباد والذلة والاضطهاد، فإن الله تعالى ما خلق هذا الخلق ليعبدكم من دونه، ولكن قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾الذاريات: ٥٦فكيف يحل لكم بعد هذا أن تنازعوا الله تعالى في هذا المجد الذي خص به نفسه ؟.

أيها القوم.. لا تغرنكم هذه الحياة الفانية جهلاً بحقائق الحياة الباقية، فإن لكم أجلا لا يعدوكم، وسترجعون بعد إلى ربكم، فيحاسبكم بأعمالكم، ويؤاخذكم بما كسبت قلوبكم، فهيا واستعدوا للحساب برحمة الضعفاء، ولا تنازعوا الله في رداء الكبرياء، وكفوا عنا وعن الخلق مظالمكم، قبل أن يسلط الله عليكم من هو أشد منكم قوة وأكثر جمعاً، فيحل بكم العذاب من حيث لا تشعرون.

بم تنال الحرية ؟

قد علمتَ مما سبق أن الحرية عبارة عن خلوص حركات النفس وتصريفها بالإرادة في وجوهها المشروعة، فإذا وجدت هناك ضواغط تمنع الاختيار بتاتاً، أو تخرج به عن خلال الاعتدال، فقل على الحرية السلام. وحينئذ يجب على الفرد أو الأمة التي فقدت هذا المجد وذهب عنها هذا الشرف أن تتخذ أنجع الوسائل في الحصول عليها، والسعي في ما يقرب إليها، وهذه الأسباب وتلك الوسائل أهمها ما يأتي:

1- حب الفضائل وبغض الرذائل والمحافظة على حقوق الله تعالى حسبما في الإمكان والاستطاعة.

2- الاتحاد بين الأفراد والجماعة.

3- تحسين الصناعة وترويج البضاعة وتخصيب الزراعة.

4- الاستغناء بمحصولات البلاد ومصنوعاتها ومنتجاتها عن الأشياء المجلوبة من الخارج.

5- استعمال قوة الاختراع في الماديات التي لا تستغني الأمة عنها غالباً.

نتائجها:

نتيجة الشيء عبارة عما يؤول إليه من خير أو شر، ولا تنتج الحرية إلا خيراً محصناً يكاد أن ينحصر فيما يلي:

1- الفرد أو الأمة متى كانا حرين أمكنهما أن يعملا بجد ونشاط فيما يحسن به أمر معاشرتهما، وتحصل به سعادتهما ويعم به الخير لبلادهما.

2- إغلاق باب الشرور والمفاسد، فإن الأمة المستعمِرة تعمل دائماً على إيقاع الضرر بمن استعبدتهم وأذلتهم، ولا سبيل لدفع هذه المصائب ورد هذه المحن إلا باستقلال النفوس وجولانها في ميدان الحرية، وسيرها على مقتضى الطبيعة البشرية، فإن الذل أمرّ على النفس من الحنظل، وأثقل عليها من الجندل.

3- إذا أطلقت النفوس من قيود استعبادها؛ وصارت لها الخيرة في تصريف حركاتها وسكناتها، فلا غرو أنها تعمل أعمالاً يبتسم لها الدهر، وتمجدها الأيام، ويسجلها التاريخ، ويكون لها الفخر على سائر الأمم بما ينالها من العز والمنعة والقهر والسلطان، وتصير أيضاً قوة ومثالاً حسناً للأمة المجاورة لها والنائية عنها، بل يضرب بذكرها المثل فترتفع بذلك فوق عنان السماء، وتناطح بشرفها ورفعتها الجوزاء، ونعمت أمة هذا حالها. فيا معشر المسلمين: إني لكم ناصح أمين، فاستيقظوا من غفلتكم، وتنبهوا من رقدتكم، وشمروا عن ساعد جدكم، وسيروا على منهج سلفكم، حتى تعيدوا مجدكم والله ولي المؤمنين.

الظلم مرتعه وخيم:

الإنسان من حيث هو إنسان شر من الشيطان، وأضر من الوحوش الكاسرة على نفسه وإخوانه من بني الإنسان والعالم أجمع إن لم يتداركه الله تعالى بالعناية ويزكي نفسه ويقهر حسه. فإن الإنسان جمع الحقائق الحيوانية بكل أنواعها، والحقائق الشيطانية بجميع مقتضياتها، فهو منفرد يمثل أفراد كثيرة من أنواع الوحوش والحيوانات، وأنواع القوى الشيطانية، ففيه قوة الحسد التي لا يقر لها قرار حتى تسلب نعمة المحسود أو تهلكه، وفيه قوة تمزيق الأعضاء أشد من السبع الكاسر، لأنه قد يدس السم في المجتمع من غير أن يتحرك حركة ولا أن يُعلم فيهلكهم جميعاً. وقد يسلط الظلمة على مجتمع بالغيبة والنميمة فيهلكهم، وقد يخترع آلة يحملها على كتفه أو يديه فيهلك بها مجتمعاً

كالمدافع الرشاشة، وكمقذوفات المدافع الضخمة والطيارات والغواصات، وقد يدخل الإنسان على مجتمع فلا يلبث إلا وقد أفسد أخلاقهم، وأثار ثائرة الشرور بينهم، ويصبح كل واحد منهم وحشاً كاسراً وشيطاناً منفراً.

هذا هو الإنسان من حيث هو، لأن الله تعالى أودع فيه من القوى ما لم يودعه في كل الأنواع الحية من الملك والملكوت، فالإنسان إذا وكله الله إلى نفسه كان شراً من الشيطان، وأضر من الحيوان. ومع هذا فإن الحَكَم العدل القهار المنتقم لا ينسى ولا يغفل ولا يغيب، وبينما يكون الإنسان في استعمال تلك القوى للإفساد والإضلال، وإذا بالحكم العدل باغته فأذله، وسلب منه ما منحه من النعم، قال سبحانه وتعالى: ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةً فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ ﴾ **الأنعام: ٤٤**هذه الآية دالة على أن المجتمع الجاهلي من بني الإنسان لا يعجل الله له النقمة، ولكن يبعث فيهم رسولا يبين لهم طرق الحق وسبل الخير، فإن أمدهم بالتوفيق والعناية قبلوا وأقبلوا، وإن وكلهم إلى أنفسهم — أعاذني الله وإخواني جميعاً — أنكروا وأدبروا، فلا يلبثون إلا وقد باغتتهم النقم، وعاجلتهم الشدائد، لأن الله حكم عدل لا يظلم الناس شيئاً، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا ﴾ **الإسراء: ١٥**.

نسى أهل الشرق ما ذكرهم الله به على ألسنة رسله، والشرق مهبط الوحي، فأسرع إليهم بالعقوبة وسلط عليهم أهل الغرب، وما كان لهم أن يسلطوا عليهم لأن أهل الغرب لم يبلغوا رتبة الإنسانية التي بها الإنسان يقبل الحق، ولو بلغوها لبعث الله إليهم رسلاً، قال تعالى: ﴿ وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ ﴾**الأنفال: ٢٣**فلم يكونوا في نظر الله أهلاً لأن يدعوهم إليه لأنه هو الحكيم الخبير، فكانوا في نظر أهل العقول الكاملة كالحيوانات الراقية المقلدة للأعمال الإنسانية، كالنسناس والقرد والخيل وما أشبهها. وما كان لتلك الأنواع وإن بلغت كمالها الحيواني أن تسلط على الإنسان فتستعبده وتذله، إلا إذا أراد الله ذلك ليظهر دلائل غضبه وآيات سخطه على من أهّلهم للسماع منه وعنه وقبول أحكامه.

تسلطت أوربا على الشرق فابتدأت بالقارة المجهولة منه التي تسمى الآن بأمريكا، وكان سكانها من الجاهلية العمياء المجردين من الفكر والسلاح، وأهل أوربا لاختلاطهم بالمسلمين في الأندلس والبندقية وسكان آسيا الوسطى ومصر والمغرب انتفعوا بشيء من المسلمين، ولكن هذا النفع استعملوه في الحسد الإبليسي، والطمع القابيلي، وكلنا يعلم حسد إبليس لآدم، وطمع قابيل في أخته حتى خالف الله وقتل أخاه وعق والديه. فكذلك سكان أوربا انتفعوا من المسلمين بالغيرة، ولكن جعلوها فيما يكرهه الله تعالى من الظلم والتظالم. وبعلو الهمة، ولكن جعلوها للكبرياء في الأرض بغير الحق والتسلط على الخلق. وبتحصيل الفضائل، ولكن جعلوه في سلب حقوق العباد ومحو آثار الفضائل والكمالات من البلاد. أمهلهم القهار المنتقم أدباً لعباده المسلمين، فكفروا بالله إنكاراً لقوته وقهره وقدرته فأظهروا الفساد في البر والبحر، وأضلوا العباد، وأفسدوا البلاد، واعتقدوا أنهم آلهة لا ينازعهم قوي إلا قهروه، ولا يمانعهم ذو حق إلا أذلوه، ونسوا سريع نقمة المنتقم، وعاجل بطش القهار، بل ونسوا نشأتهم الأولى التي هي بولة من ذكر أبيهم، ومن فرج أمهم، ولم يتذكروا الموت الذي يرونه في كل يوم بأعينهم في أنفسهم وأهليهم وجيرانهم. اشتد ظلمهم في البر والبحر حتى أحزنوا سكان سموات الله من الظلم والتظالم، والله تعالى يمهل ولا يهمل، قال سبحانه وتعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴾يونس: ٢٤وصدق الله العظيم. فلتطمئن قلوب المسلمين وأهل ذمة الله معهم، والأمر إذا انتهى إلى حده رجع إلى ضده.

انظر إلى الشرق وإلى وما كان فيه من اتحاد القلوب والتعاون على الحق ومن مسارعة المسلمين في عبادة الله وطاعته وما كانوا عليه من الرحمة بينهم، وما كانوا فيه من الخير والسعادة، وما كان لهم من الهمم العلية في نشر العدل والمسارعة لسعادة المجتمع الإنساني. كيف طمس الإفرنج معالمه ودرست آثاره، وأظلم جو الشرق حتى كاد يكون كالغابة التي بها أنواع الحيوانات المفترسة وغيرها، يأكل قويهم ضعيفهم، ويؤذي رجال الدين بعضهم بعضاً، فترى العالم يسارع إلى الكافر الظالم يتملق له ليؤذي أخاه العالم طمعاً إلى التقرب في عدوه وعدو ربه، تحصيلاً لما في يد

أخيه المسكين، مع أنه يرى الكافر الظالم مستعبداً قومه، مستولياً على كل شيء كان في يده، فيحارب العالِمُ العالِمَ والولدُ أباه والأخُ أخاه والجارُ جارَه.

عجباً !! أين تلك العزة التي كانت للمؤمنين ؟ وأين تلك الغيرة لله التي دان لهم بها الخلق أجمعون ؟ وأين تلك المسارعة إلى نيل فضل الله ورضاه ؟ والعمل منافسة في التشبه بأصحاب رسول الله ؟ بل وأين تأثير العلم الذي تعلموه ؟ والعبادات التي يتقربون بها إلى الله تعالى ؟ لا تعجب، فقد أهملوا تزكية النفوس فخابوا وضلوا، وتركوا تطهير القلوب فالتفت عنهم علام الغيوب، ووكلهم إلى أنفسهم فاستُعبدوا لأذل الخلق ممن كانوا مماليكهم أيام كانوا أعزاء بالتقوى.

وفي الأثر: (لا يسعد آخرُ هذه الأمةِ إلا بما سعد به أولُها)، وبم سعدنا ؟ سعدنا بالعمل بكتاب الله وسنة رسول الله، وقد آن الأوان، وليس بيننا وبين أن نسعد السعادة الدائمة إلا أن نرجع إلى الحق، وإلى الاقتداء بالسلف الصالح من الصحابة الكرام وعمل الأئمة، ليكون الله تعالى معنا ورسوله ﴿ﷺ﴾ وقد ظهرت دلائل انتقام الله من الإفرنج فقد سلط الظلمة على بعضهم. وفي الأثر: (إن الله لينتقم من الظالِمِ بالظالِمِ) وفي الحديث: « إن اللهَ ليملي للظالِمِ حتى إذا أخذه لم يُفْلِتْهُ » هذه الذكرى، والذكرى تنفع المؤمنين. وقد وعدنا الله في كتابه العزيز بقوله: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ المائدة: ٥٤ فإنه سبحانه وتعالى جعل حبيبه مُحَمَّداً خاتم الرسل، وجعل أمته آخر الأمم، وقال في كتابه: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ آل عمران: ٦٨ فهو ولينا، ويُظهر في كل زمان رجالاً يعلون كلمته، ويجددون سنة نبيه، فلا تخلو الأرض من قائم لله بحجة. وإنا والحمد لله نرى في كل أرض رجالاً صغرت في أعينهم الدنيا والشهوات والآمال، قاموا لله يذكِّرُون إخوانهم، ويدعونهم إلى أن يكونوا قوامين لله بالحق ولو على أنفسهم أو الوالدين والأقربين، إما ظاهرين مشهورين أو خافين مغمورين، فعلى كل مسلم أن يقوم لله مخلصاً، وأن يعتمد عليه جلا جلاله معتقداً نيل النصر، قال الله تعالى: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ آل عمران: ١٢٦ وأنواع المجاهدة في سبيل الله كثيرة لا يعجز المسلم عن القيام مجاهداً في سبيل الله بقدر استطاعته، في كل بلد، قال

﴿ﷺ﴾: «كلٌّ واحدٍ من المسلمين على ثغر من ثغور الإسلام فإذا تهاون إخوانُك فَاشدُدْ لئلا يؤتى الإسلام من قِبلك »[1]، وقال ﴿ﷺ﴾:

« احفـظِ الله يحفظْـكَ، احفـظ الله تَجِـدْه أمامـك، كـن مـع الله تـر الله معـك »[2]..

﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ هود: ٨٨.

رحمة المسلمين بأهل ذمتهم:

للإسلام صولة على القلوب تقوى بها مراقبة الله والخشية منه، مهما كانت دواعي الانتقام والظلم والتظالم، وعلى ذلك ألف دليل ودليل. مضى على الإسلام أربع عشر قرناً أكثرها كانت الصولة والسلطة والقوة والسلطان للمسلمين على العالم أجمع، ولم تخل بلد من بلاد المسلمين من وجود أقليات إذا نسبت إلى المجتمع كانت كواحد من مائة، وتلك الأقليات بين يهود ونصارى وصابئة، ولكن كان الأجنبي إذا دخل بلاد المسلمين لا يخطر على قلبه أن هذا المجتمع فيه رجل يدين بغير دين الإسلام، لما يراه من الحرية المطلقة والمساواة الفاضلة، وكثيراً ما كانت تحصل الحوادث العظام من الحروب الطاحنة بين المسلمين وأوربا، ويحصل في خلال ذلك ميول ومساعدات وتشيع وتعصب من الأقليات الإفرنج بسبب الدين، والمسلمون يعطفون عليهم كعطف الأم الشفيقة على الولد الوحيد، فإذا انجلت الحروب تناسى المسلمون هذا العكر، وحصل الصفا كما كان، ولولا ذلك لما وجد في أفريقيا وآسيا الوسطى والشمالية من يدين بغير دين الإسلام. أشربت القلوب حب الإسلام مما تجمل به أهله من الرحمة ومراقبة الله في السر والعلانية. حتى انتشر كانتشار ضوء الشمس على الأفق، وهذه الأقليات في نمو وكثرة وسيادة. ولكن انظر إلى غير المسلمين ممن أساس دينهم: (من لطمك على خدك الأيمن حول له الأيسر) كيف أثر عليهم دينهم التأثير الذي يقتضيه من عدم مراقبة الله والخشية منه سبحانه، إنهم ما دخلوا مجتمعاً إلا محوا أهله.

(1) سبق تخريج هذا الحديث.

(2) رواه الترمذي في كتاب الفتن الباب السابع.

وإليك مقارنة بين محكمة التفتيش وبين حادثة حصلت من سلطان تركيا: همَّ سلطان تركيا أن يُكرِه نصارى بلاده على الإسلام بالقتل لما قاموا به من الفتن الداخلية، والعصابات الدموية، والإفساد في الأرض، فاستفتى الإمام أبا السعود صاحب التفسير الشهير، فأفتاه مشدداً عليه باتباع السنة والرحمة بهم، وإقامة الأحكام الشرعية على ما هي عليه، فأخبره بأعمالهم، فقال: مهما عملوا فإن الشريعة لم تترك حادثاً من الأحداث. وانظر إلى محكمة التفتيش، التي لو صورها الكاتب على صفحات الأوراق لأذابت القلوب وأدمعت العيون. ثم انظر بعد ذلك إلى الأندلس وما كانت عليه وما آلت إليه، كان بها ثمانية ملايين من المسلمين، فأغرقوا في البحر وأحرقوا بالنار في أقل من أسبوع، وأصبحت لا ترى فيها مسلماً واحداً. ثم انظر إلى أمريكا التي يسكنها الآن فوق المائتي مليون [1]، تمشي في طولها والعرض فلا ترى فيها أمريكيا بل أصبحت كلها إفرنجاً.

لا أبعد بك إلى التاريخ السابق، ولكن انظر بعين فكرك في هذا الزمن.. ترى اليونان الذين كانوا أرقاء للحكومة التركية أعانهم أهل الظلم، حتى احتلوا بلاد المسلمين في الأناضول فأهرقوا الدماء وأفسدوا الأعراض وسلبوا الأموال، وضربوا الثغور التي ليست محصنة، وهدموا المساجد على من فيها من الملتجئين إليها، وكم هدموا مساجد على من بها في وقت صلاة الجمعة.

كل تلك الفظائع تحصل ودول أوربا تعين عليها، وتنسب كل تلك الفظائع إلى المسلمين، فلا رحمة بعباد الله ولا صدق في الأخبار. ثم انظر بعين فكرك إلى تأثير الإسلام على المسلمين.. قام المسلمون في الأناضول يردون أعداءهم في الميدان جهاراً بعد إعلان الحرب، وإنذارهم بالجلاء عن أرضهم عملاً بالعدل والرحمة، والأناضول في داخليته كثير من اليونانيين المقيمين هناك بين المسلمين، فكان من العدل الانتقام منهم أخذاً بالثأر ولا لوم عليهم، وكان كل مسلم في المعمورة يعتقد أن رجال الأناضول طهروا داخلية بلادهم من وجود العناصر المعادية لهم الأجنبية بينهم، حتى نشر الإنجليز على لسان البرق فظائع نسبوها إلى الأناضول. كان كل مسلم يرى حصولها متعينا ولا يراها ظلماً، حتى اطلعنا على الجرائد المصرية، فوجدنا اليونانيين القاطنين

(1) كان هذا العدد حين إملاء الإمام المجدد عليه السلام لهذا الكتاب.

في داخلية الأناضول يجتمعون في كنائسهم في حرية ومساواة وأمن، يدعون للمجاهدين الترك بالنصرة على اليونان وغيرهم من إخوانهم الظلمة فكانت عجيبة [1] !!.

ولا تعجب أيها القارئ.. فإن للإسلام تأثيراً على قلوب المسلمين يجعلهم يراقبون الله تعالى ويخشون لقاءه، ويرحمون العالم أجمع ابتغاء رضوان الله. وإني أبشر رجال الأناضول بالنصر والفتح المبين ماداموا متمسكين بتعاليم القرآن، متشبهين بأصحاب رسول الله رحمة وشفقة وعدلاً، وأنبه قلوب إخوتي المؤمنين إلى بذل ما في وسعهم من المساعدة، ليشاركوا إخوانهم المسلمين الذين دهمهم العدو ظلماً وعدواناً وبغياً وكفراناً، وليعلموا أن الله تعالى إنما يرحم الرحماء، قال ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾: « اللهُ في عونِ العبدِ ما دامَ العبدُ في عونِ أخيه »، والله لا يضيع أجر المحسنين.

(1) كانت تلك الأحداث حين إملاء الإمام المجدد عليه السلام لهذا الكتاب.

الباب الخامس
الوسيلة الخامسة لنيل المجد الإسلامي

العلم والعمل

الوسيلة الخامسة لنيل المجد الإسلامي
العلم والعمل

الإسلام والعلم:

من جهل شيئاً عاداه، وكم من عدو للحق مجاهر بمحاربته لجهله به، وسبب هذا الجهل فقد القابل، وفاقدوه هم الأناسي صورة الشياطين أو البهائم حقيقة، وكم من شيطان مارد في صورة إنسان، ومن وحش كاسر في صورة إنسان، وكم من بهيم وأضل في صورة إنسان. وقد يوجد القابل ويفقد الإنسان العالم المبين لحكمة الإيجاد وسر الإمداد، فيعيش مقهوراً بما تقتضيه حقائقه الإنسانية بالنسبة لما أحاط به، فيعيش كادحاً كاداً حتى يأتيه الموت ولم ينتفع بما في نفسه وما في الآفاق من خواص وآيات، لأن الإنسان من حيث هو إنسان، لا يمكنه أن ينفذ من أقطار السموات والأرض ليشرف على ما وراء المادة من الغيب المصون، ولا على ما فيها من الأسرار الدالة على جمال وجلال وكمال مبدعها سبحانه، ولا على انفراده تعالى بالألوهية، وعلوه عن النظير والشبيه والمثيل. ولابد له من زيادة على حقائقه حتى ينال هذا الشرف العظيم، وهو العلم الذي هو الكمال النفسي، قال سبحانه: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ﴾ **المجادلة: ٢٢**وقال سبحانه: ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَـٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ﴾ **الحجرات: ٧**فالكتابة والزينة والتأييد مزيد فضل الله على القوى العقلية، التي هي البرزخ بين النفس الناطقة الملكية، وبين النفس الحيوانية والحس والجسم. ومن حرم هذا المزيد انحط عن الكمال الإنساني إلى الكمال الحيواني، فقبل من الصناعات والفنون ما تدعوه إليه ضرورته، كما قبل كل نوع من أنواع الحيوانات من الصناعات والفنون ما تقتضيه حياته، كالنحل الذي أتقن الهندسة والتحليل والتركيب بقدره، وكالخيل التي أتقنت إدراك مراد الفارس فأطاعته، وكالطيور التي أتقنت صناعة عشها وجلب رزقها وتدبير بيضها وتربية فراخها، وكاليربوع الذي يخدع الصياد بصناعته. فما من نوع من أنواع الحيوانات إلا وقد أتقن من أنواع الفنون ما به يعيش في راحة وهناءة.

ومقتضى الحقائق الإنسانية ولوازمها التعاون والانتفاع بما أحاط بنا من الحقائق التي أبدعها لنا الخلاق العظيم، فإذا تفنن الإنسان في اختراع ما به يطير في الجو فذلك بعض ما له بالنسبة لكماله النوعي، إذ هو فوق الطير معرفة وقوة واقتدارا على تسخير المادة، وإن عاش تحت طبقات الماء أو على وجهه، أو جرى على الأرض بالقطار البخاري، أو سخر تيارات الماء ومعادن الأرض، أو اخترع ما يحير الجهلاء، فذلك بعض ما له، لأن القرآن المجيد علم الإنسان

بأن الله خلق له كل شيء، وسخر له ما في السموات وما في الأرض، وأمره أن ينتفع بما كنز له في تلك الأرض من بحار وأنهار وجبال وحيوان ونبات ومعادن، وخلق فيه قوة العقل التي لها السلطان على ما دونها من الحقائق كلها، وكان الإنسان قبل القرآن يعبد أكثر تلك الحقائق — عبد قابيل بن آدم النار في حياة أبيه، وعبد بنوه الأفلاك، ثم عُبدت البهائم كالعجل والجعل (الجعران)، والأنهار، والتماثيل، ثم اشتدت الظلمة على العقول فعبد الإنسان إنساناً نظيره، وشاد له الهياكل، ثم انحط الإنسان إلى الحضيض الأسفل فعبد الصور -.

حتى أشرقت أنوار القرآن فمحت تلك الظلمات عن العقول، وأشرقت على أهل الإسلام فصغر عندهم كل شيء، وأفردوا الله بالألوهية والعبادة، واستخدموا ما كانوا يعبدونه من تلك الأنواع بل ومن أصحاب العروش، محا القرآن تلك الظلمة عن عقول لم تقبل الإسلام فسمت سموا مادياً، حتى احتقر الإنسان بما ناله من القرآن رجالاً كانوا يُعْبَدون من دون الله يحلون ويحرمون، ويعطون الجنة ويوبقون في الهاوية، فأذلهم الإنسان، كما فعلت فرنسا برجال الكهنوت. ثم أطلقت العقول بالقرآن من سجن الظلمة، حتى أصبحت روسيا بما نالها تنكر من كانت تعبده قروناً طويلة. ثم انكسفت أنوار العقول التي كنا نظن أنها تسارع إلى الإسلام، بعد أن كشف عنها ظلمة الجهل بربها، فأنكروا الإله المعبود لأنهم فقدوا القابل، وفقدوا معه من بين لهم ما في القرآن من العلوم النافعة، ووقفوا عند المادة التي سخرت لهم، فلم تنفذ أنوار عقولهم منها إلى ما فوقها من آيات بينات، وغيوب غامضات. ثم بلغ بهم الجهل مبلغاً جعلهم يحكمون على الإسلام بما حكموا به على دين كانوا عليه وصل إليهم مبدلاً تبديلاً !!.

الإسلام دين العلم، دين العمل، يكشف أسرار الكون والانتفاع بما فيه من خواصه التي كنزها الله فيه لينالها الإنسان بتحصيل علوم الصناعات، فإذا تعلم وعمل اخترع ما به نيل راحته وهناءته، وقرأ القرآن المجيد، ألاحت له آياته العلية أنَّ ما اخترعته أيها الإنسان هو الحجة القوية على أن هذا الكون أبدعه وأنشأه حكيم قادر، لم يكن عبثاً، ولا بطبعه، ولا بالصدفة، فإن كل ما في هذا الكون من الحقائق لا غنى للإنسان عنه، ولا حياة له إلا به، ولا يكون هذا التدبير والإتقان إلا من قادر حكيم عليم بحاجة الإنسان الضرورية والكمالية، فتفضل فأوجد له كل ما لابد منه له وأكمل، وأمره في القرآن أن يتعلم ويعمل ليعيش بنعمة ربه في الدنيا، وليوحده فلا

يجحده، ويطيعه فلا يعصاه، ويذكره فلا ينساه، ويشكره فلا يكفره، كل ذلك بعض ما في القرآن من العلم بأسرار الكون، لأن الآيات الدالة على علوم الكون والنظر فيه والعمل للانتفاع بكنوزه بضع آلاف الآيات، كما أن الآيات الدالة على ما في الأجواء والأرجاء وما في طبقات الأرض وعلى ظهرها وفي الأفلاك الدائرات والثابتات لا تحصى، ولكن من جهل شيئاً عاداه.

انتفع المجتمع الإنساني بالقرآن أيام الصحابة والتابعين الذين فقهوه وبه عملوا، ولو لم يكن من منافع القرآن إلا أنك ترى روسيا الآن تتبرأ من دينها، وفرنسا تحارب الكنائس، وإيطاليا تقهر البابا، ومن كانوا يعبدون البهائم والأفلاك والتماثيل يخجلون من دينهم بما أظهره القرآن، وما بينه المسلمون أيام طولهم وحولهم، وتمكينهم للأمم في الأندلس ودمشق وبغداد والقاهرة والقسطنطينية وغيرها، فما من إنسان على وجه الأرض من غير المسلمين إلا وانتفع بالقرآن، وأقل منفعة نالها تمتعه بالحرية والمساواة والعدالة في زمان من كانوا يعملون بالقرآن. وإني على يقين أنه سيأتي وقت تقوم الأمم من نومة الغفلة ورقدة الجهالة، فيضربون على أيدي الوحوش الكاسرة من رجال السياسة الذين يقودون الناس إلى المجازر لينعموهم بالملك والعلو في الأرض بالباطل.

بعض من يدعون الإسلام سافروا إلى أوربا وهم جهلاء بروح الإسلام، بل بمبادئه التي يدركها أطفال المكاتب، فشهدوا حرية في فك قيود الآداب ونيل الغرائز، وما تقتضيه من الإباحة التي هي رتبة أسفل البهائم، فإن أكثر أنواع الحيوانات لها آداب لا تتعداها كالطيور والوحوش الكاسرة، فإن لكل ذكر منها أنثي لا يتعداها، وللبهائم الأخرى آداب أخرى لا تتعداها، فإنك ترى الذكر لا يأتي أنثي ما دامت حاملة ولا في وقت إرضاعها، ولكن أهل الجهالة العمياء الصماء يرون في أوربا قبائح تتنزه عنها البهائم، فيرونها خيراً وجمالاً، لأنهم انحطوا إلى أسفل أنواع الحيوان. وهاأنت ترى منهم الآن من يقبح فضائل الإسلام، مع انغماسه في أقبح الرذائل، ويتبجح بالاعتداء على القرآن المجيد، والاستهانة برسول الله ﴿ﷺ﴾ كطه حسين والرصافي وغيرهما ممن ألقوا بأنفسهم إلى هاوية من ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وجعل على أبصارهم غشاوة، وإني أشكر الله وأحمده سبحانه لي ولأهل الإيمان ولجميع المسلمين، حيث حفظنا مما ابتلى به هؤلاء التعساء الجهلاء، الذين هم كالخفافيش التي لا تقوى على ضوء الشمس، وسيأتي الوقت الذي فيه يندمون، قال سبحانه: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ آل عمران: ١٤٠فتزول دولة

عباد المادة وتدول الدولة لنا عليهم، ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ الشعراء: ٢٢٧ .

الإسلام دين العلم والعمل:

حُكمُ أعداء الدين عليه بعمل الجاهلين بحقيقة روحه — ممن يدعون الإسلام وليسوا منه في شيء، وإن حصلوا من العلم أمثال الجبال — حُكم باطل.

والإسلام بريء ممن حكم عليه بأعمال الأدعياء ممن شنع الله تعالى عليهم بقوله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ يوسف: ١٠٦ وقوله تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ﴾ آل عمران: ٢٨ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ﴾ النساء: ١٤٢ - ١٤٣ وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾ التوبة: ٥٤ وقال (ﷺ): « يا معشر مَن آمن بلسانِهِ ولم يُفِض الإيمانُ إلى قلبِه... الحديث » .

الإسلام:

هو دين الله الذي ارتضاه لعباده، ورضى العمل به منهم، وهو وضع إلهي يدعو أصحاب العقول السليمة من الهوى إلى قبول ما هو عن الرسول (ﷺ)، لأنه وضع سائغ لذوي العقول السليمة باختيارهم المحمود يدعوهم إلى الخير بالذات. فإذا سجد العقل للإسلام بعد إقامة الحجة ووضوح المحجة، تحقق العقل أنه دين الله المرضيّ الذي لا لبس فيه ولا حجاب عليه ولا عوج له. ولديها يطلع الله عبده المصدق بما جاءه من عند ربه على قيوميته الظاهرة بكل ناد، وفي كل واد، وعلى كل باد، بل يراها بعيون روحه أظهر من كل محسوس ملموس، ويعلم عظمته الحقية التي لا يشير إليها اسم، ولا يحيزها رسم، وهي مداد كل مداد. الإسلام روح فتحت أقفال القلوب، ومحت الغشاوة عن العيون، والوقر عن الآذان، بل رفعت الإنسان من حضيض الجاهلية

العمياء الصماء، إلى مستوى كان فيه فوق ملائكة السماء، متخلقاً بأخلاق الله وأحوال رسله الكرام، عاملاً بأعمال الأنبياء والصديقين، حتى بلغ مقاماً كان يجيبه الله إذا سأل، فتنزل الملائكة نصرة له وتأييداً، يراها ويسمع منها من زكى نفسه بآداب الإسلام، وعمر قلبه بعقيدته، وجمل هيكله الإنساني بأعماله وآدابه. لا تحكم على الإسلام إلا بحقيقته التي هي الكتاب والسنة وعمل أئمته، وبعد ذلك فاحكم تكن عادلاً في حكمك.

الإسلام بالعلم، والعلم بالإسلام:

الحكم على الشيء فرع عن تصوره، وإنا وإن كنا نعتقد أن حكم سكان مجهولات أفريقيا مثلاً على دولة ألمانيا بتأخرها في الصناعات والفنون حكم لا قيمه له، فإنا نعتقد أن الحاكم على الإسلام بأنه غير العلم أقل قيمة في الحكم من هؤلاء الجهلاء، وكان الأحرى بنا أن لا نهتم بهم، ولكنا دعانا إلى أن نبين تلك الحقيقة أن بعض أهل الأزهر رفعوا شأن هؤلاء الذين لا خلاق لهم بالوقوف معهم في مستوى واحد أمام القضاء، والحقيقة أنه لا علم إلا بالإسلام. وأقول أيضاً إن ما وصل إليه الإنسان – بما يسمونه العلم الحديث والعلوم العصرية – هو بالإسلام أيضاً. ولولا الإسلام لما قهر الإنسان حقائق كان يعبدها ويقدسها.

وظن بعض من لم يقع به العلم على عين اليقين أن العلم شيء والإسلام شيء دعوى باطلة، كما قال بعضهم وهو طه حسين: (أنا أتكلم بصفتي عالم لا بصفتي ديني) وكأنه لجهله بروح الإسلام يقول: إن الإسلام يحارب العلم كما ظن ذلك أهل الجهالة من قبله. وسأورد على هذا من أدلة النقل عن الله ورسوله ﴿ﷺ﴾ وآثار أئمة الهدى ما يحكم به على نفسه بجهالته بروح الإسلام، ولكني الآن أبتدئ بالعلوم التي كشفت خواص المادة وجعلت للإنسان السلطان على قهر الأنواع الحية على الأرض، وعلى المعادن والجمادات والهواء والماء. وهاهي أثار ما كان عليه المجتمع الإنساني قبل الإسلام محفوظة على صفحات الكتب، وفيه ما اكتشفه الباحثون من المباني وصناعات الطب والتحنيط، وما كانت عليه الدول من سياسات الإبادة والتدمير، وإعظام الملوك ورفعهم إلى مقام الربوبية، ومن سياسات استعباد الأمم. والتاريخ المنقوش على الأحجار، والمسطر على أوراق البردي، وما أبقاه الدهر من كتب اليونان والفرس والآشوريين والبابليين والكلدانيين والكنعانيين والفينيقيين من سكان صور وصيدا، وما بقي من تاريخ الروم في زمان حروبهم مع

رمسيس فرعون مصر وغير ذلك، يدل على أن المجتمع الإنساني كان أشبه بغابة جمعت من الوحوش أضرها، ومن الحيوانات أضعفها.

بلغ الإنسان بعلومه الكمال الذي يليق بنوع من أنواع الحيوانات كالنحل والنمل والطيور، وبعض أنواع الأسماك التي لها جامعة تتعاون فيها على تأسيس مدينة، وعمل نظام لحفظ مدينتها من الأعداء، ومن سلطة المؤثرات الجوية، مع تحصيل ما لابد منه وأكمل من طعام وشراب. ومن نظر إلى النحل في هندسته لحجرته وتربية أولاده وفي اقتداره على تنويع الرطوبات الموجودة على الأزهار، وهي عفصة الطعم أو مزة أو مرة، فينقلها بقوة الصناعة إلى عسل محفوظ يجمع.

كل المخترعات كانت بالإسلام وبعده:

لم يبلغ المجتمع الإنساني قبل الإسلام في هندسته وإتقانه للصناعة مبلغ النحل، ولا في حروبه للعدو ومحافظته على وطنه كما يعمل النحل في مدينته، بل ولم يبلغ مبلغ النمل في رعاية الصحة بإتقان مدينته بحالة يتخلخل فيها الهواء، وتصل إليها حرارة الشمس من غير أن تصل إليها هواطل الأمطار أو شديد البرد. ولم يبلغ الإنسان قبل الإسلام في خروجه للحروب مع الأمم الأخرى لتحصيل ضرورياته مبلغ الطيور، التي تسافر من العراق إلى نجد إلى الشام إلى مصر إلى السودان، تتبع مواضع الماء والمرعى، وترجع إلى بلادها في فصل الأمطار فيها. وكم من نوع من أنواع الحيوانات له سياسات تُعجز بني الإنسان من دفاعه عن نفسه، وفي حفظه من مؤثرات الجو وفي تحصيل ما لابد منه له.

كل ما وصل إليه المجتمع الإنساني قبل الإسلام هو القيام بما دعت إليه الضرورة، التي جعلت البهائم الراتعة تعمل لها. جاء الإسلام ولم يظهر في عاصمة روما ولا في قصبة الفرس ولا في بيضة الهند ولا في منفيس (مدينة الفراعنة) ولكنه ظهر بين جاهلية عمياء صماء، يأكل بعضهم بعضاً، يأكلهم الناس ولا يأكلون، لا علم لهم ولا صناعات إلا تقديس الأحجار،

والسلب والنهب وإهراق الدماء، لا ملك يجمعهم، ولا دين عن الرذائل يمنعهم. فما ظهر إلا وسرت أنواره العلية أسرع من انتشار ضوء الشمس في السماء الجلية، فأصبح بالإسلام كل فرد من هؤلاء فوق فلاسفة العالم من لدن آدم، علماً بخواص تلك الآثار الكونية، ومشاهدته لما فيها من آيات مبدعها الحكيم، ومعرفته بنفسه وبربه، مما لا يمكن أن يحصله إلا من تلقى علومه عن الوحي، أو سماع العلم من الله تعالى.

رفع الإسلام الإنسان إلى مستوى جعل فيه السموات وما فيها، بل ومن فيها من عمارها الطاهرين، والأرض وما فيها من الممالك الثلاث من حيوانها، ونباتها، ومعدنها وجمادها، دون مقام الإنسان في نظره، لأنه لم يرى بالإسلام فوقه إلا ربه وأن ما سواه ومن سواه يراهم عبيداً مربوبين لله، وعباداً مقهورين بقهره سبحانه، وعلم فوق ذلك أن في كل ذرة من ذرات الأرض، بل وفي كل تلك الأجواء والأرجاء، بل وفي السماء وأفلاكها ترى كل ذلك مسخراً له، أودع الله فيه كنوزاً يخرجها بالإسلام فينتفع بها وينفع بها عباد الله في تلك الدار، لتظهر آثار قدرة الله وحكمته، ويظهر فضله ورحمته لعباده، فيعبدونه ولا يشركون به شيئاً.

كانت الشمس معبودة قبل الإسلام، بل والنار والأنهار، لا.. بل والبقر. أعجب من هذا عبادة الإنسان وما ينحته من الأحجار !! بل وما يركبه من الأشجار !! أو ما يصوره بالمداد !! لا، بل كان الإنسان يعبد رجلاً من نوعه أوامرأة فيقدسها ويجلها، وكان فلاسفة اليونان يعبدون آلهة مخصوصة، حتى خبطت عقولهم في عالم ما فوق المادة، فخسفت أنوار العقول، وباءوا بالجحود، وخبطوا في أنفسهم خبط عشواء، فقال بعضهم: أصل الإنسان خنزير. وقال غيرهم: إنما هي الطبيعة. وقال غيرهم: لا وجود للكون وإنما هي أوهام. سبحان الله. جاء الأنبياء قبل رسول الله صلوات الله وسلامه عليهم، فأهلك الله بكل نبي أمته، لأنهم جاءوا بما يناسب عصورهم، فجاء نوح بما أعجزهم بالسير على الماء؛ وجاء إبراهيم بما حيرهم من بقائه في جوف النار، وجاء موسى بما أعجز السحرة حتى آمنوا، وجاء عيسى بما أعجز الأطباء، فأحيا الموتى وأبرأ الأكمه والأبرص، وجاء غيرهم بمثل هذا. حتى جاء خاتم الأنبياء عليه الصلاة والسلام، فجاء بالحكمة العلية مبيناً للعقل والروح والحس ما جذبهم به إلى الحق، وأبقاه فينا فعلمنا به، فلم نفقده مدة عملنا بما جاءنا به، فانتشر الإسلام، وأحيا الله به العلم في أفريقيا وآسيا وأوروبا والجُزر، وقد وجدت آثار العرب

في أمريكا الشمالية، والغالب أنهم وصلوها من بوغاز تهرنج، كما دخلوا أوربا من بوغاز جبل طارق، ولكن الإسلام أسرعت إليه الغربة ففارقه أهله بعد أن ملأ الأرض علماً وعدلاً وسلاماً ورحمة، حتى أصبحنا في هذا الزمان والمدعون الإسلام بل والحاكمون على أنفسهم بالجهل يقولون: العلم غير الإسلام، وكبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا.

حال المجتمع الإنساني قبل الإسلام:

لم أكن مغالياً إن قلت إن المجتمع الإنساني قبل الإسلام كان أشبه بمجتمعات الحيوانات التي تتعاون على بقاء الحياة، كالنمل والنحل وأنواع الطيور، فكانت عيشته كعيشتها، يتعاون أفراده لتبادل المنفعة ودفع المضرة. والأصل في المجتمعات الإنسانية البداوة في كل الأمم، وكانت حالة البداوة في المعيشة حالة تنازع، تسود فيه القوة، وكان أغلب تلك المجتمعات جاهلية، تنازع الآثار الجوية، وتزاحم الوحوش، حتى ارتقى بعض بني الإنسان، فأسس المدن وأرسل الله الرسل ليبينوا للناس ما به نيل السعادتين بقدر ما يناسبهم، فكان ما يدعوهم إليه الرسل يخالف عاداتهم ومألوفاتهم، فوقع بينهم وبين الرسل ما ذكرته التوراة في أسفار الأنبياء، لأن الناس تعودوا الظلم والجور والطغيان، مع أن الإنسان ديني بالفطرة، ولكن قوة الحس والجسم جعلت الإنسان لا يقبل إلا ما يجانس حسه وجسمه، فأبى بنو الإنسان أن يعبدوا إلا ما يحسونه ويمسونه مما يصنعونه بأيديهم.

وتوالت الرسل يدعون إلى عبادة العلي العظيم المنزه، فقُتل منهم من قُتل، و كُذِّب منهم من كُذِّب, فكان الناس مع الرسل في حرب عنادى, فلم ينتفعوا من الرسل بعلم نافع, ولا بعمل رافع, اللهم إلا فن بناء السفن الذي تعلموه من سيدنا نوح عليه الصلاة والسلام, أو علم صناعة السيوف والدروع وإتقان البناء الذي تعلموه من سيدنا داود, لأنه هو الذي لان له الحديد, وبنى بيت المقدس, وقام سيدنا سليمان فاستخدم الفينيقيين في إتقان الصناعات اللازمة للمدن المتعلقة ببناء المنازل, والنجارة والبرادة, ثم تعلم تلاميذ سيدنا إدريس فن صنع الملابس وما يلزمها من النسيج والغزل والخياطة, وفن الطب وعلم خواص النباتات.

وعاش الإنسان حتى في زمن الرسل على جاهلية عمياء, فعبد بنو إسرائيل العجل في زمن الكليم، وقال بطرس – أكبر تلاميذ سيدنا عيسى – أنت الله. فغضب، حتى قال له: ستنكرني بعد. كانت المجتمعات الإنسانية قبل الإسلام بين جاهلية عمياء, أو بين أمة ضالة, أو أمة مبدلة للحق, أو أمة فاسقة, فكانوا يعبدون الأحجار المنحوتة بأيديهم, أو الأفلاك المشهودة لهم, أو الملوك أو الرسل أو بعض الحيوانات, وتلك حقائق لا تحتاج إلى دليل, إلا من وفقهم الله من تلاميذ الرسل عليهم الصلاة والسلام في حياتهم, وهم قليل, ثم بدل من بدل, وارتد من ارتد بعد الرسل.

أنا لا أنكر أن فن البناء وفن الطب وفنون الزخرفة والتصوير والنقش كان بالغاً مبلغاً في الشرق, أعجز صناع زماننا هذا في أوربا وأمريكا, وآثار المصريين والبابليين والآشوريين, واليمانيين والفرس والهند, لا تزال محل إعجاب كبار المخترعين, ولكن كل تلك الآثار شيدت على أسس الظلم والتظالم, والبغي والاستئثار, لأن الأمم كانوا يجلون الملوك إجلال الربوبية. مكث الإنسان دهوراً طويلة في الجهالة العمياء تحت تسليط السلطة الظلومة الغشومة, لا يعلم من نفسه إلا أنه مقهور لأفراد زعموا أنهم آلهة، أو أبناء الآلهة ومن قرأ تاريخ المصريين منذ خمسة آلاف سنة يعلم مقدار المجتمع الإنساني العلمي العملي من تقديس الأسر المالكة، وكان الأمر في الهند كما هو في مصر، فإنهم كانوا يعبدون الثالوث المقدس، وهو صنم يمثل إنساناً ذا ثلاث رؤوس: الإله وابنه وروحه، وترجمة إبرهة الهندي وبوذا وغيرهما بيان لما كان عليه الإنسان.

لم تكن تلك الأحداث في الأزمنة القديمة فقط، بل كانت موجودة بحقائقها في زمان ظهور الإسلام، فكانت الصين تسمي ملكها ابن ماء السماء، والفرس يسمونه ملك الملوك، أو شاه، وكانت الدولة الرومانية تستعبد الشرق استعباد الإنسان للبهائم، وكل ما وصلوا إليه من العلوم إلى ظهور الإسلام كان محصوراً في فن الطب، وتدبير المنزل والمدن، وطرق استعباد الأمم بالقوة القاهرة، والتفنن في سلب ما في أيديهم، وشيء قليل من علم النفس، ومن إثبات القوة القاهرة الغائبة عن الحس، خبطوا فيه خبط عشواء، لم يركنوا إلى ركن من العلم مكين، ولم يثبتوا ما أدعوه بآثاره من علم يقبلها العقل الكامل.

أقول خبط عشواء لأن الأمة التي برعت في هذا واشتهرت هي الأمة اليونانية، وكانوا خدماً عند المصريين، يراهم المصري نجاسته، لأن العلوم التي كانت عند المصريين كانوا يرجعون فيها إلى الخليل، وإلى يوسف الصديق، قبل موسى بزمن طويل، ولكن تغيرت وتبدلت بسبب الأطماع والحظوظ التي تدعو إليها نفوس الملوك لاستعباد الشعوب، بسلب ما لديهم من الفنون والصناعات والآداب، وتجريدهم مما يجعلهم يدفعونهم عن أوطانهم.

ظهور الإسلام وأثره على تقدم الإنسانية:

ظهر الإسلام فمحا ظلمات الجهل عن عيون العقل، وأيقظ من أسلم من نومة الغفلة، فعلم كل مسلم نفسه ونشأتها الأولى، والآخرة، وحكمة وجود الإنسان، ثم فكت عنه قيود الذل لنظرائه من أهل الظلم، والذل لبعض الآثار الكونية، حتى تحقق من نفسه أن كل شيء في السموات والأرض خلق له، وأن الله منحه القوة التي يستخدم بها كل شيء لانتفاعه مما هو في السموات والأرض، من جمادات بأنواعها، وحيوانات ونباتات بأنواعها، بل والكواكب، حتى بلغ ما تعلمه من أصول الإسلام وفروعه أن الملائكة خلقت له، وظهر له أنه بإتباعه للنبي عليه الصلاة والسلام يبلغ درجة من العزة والمجد لا يرى فوقه إلا ربه تعالى، ويرى كل شيء لأجله، قال سبحانه: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ ﴾ الجاثية: ١٣ ثم تحقق بعد تحصيله ما يجب عليه من العلم أنه سيفوز بالخلود في جوار ربه، وفي معية الأخيار، من الأنبياء والأطهار من الصديقين.

نظر الإنسان إلى الكون نظرة رجل بصير، حكيم عالم في منزله الذي صار له التصرف المطلق في كل ما فيه من المنافع والخيرات، فساح عقله فيما حوله للانتفاع بنعمة الله المخزونة له، ليعرف ربه فيشكره على نعماه، ولم يقف المسلم عند هذا الحد، ولكنه جاهد نفسه بعد كمال التصديق، بما بلغه عن النبي عليه الصلاة والسلام، فزكت نفسه، وساحت روحه في العالم الأعلى، فتجلت له حقائق هذا العالم، فعلم من عجائب القدرة، وغرائب الحكمة، ما جعله يفرد ربه بالألوهية دون غيره، ويتخلق بأخلاقه العلية من الرحمة والكرم، والعلم والعفو، والمسارعة إلى عمل الخير، حتى بلغ من اليقين والشهود مبلغاً كان فيه أشبه بالرسل عليهم الصلاة والسلام، فخرق الله له العادة وأكرمه بما جعله به إماماً عظيماً، وسيداً مطاعاً، وهم كثيرون في كل زمان.

فضل الإسلام على أوروبا وأمريكا:

لم تنحصر خيرات الإسلام على المسلمين، بل تعدتهم إلى جميع الأمم، وكان أكثر الناس انتفاعاً بعلوم الإسلام أوربا الحديثة وأمريكا، فإنهم انتفعوا بعلوم الأندلس واكتشافاتهم التي أسعدت بني الإنسان، بالعلوم التي سلبوها من المكاتب الإسلامية في الحروب الصليبية، وما أخذه نابليون من خزائن الأزهر الشريف، وقد أهمل المسلمون تحصيل تلك العلوم المفيدة، وقضت سياسة الملوك منهم أن يشغلوا العلماء بدرس الأحكام مجردة عن الحكمة، وعن العلوم التي فرضها القرآن من النظر والتدبر والفكر، وعلوم الأخلاق، وعلوم النفس، ومعرفة الله تعالى، وعلوم تدبير الفرد والمنزل والمدينة، والمجتمع العام، والعلوم العقلية التي بها فتح كنوز المادة، ومعرفة خواص كل نوع منها، وأنها خزائن للنعم، يفتحها العلم والعمل، وقد فرض الله كل تلك العلوم وأوجبها على كل مسلم في القرآن، قال سبحانه: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ يونس: ١٠١. وقال تعالى: ﴿ فَٱمْشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ﴾ الملك: ١٥. وقال تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ﴾ التوبة: ١٠٥. وقال تعالى: ﴿ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ الزمر: ٩.

فكان المسلم المتمسك بالدين يحيط بكل أنواع العلوم، ويعتقد أنه يجهل من كمال ربه وقدرته وحكمته بقدر ما يجهل من أي علم من العلوم، وكانوا يولون أهل العلم الولايات، فيكون الوالي إماماً وقائد الجيش، وطبيباً وعالماً بسير الأفلاك وتغيير الفصول، وقد نظر وال من الولاة مد البحر، وكان يجهل المد والجزر، فقال: هذه تكفينا صيفتنا، ظنا أنه ماء عذب، فبلغ الخليفة فعزله لجهله بتأثير الكواكب على البحر... لم يبلغ الإنسان مقام الشرف والمجد إلا بالإسلام، وقد ترك المسلمون العمل بوصايا الإسلام فذلوا لمن كانوا أتباعاً لهم، وترك غيرهم دينهم فعزوا ورقوا في الأرض لأخذهم بأعمال المسلمين الكونية. وإني على يقين أن تلك الأمم قريباً يظهر لها الحق جلياً فتسارع إلى الإسلام، وكيف لا ؟ والإنسان مفطور على حب الحرية والمساواة، ومجبول أن يحكم على الأشياء بعقله، وكلما أظهرت الصناعات والفنون ما كنزه الله للخلق في المادة كلما فكت الأغلال من عنق العقل، فحكم أن الدين الإسلامي هو الدين الحق، وأن ما سواه لا يقبله العقل.

ومن حكم أن الدين الإسلامي لا يحث على تحصيل العلوم كذبته الحقائق، والواجب على المسلمين في هذا العصر بعد أن شهد أعداء الدين بأحقيته، وسارع فيه كثيرون من أمريكا وأوربا، أن يسارعوا إلى الحق والعمل به، ليكونوا أئمة لمن ستنكشف لهم أنوار الإسلام قريباً، بل وليكونوا متمتعين بالحياة الإسلامية الفاضلة، مسارعين إلى نيل السعادة الباقية في جوار الأخيار ممن عملوا بالإسلام ونشروا فضائله وآدابه وأصوله بين الأمم، والأمر سهل، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

هذا وما هي العلوم التي عاداها الإسلام ؟ هل هي ما حصلته أوروبا من العلوم التي جعلتهم يتفننون في استعباد الخلق وإهراق الدماء، وحرمان الأمم من مرافق الحياة، وسياسة ظاهرها إصلاح وفرح، وباطنها إفساد وترح، مما حكم بوحشيته كثير منهم، وقامت أحزاب تقبح هذا العمل وتثبت أنه نهاية الظلم والطغيان ؟ إن كان القائل بمعاداة الإسلام العلم يرى أن الإسلام عدو تلك السياسة فصدق، لأن الإسلام أسس مع الرحمة، فإن لم تتيسر فعلى العدل والإيثار والتعاون على الخير، بعد توحيد الله وشكره على نعماه، والمسارعة إلى تحسين الفضائل النفسانية، ومن ظن أن الإسلام عادى علماً من العلوم النافعة، أو فناً من الفنون المفيدة للعامة، أو صناعة تجعل الإنسان يعيش مستريحاً، فقد جهل الإسلام، أو كذب على الحقائق، والجاهل إذا حكم فحكمه عائد عليه، والعدو إذا حكم فشره راجع إليه، قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ﴾فاطر: ٤٣.

وقال العربي:

ومهما يكن عند امرئ من خليقة   وإن خالها تخفى على الناس تعلم

على من نرجع باللائمة ؟:

أَعَلى أنفسنا لتقصيرنا في تحصيل ما فرضه علينا الإسلام لنفوز بالسعادتين ؟ ولإهمالنا في تزكية أنفسنا واستخدام عقولنا كما أمرنا الإسلام، فأنتج التقصير والإهمال لقس النفس، ومرض العقل، وانحراف الخيال، وضعف الوهم، وانضواء الفكر، واضمحلال الإدراك، حتى صار الإنسان

أضل من الأنعام، وشراً من الشيطان، فأصبح أهل التقصير والتساهل ممن يدعون الإسلام كالبهائم الراتعة، يقودهم العدو إلى مهاوي الهلكة، فيقلدونه تقليد الأعمى، ويتبعون كل ناعق، فإذا قال قائل: حرية أوربا وحضارتها وعدلها وعلومها وصناعتها، أنكروا ما هم عليه من الفضائل والكمالات، وسارعوا إلى التقليد.

أم نرجع باللائمة على الدين وهو براء من أعمالنا ؟ وقد أثبتت سماحته الرحمة، فحفظت الأمم المخالفة للإسلام برحمة الإسلام، ورفعت علومه العقول إلى مستوى انكشفت لها فيه خواص المادة، وآيات قدرة الله وحكمته. اللهم إن دينك الحق، به الفوز بالخيرين، فأسألك يارب العالمين أن توفقنا للعمل به والتعصب له رحمة بالمجتمع الإنساني الذي أصبح كفئة من الناس على سفينة أحاطت بها الزوابع، وهاج عليها البحر؛ ببركة علوم أوربا الحديثة التي يفتخر بها من جهل دينه.

أخذت أوربا عن المسلمين نشاطهم في الصناعة، ومسارعتهم إلى فتح كنوز المادة، وشجاعتهم، وتركت العقيدة الحقة، والعبادة التي تجعل المسلم ذا رحمة وعفو وإحسان، وإيثار لغيره، وتركت الأخلاق الفاضلة التي بها حياة المجتمع في حرية ومساواة وأمن على النفس والمال والعرض، فخبثت النفوس، وانكسفت أنوار العقول، وتسلط الحس على النفس والعقل، فهبط الإنسان إلى رتبة البهائم شهوة وإباحة، والسباع جرأة ووقاحة، والشياطين كيداً وخبثاً، فاستخدم العقل والنفس لهذا القصد حتى انمحى شرف الإنسانية في نظرهم، وحكموا أنهم قردة ارتقت كما قال دارون تكذيباً للكتب السماوية، وكذلك تفعل العلوم التي يفاخرون بها، والعلوم – يا قوم — صور ترسم على جوهر النفس، تجذبها إلى الارتفاع عن الإنسانية إلى الفضائل الملكوتية، بل وإلى ما فوق ذلك من التخلق بأخلاق الله.

ما هي تلك العلوم التي تفاخر بها أوروبا ؟ !:

كلنا نعلم أن كثيراً من أنواع الحيوانات أتقن فن تأسيس المنازل على قدر احتياجه، كالنمل والنحل والطيور والأرانب وغيرها، وأتقنت تدبير المجتمعات كذلك، كالنمل والنحل والطيور والأرانب والقردة والأسماك، وأتقنت فن دفع العدو لتحفظ منه إما بحرب أو بهزيمة أمامه،

وأتقنت طرق تحسين قوتها، وقد امتاز بعض الحيوانات بفضائل عجز عنها علم أوروبا، كالوفاء في الكلاب، والغيرة في الديكة والطيور والسباع، وكالحياء من عمل المباح كالإبل التي تتستر في أوقات ملامسة الذكر للأنثى، وبإتقان فن تدبير المنزل وحسن تربية ما يتناسل منها مثل الحمام والأرانب والنحل وغيرها.

إذا تقرر هذا فعلوم أوربا إنما هي فنون اقتضتها الحقيقة الإنسانية التي هي أكثر الأنواع الحية ضروريات وكماليات, ولا فخر لأوربا بما نسب إليها من الفنون أو العلوم, فإن الإنسان من خمسة آلاف سنه وأكثر أتقن من الصناعات في تشييد القصور الفخيمة وإبداع الأثاثات المنزلية التي أعجزت كبار المخترعين في الغرب, وها هي آثار الملك توت عنخ آمون التي اكتشفت بقبره في الأقصر معجزة كبرى تدل على أن أوربا تفتخر بما يخجل.

يا قوم: هل تبرج النساء بالزينة. ولبس الثياب القصيرة, التي تظهر العورات وإباحة السفور للنساء, والتفنن في آلات وأدوات الطعام والشراب واختراع المصبغات من الثياب, وصرع العقول تحت أقدام الشهوة البهيمية, وقتل الحياة الإنسانية الفاضلة بالخمور والمخدرات, ورجوع الإنسان إلى المرتبة البهيمية بحالة يخجل منها بعض أنواع الحيوانات بجلوس النساء والبنات في الأندية العامة, واشتراك الرجال والنساء في الرقص, وقتل الغيرة بسيف البلادة الجمادية, واختراع ما يعين على ذلك, هذا هو العلم الذي تفتخر به أوربا, ويتمشدق بمدحها عليه من لم يميز بين الفضيلة والرذيلة؟ اللهم رحماك ببني الإنسان, يا قوم ارجعوا إلى الإسلام, وتداركوا الأمر بترك الاستسلام للعدو, وانظروا بعيون الفكرة, وحكموا العقول لتشرق أنوار الحق فتمحق ظلمات الباطل, فإن الحق أبلج, والباطل لجلج, والمؤمن يكفيه قليل الحكمة.

تركت أوربا دينها فتقدمت, ونحن تركنا ديننا فتأخرنا:

لقد ترك القوم دينهم فتقدموا في الدنيا, وتركنا ديننا فتأخرنا في الدنيا والآخرة, قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الأعراف: ٩٦

قال تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ ﴾ النور: ٥٥ صدق الله العظيم, فإن وعده – سبحانه وتعالى – تحقق بجمال معانيه جلياً مشهوداً لعيون الرؤوس, ملحوظاً لقوى النفوس. وكيف لا؟ وقد أنزل الله القرآن على نبيه صلوات الله وسلامه عليه, فافتتح دعوته ﴿ﷺ﴾ بالعرب الذين هم أولى الناس به وأحق الناس باتباعه, لأن الله سبحانه وتعالى بشَّر في الأسفار الماضية والصحف السابقة أنه جاعل من ولد إسماعيل أمة عظيمة, في صحف سيدنا إبراهيم، وصحف سيدنا موسى، فكان العرب أفق مشرق هذه الشمس الإلهية, ومسطع أنوار تلك الأسرار الربانية, لتكون آية الله تعالى جلية للعقول, واضحة للنفوس, تنجذب بها القلوب التي أعدها الله تعالى لفهم أسراره العلية, وحكمه الجلية, وكيف لا ؟ والعرب إذ ذاك كانوا في جاهلية عمياء, لا يجهل عاقل ما كانوا عليه من الأخلاق السبعية.

كانوا يؤكلون ولا يأكلون, تفرقت أهواؤهم, واختلفت شعوبهم, وتباينت مقاصدهم, كأن العقل إذا نظر إليهم يحكم بالبديهة أن من المستحيل اجتماع تلك الآراء المختلفة, والحظوظ المتباينة, والمفاسد التي صارت عادة لهم وسنة, كان كل فريق منهم يناوئ الآخر, لا يجتمعون على قائد لهم, ولا يتحدون لرئيس ولا يقبلون أن يكون لهم سلطان يقهرهم, أو ملك يجمعهم, تلك حقيقة بديهية لا يجهلها أحد له إلمام بمبادئ العلوم, فقام بينهم رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾, وهم على تلك الأحوال المنكرة, والأخلاق الوحشية, فكانوا في التفرقة كقطع الزجاج التي لا تلتحم, أو كالنار والثلج اللذان لا يمتزجان, فما مضت فترة من الزمن إلا وولدوا ولادة جديدة, فكانوا أرواحاً بعد أن كانوا أشباحاً, وحكماء حلماء علماء بعد أن كانوا في جاهلية عمياء, فتح الله أقفال قلوبهم ففقهوا, ورفع الستار عن عيون بصائرهم فشهدوا, فجمعهم الله على الهدى بعد التفرقة, وعلى الحق بعد الضلال, وصار الله معهم, وفتح لهم باب بركات السماء بما جملهم الله تعالى به من الحكمة والبيان والنور والتبيان, وبركات من الأرض بما مكن لهم في الأرض بالحق, جعل الله لهم الأرض ميراثاً فملأوها نوراً وعدلاً وسادوا العالمين كما يسود الأب الرحيم فيجملهم بالبر له, والصلة لأقاربهم بمكارم أخلاقه وجمال أعماله, ودام هذا المجد لهم بقدر تمسكهم بروح القرآن الكريم فكان مجدهم وعزهم وسعادة المجتمع الإنساني وخيره بقدر تمسك المسلمين بالقرآن،

وعملهم بسنة رسول الله ﴿ﷺ﴾ وهدى أئمة السلف الصالح من أئمة الهدى ممن صدقوا ما عاهدوا الله عليه.

نظر الله إلى المسلمين نظرة عناية ومعونة، لأنهم نظروا إلى الله بقلوب ملؤها الخشية وأرواح قوامها الرغبة فيما عنده سبحانه وتعالى، والرهبة من جلاله العلي، ومزاجها الحنين إلى انتشال العالم أجمع من مساخط الله تعالى ومواطن غضبه، فواجههم الله تعالى بوجهه الجميل، وقبل منهم أحسن ما عملوا وتجاوز عن سيئاتهم. لم أقل كانوا أنبياء معصومين، ولا ملائكة مطهرين، بل كانوا يذنبون كما نذنب، ولكن جملهم الله بجمال قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴾الأعراف: ٢٠١، وبنور قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ ﴾آل عمران: ١٣٥. فكان الله تعالى ينظر إلى قلوبهم معقودة على التوحيد الحق، والإخلاص لذات الله تعالى وحسن النية في العمل لوجه الله تعالى، وإن كانت أبدانهم تتقلب في بعض الأحيان في المعاصي، فكان ظاهرهم وإن تنجس بالمعاصي ولكن سريرتهم كانت مشرقة بأنوار التوحيد والإخلاص، والعزة بالله، سر قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾المنافقون: ٨.

فكان الله تعالى إذا نظر إلى تلك القلوب المنعقدة على النور الحق تقبل منهم أحسن ما عملوا، ومعلوم أن ذرة من أعمال القلوب خير من أمثال الجبال من أعمال الجوارح، لأن أعمال الجوارح المجردة عن أعمال القلوب لا ينظر الله إليها قال الله تعالى: ﴿ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ٨٩ ﴾الشعراء: ٨٩. وقال ﴿ﷺ﴾: « إِنَّ الله لَا يَنظُرُ إلى صُوَرِكُم وَلَكن يَنظُرُ إلى قُلُوبِكُم»

[1]وقال ﴿ﷺ﴾: « إنَّ الله لَا يُقبلُ على كَلَام الحَكِيم وَلَكِن يُقبِلُ على هَمِّهِ وَهَوَاهُ» [2]وقال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا﴾الكهف: ٢٨[3].

فلا تظن يا أخي أن أهل الجنة الذين أثنى الله عليهم كانوا معصومين من المعاصي، بل قد يرتكبونها كما نرتكبها، ولكن القلوب كانت مشرقة بأنوار الخشية من الله تعالى والرغبة فيما عنده، فكان الله يتقبل أعمال قلوبهم التي هي أحسن ما عملوا من الطاعات، ويتجاوز عن سيئاتهم التي يعملونها بأبدانهم. ولا تظن – يا أخي – أن أهل النار الذين شنع الله عليهم، وذمهم في كتابه العزيز لم يكونوا مطيعين لله، ولكن الله تعالى نظر إلى أعمال أبدانهم التي تطيعه فلم يقبلها، وردها عليهم لأنه علم ما في سرائرهم من شرك خفي أو من حظ متبع أو هوى مطاع فرد عليهم أعمالهم لأنهم كانوا يحسبون أنهم يحسنون صنعاً، بدليل قوله تعالى: ﴿وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا﴾الفرقان: ٢٣.

فلا ييئسك قبيح عملك من أن تكون من أهل الجنة إذا تقبل الله أحسن ما عملت، ولا تأمن جانب الله بحسن عملك. هكذا كان السلف الصالح الذين أثنى الله عليهم ومدحهم، حتى تغيرت أحوال القلوب، وشهد الناس أن الظهور بالتقوى، والتجمل بأنواع العبادات موجب لارتفاع الشأن في الدنيا، ونيل الرياسة والسيادة. فامتزج حب الدنيا في القلب بالإخلاص، فالتفت الله تعالى بوجهه الكريم عن المجتمع الإسلامي، فكنت ترى أبداناً مجملة بالطاعات، ورجالاً مجملين بحلل أهل التقوى فيخشع قلبك لرؤيتهم، وينشرح صدرك بالنظر إليهم، وتقول: هؤلاء المتقون، ولكن الله تعالى ينظر إلى قلوبهم فيرى همة لغيره، وهوى في غيره، وأخذت الحظوظ والأهواء تمتزج بأنوار الإسلام في القلوب حتى كاد هذا النور يطفأ من القلوب، وأصبح هم الناس دنياهم، فوكلهم الله إلى أنفسهم بتركهم العمل بكتابه العزيز والاقتداء بنبيه الكريم ﴿ﷺ﴾،

---

(1) رواه أحمد في الجزء الثاني صفحة 285، 539 ومسلم في كتاب البر الحديث 33 وابن ماجة في كتاب الزهد الباب التاسع.

(2) رواه الدارمي في كتاب المقدمة الباب 27.

(3) سورة الكهف آية 28.

والتشبه بأئمة السلف الصالح من الهداة المرشدين، فاكفهرت الأجواء، ونضبت العيون، وأبدلت العزة بالذل، والقوة بالضعف، والاجتماع بالتفرقة، وتركوا دينهم وبه المجد والسلطان في الدنيا والسعادة الأبدية في الدار الآخرة، ووقعوا في الذنوب التي توجب النقم، والمعاصي التي تغير النعم، وفي البدع التي تهتك الحرم، وفي المنكرات التي تحبس غيث السماء، وفي الضلالات التي تديل الأعداء، سر قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾الرعد: ١١.

فإذا أراد المسلمون أن يجدد الله لهم المجد، ويمكن لهم في الأرض، ويمنحهم العزة به، ويجعلهم أئمة للمتقين، وسادة للعالمين، ما عليهم إلا أن يعودوا إلى ما كان عليه أسلافهم الصالحون الذين أذل الله لهم العالم أجمع، وليس ذلك بالأمر الصعب على المسلم، وكيف يصعب على المسلم عملاً يكون به عزيزاً بعد الذل ؟ متبعاً بعد أن صار تابعاً، عظيماً بعد أن صار حقيراً، بل كيف يتعسر عليه عمل يكون الله به معه، ويكون به مع الله، يحمله الله بحلل الخلافة عنه، يسخر الله له به ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه، لست في مقام إقامة الحجة على أننا تركنا معالم ديننا وأبدلنا النور بالظلمة، فأبدل الله القوم بالعز ذلاً، وبالغنى فقراً، وبقوة السلطان والتمكين في الأرض ضعفاً وهواناً، لأن ذلك أمر جلي، ولكني أعجب كل العجب من قوم جهلوا ما كان عليه أسلافنا بإقتدائهم بهدى الأئمة الهداة المرشدين، وعملهم بسنة رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ من السلطان القائم والعز الدائم والمجد الحقيقي، حتى أصبحوا إذا رأوا متمسكاً بدينه، عاملاً بسنة رسول الله ﴿ﷺ﴾، يظنون أن ذلك تقهقر، عجباً عجباً ! بلغت الغواية من الإنسان مبلغاً جعلته يجهل ويجهل أنه يجهل، يقولون: لم تتقدم أوروبا إلا بترك الدين، فاتركوا الدين تتقدموا، ونعم تركت أوروبا الدين فتقدمت، وتركنا ديننا فتأخرنا.

بم يأمر دين أوروبا ؟! ننظر إلى أصوله وإلى إمامه الأول، أمر بخراب الدنيا، قال للغني أترك مالك واتبعني، ترك الزواج ليقتدي به، قال: أعط ما لقيصر لقيصر، وأعط لله ما لله، ففصل الدين عن الدنيا، أهمل الحدود، فقال للزانية التي شهد عليها الشهود أنها زنت: انصرفي، يدينك من يدين الناس، أهمل الأجسام إهمالاً يؤدي إلى خراب المجتمع الإنساني، فكأنه جاء ليترك الناس الزراعة والتجارة والصناعة ليكونوا ملائكة روحانيين، وهذا محو لحكمة إيجاد الوجود، والبحث فيما خفي في الآثار من آيات موجب الوجود مما هو برهان على عجائب قدرته، وغرائب حكمته، لم

تأنس نفسه بأن يأوى إلى مسكن، نفر من أمه وقال: لست أمي، ومن إخوته وقال: لستم إخوتي، هذه أصول دين أوروبا، والمتمسكون به هم أفراد ليسوا من بني الإنسان، مسكنهم الغابات، فلو أن أوروبا تمسكت بدينها لكانوا همجاً رعاعاً، ولكنهم تركوه بعد أن علموا أنه حجر عثرة في طريق التقدم، وقبر لآيات الله المنبلجة في الآثار التي تنتجها الأعمال والصناعة، وتمسكوا بوصايا القرآن وأعمال رسول الله ﴿ﷺ﴾، واقتداء بالخلفاء الراشدين في عملهم في الدنيا للدين، وتركوا عقيدة القرآن وعبادته وأخلاقه، فهم كما قال تعالى: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾الروم: ٧ . فبعثهم الله على من تركوا دينهم الحق وبدلوا نعمة الله كفراً، فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولاً، ترك القوم دينهم، ولكن عملوا بوصايا ديننا، وتركنا نحن ديننا فصرنا أذلاء.

هل دينهم أمر ببعث البعوث وبعث العلماء في أنحاء الأرض للدعوة ؟ كما قال تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾آل عمـــران: ١٠٤ لا والله، هل من دينهم إعداد العَدد والعُدد للجهاد ؟ لا والله، هل من دينهم تقوية الفكر حتى يجول فيفتق رتق المادة ويعلم ما فيها من الخواص التي أعدها الله لنفع بني الإنسان ؟. كما قال تعالى: ﴿ قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ يــونس: ١٠١. لا والله هل في دينهم العناية بنظافة الأبدان والثياب والمساكن ؟ لا والله، كما قال ﴿ﷺ﴾: « النَّظَافَةُ نِصفُ الإيمَانِ » [1] وبر الوالدين وصلة الأرحام سر قوله تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ ﴾النســاء: ٣٦وقوله تعالى: ﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ ﴾الإســراء: ٢٦، لا والله، هل في دينهم جمع الأموال وعمل المجتمعات بالتعاون كما هي فريضة دينية فرضها الله تعالى « الزكاة » ؟ كما قال تعالى: ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾البقرة: ٤٣، لا والله. وقال تعالى: ﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ ﴾آل عمـران: ١٣٤، لا والله، هل في دينهم أحكام شرعية

(1) أورده الهيثمي في مجمع الزوائد 1/ 236 والعراقي في المغنى عن حمل الأسفار 1/ 49، 134 وأبو نعيم في تاريخ أصبهان 1/ 183 والدرر المنثورة 60.

مدونة تحفظ بها المدن وتحصن بها المجتمعات ويضرب بها على يد الظالم وينصر بها المظلوم ؟ لا والله، ولكنهم أخذوها من ديننا وعملوا بها، إذن فهم تركوا دينهم وعملوا بوصايا ديننا فسلطهم الله على من تركوا دينهم الحق، ونحن أولى بديننا منهم وأحق به منهم، فلو أننا عملنا بديننا — ونحن أهل توحيد الله والمؤمنون بكتب الله ورسله — لواجهنا الله بوجهه الجميل، ورد لنا مجدنا وجعل العالم أجمع أذلاء لنا كما جعل لأسلافنا.

المراد بالعلوم العصرية وفضل المسلمين الأوائل في هذا المجال:

هذه الكلمة لا أفهم لها مدلولاً، لأني لا أعلم علماً يدرس الآن لم يكن له أصل قديم، لأن الإنسان منذ نشأته وهو يكدح في سبيل المنافسة في الحياة، وكلما توفر لديه الضروري نزعت نفسه وراء البحث عن الكمالي، فإن كان المقصود من العلوم العصرية علوم الحكمة العملية من الصناعات والمخترعات التي كانت محصورة في فنون البخار والكهرباء واستخدام الهواء فليست هذه العلوم عصرية، فإن البخار استخدمه الإنسان من أربعة آلاف سنة، فإن الكهنة كانوا يملأون المرجل من الماء ويجعلون له فوهة بصمام، ويوقدون تحته النار حتى إذا امتلأ بخاراً وضعوه في جوف الصنم ورفعوا الصمام فيخرج البخار من الفوهة بصوت مزعج، فيقول الكهنة للناس إن الإله غضبان عليكم، وينالون منهم أغراضهم، وكذلك الكهرباء فإن الإنسان من قديم يعلم قوة الجذب المغناطيسي وتأثير الدلك على جوهر الكهرمان، فكأن تلك الفنون إنما هي نتائج أفكار قرون طويلة.

وإن كان المراد بالعلوم العصرية علم الحساب والهندسة والجبر واللوغاريتم والمساحة وتخطيط الأرض « الجغرافيا »، فإن تلك الفنون لم تَصِرْ علوماً ذات أصول وفروع إلا بسلف المسلمين الصالح، فإن واضع علم اللوغاريتم هو الخوارزمي، وواضع علم الجبر هو جابر بن عبد الله الشهير، وأول من بحث في معرفة خطوط الطول والعرض وحقق تلك المسألة المأمون، وأول كرة صنعت صنعها عالم كبير من علماء المسلمين، وأول من جعل للطب كتباً يرجع إليها الرئيس ابن سينا، فإن قانونه كان يدرس بألمانيا لأواخر القرن الثامن عشر، هذا وإن الدين الإسلامي فرض تعليم العلوم على كل مسلم، لأن العبادة التي فرضها الله علينا لا يمكن أن تؤدي إلا بعلم تلك

العلوم كلها فإن تلك العلوم في حكم الفريضة لأن الفريضة لا تتم إلا بها، قال الله تعالى: ﴿ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ﴾ يونس: ٥.

فكأن تلك العلوم التي نسميها عصرية وتنزعج منها نفوس من لم يحط علماً بأسرار القرآن وينكر تعليمها ليست علوم اليوم، ولكنها تكاد تكون علوماً دينية وقد أثبت طرفاً من ذلك في كتاب (معارج المقربين) فارجع إليه — إن شئت — ولا يكون المسلمون متجملين بمعاني الإسلام حقيقة عاملين به إلا إذا أحاطوا علماً بكل الفنون والصناعات، تنكشف لهم عجائب قدرة الله وغرائب حكمته في مكنوناته، وتنبلج لهم أنوار وظيفة كل مرتبة من مراتب الوجود، وما أودعه الله فيها، كما قال تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ الجاثية: ١٣.

الفائدة الدينية من تعليم العلوم العصرية:

المؤمن يزيد إيمانه وينقص كما هو معلوم، وإنما مزيد الإيمان يكون بقدر ما ينبلج للقلب من نور البرهان، وسطوع نور الدليل، والحكمة العملية التي منها الصناعات لا يمكن أن ينتفع الإنسان بها نفعاً عاماً إلا بعد أن يعلم خواص كل مادة من مواد عناصر الكون، ويعلم خواصها منفردة ومزدوجة ومتحدة، وما ينتج منها متحدة ومنفردة، فإذا ظهر للمسلم خواص الأشياء التي تحيط به وقدر منافعها له واحتياجه إليها، عَلِم حق علم العلم أن الذي خلق تلك الأشياء حكيم قادر لأنه سبحانه وتعالى خلقها مؤهلة لنفعه، وخلقه محتاجاً إليها، معتقداً أن وجودها ليس عبثاً، ولديها تنبلج له أنوار الآيات بعد علم الخصوصيات، فيشهد في كل شيء آية دالة على قدرة القادر البديع وحكمة المبدع العليم، وتدبير المبدئ المعيد ويفقه سر قوله تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ الجاثية: ١٣. ويعلم قدر النعمة عليه بالعقل الذي به استخدم كل شيء سخره له مولاه، فإذا قرأ القرآن بعد هذا العلم كان كأنه يسمعه من ربه، وإن أكثر آيات القرآن حاثة على الفكر والنظر والعبرة والتبصرة، قال أبو هريرة ﷺ: (كنا نتعلم الإيمان قبل القرآن وإذا قرأنا القرآن ازددنا إيماناً) وأصبحنا نحن الآن نتعلم القرآن قبل الإيمان. فالحكمة العملية التي منها تدبير النفوس منفردة ومجتمعة وعلم سياسة المجتمعات وفنون الصناعات به يزيد الإيمان.

أما نقص الإيمان فبقدر خفاء الدليل، وإذا كان المطلوب غيباً والدليل خفياً كيف تنال المقصود ؟ فيكون الإيمان ناقصاً، وبقدر نقصه تكون الجرأة على عمل المنكرات وارتكاب المخالفات، والإقدام على المعاصي وعدم الخشية من الله تعالى في السر والعلن، والخوف من الخلق، وقد يبلغ نقص الإيمان أكثر العلماء والمدعين الإرشاد، أحبوا أنفسهم، وبذلوا ما في وسعهم بجلب الخير لها ودفع الضر عنها، فتهاونوا في تأدية الواجب عليهم من إنذار الناس عاقبة المخالفة، فصار الدعاة إلى الله لا عمل لهم إلا تبشير من أكرمهم والدعاء له وإدخال السرور عليه كائناً ما كان، وصار العلماء يجتهدون في أن يبرأوا من نسبة العلم النافع للدار الآخرة، المذكر بأيام الله المزكى للنفوس لأنفسهم خشية أن يقال لهم: إنكم لستم عصريين. واهتموا بما به يكون العالم قاضياً أو محرراً أو مدرساً، ومتى نال الشهادة اعتمد عليها، وصارت الحجة القوية يوجب بها على الناس طاعته وتعظيمه، وكأن الشهادة هي العلم، والعلم هو الشهادة، فصار المسلمون بذلك كلما فعل المرء منهم سيئة لا يجد من غيره تقبيحاً لها، ولا تخويفاً له من عاقبتها، ألفت نفوس المسلمين رذائل الأعمال.

ولو أن الله تعالى أيقظ الدعاة من نومة الجهالة، والعلماء من رقدة الغفلة، وأحبوا أنفسهم الحب الذي تنال به السعادة الأبدية لقاموا قومة رجل واحد ينبهون المسلمين إلى ما تراكم على أبدانهم من الأدران، التي ربما أدت إلى التهاب الجلد وسرت إلى العظام. وإني – يا أخي – أبشرك بأن كل ما تراه بعينك حاصل من المسلمين من المعاصي، كغبار على جسد مجرد من الثياب، يزول بأول رذاذ ينزل من السماء.

ولو شئت إقامة البرهان على ذلك فقم إلى مواطن الفجور، وذكر الناس بنعم الله عليهم وفضله الواصل إليهم، ثم تخلص من هذا الموضوع بسحر البيان إلى تذكيرهم بيوم الحساب وشدته وهوله فإنك – يا أخي – والله لا ترى إلا قلوباً خاشعة، وأبداناً خائفة، وعيوناً دامعة، ومزاحمة عليك وتعظيماً لك، وإكباراً وبذل النفس والنفيس في محبتك والانقياد لأمرك، ولكنك – يا أخي – إذا وقفت أمام إخوانك المؤمنين وهم في معصيتهم وتسلط عدوهم عليهم فنفرتهم بقوارض كلامك، وأحرقتهم بشواظ حماقتك، فإنك – يا أخي – توقعهم في أكبر مما هم فيه، وتلقيهم في مهاوي الله وغضبه، وإنما الحكيم من عرف كيف ينقذ الغريق من اليم بحيلة لا تلحقه به، وحكمة

لا تضره، قال الله تعالى: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ ﴾ النحل: ١٢٥، وقال تعالى: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾ المؤمنون: ٩٦.

أوربا تفوقت على الجاهلية الأولى
أنواع المجتمعات

مجتمع الحيوانات في الغابات وغيرها:

معلوم أن الحيوانات حرمت العقل الذي يعقل عن الله، ومتى فقد هذا العقل ولو من مجتمع إنساني انحط عن مرتبة البهائم، ولو أنه شاد أعظم المدن وتفوق في الصناعات والفنون. وإليك ما عليه الحيوانات في مجتمعاتها وخصوصاً المفترسة منها يقهر بعضهم بعضاً، لإبادتها وضررها لا ينال منها منفعة، حتى كأنه مطبوع على أنه لا يبقى في العالم غيره، أو لاعتقاده أن وجود كل ما سواه ضار له، أو أنه يقصد أن يجعل بقية الأنواع مستعبَدة له يستعملها في منافعه، فيفترس منها كل يوم ما فيه كفاية قوته وقوت أنثاه، وهذه صفة الحيوانات، فقد يكون كل شخص من نظيره بهذا الحال، فتراها دائماً تتغالب ويهرب بعضها من بعض، والقاهر منها يكون متمتعاً بشهوتي البطن والفرج، وترى بعضها يهلك غيره لأن بقاء غيره نقص ومضرة في وجوده، فإن أبقى الحيوان غيره فإنما يبقيه لأن في طبيعته أنه موجود، ولينتفع به فيستعبده.

وهذه الطبائع التي في المجتمعات الحيوانية تشبه مجتمعات أوربا، فإنها بما أوتيت من آلات التدمير والإبادة تعمل عمل الحيوانات المفترسة، فإنها إذا وجدت قوماً عزلاً من السلاح ليس لهم دين يجمعهم ولا قوة تحصنهم، تغلبوا عليهم فأبادوهم بقوة الحديد والنار، والحجة في ذلك أمريكا وأستراليا ومجاهل أفريقيا. وإذا علموا بأمة متحدة بأخرى ذات قوة ولها دين يجمعها ومدن عامرة بالصناعة والفنون، خدعوها ففصلوها عن الأمة الحامية لها، واستعبدوها أولاً بالخديعة والكيد بدعوى أنهم رجال الإصلاح والرفق بالحيوانات وتحرير الرقيق والرحمة بالمرضى. فإذا تمكنوا بالخديعة والكيد كشفوا الغشاء الحريري الذي على اليد الحديدية، ولطموا الأمة بالحديد والنار كما فعلوا في شمال أفريقيا والهند والصين وجاوا وسوريا وفلسطين وسيبريا وغيرها، مع أن الجاهلية الأولى ما سمعناه عنها في التاريخ لم يبلغ غاية الظلم والجور هذا المبلغ.

وإليك بيان المجتمعات الجاهلية والضالة:

كانت تلك المدن أيام كان دينها مؤسساً على آراء ضالة سافلة مدنا جاهلية، فقد كان يرى بعض من يدعون العلم بأسرار الكون لقومهم آراء أحط من حال الحيوانات فيقول: إنا نرى الموجودات المحسوسة متضادة، وكل واحد منها أعطى مع وجوده قوة يدافع بها عن نفسه من الهلاك، ومعه قوة أخرى يستخدم بها سائر الأشياء لينال باستخدامها السلامة والكرامة ونيل الشهوات، حتى بلغ بهم هذا الوهم الباطل مبلغا صار به كل واحد من أصحاب هذه الآراء، هو الذي يجب أن ينفرد بالسلطة على الغير ونفوذ الكلمة حتى يكون سيد الجميع. وتلك القوى التي ذكرتها لك في الأنواع الحية، كالقرون في نوع البقر والغنم والغزال والكركدن، وكاللطم باليد في السباع، وكالأنياب والزلومة في الفيل، حتى والبراغيث، وكالسرة التي يعرك بها الجمل عدوه، وكالرفس بالرجلين في الحمير، وكالجرأة في النمر، وكاللدغ في إلقاء السموم في الأفاعي، وكاللسع في العقارب، وكالعظام التي في ظهور الأسماك، وكالثوب في الجحر التي تختبئ فيه الزحاف والحيوانات الصدفية، وكسرعة العدو في حيوانات الغابات الضعيفة، وكالأجنحة في الطيور، ومن القوى ما وضعه الحق تعالى في مناقير بعض الطيور كالديكة والباز والنسر من الطيور الجارحة، وكالعقل الذي يكتسب به الإنسان اختراع الآلات والأدوات المدمرة والمبيدة لكل حي، وكقوة التسلق على الأشجار في القردة والنسانيس، وكنظم المجتمع كما في بعض الطيور والنحل والنمل والأنواع التي لها مدينة كالحصون التي تحتمي بها، قال تعالى: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَـٰكِنَكُمْ﴾ **النمل:** ١٨ وشر القوى التي يدافع بها الإنسان عن نفسه ويهلك غيره العقل المكتسب عند أهل النفوس الخبيثة، الذين عطلوا العقل الذي يعقل عن الله بإقتدائهم بأهل الآراء السافلة، التي تجعل المجتمع الإنساني كمجتمع الوحوش الكاسرة في الغابات، وانتشرت تلك الآراء الوحشية بين كل الأمم الجاهلة والضالة حتى كان كل واحد منهم لا يستريح إلا بالانتقام ليكون جباراً في الأرض، كما قال المصري لموسى: ﴿إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ **القصص:** ١٩. كانت المجتمعات كلها قبل الإسلام جاهلية أو ضالة، أو مبدلة وهي مدن أهل الأديان السماوية الذين بدلوا الحق بالباطل. قال أرسطو في زمن الجاهلية لإسكندر المقدوني: « فقر تملك » وكان بعضهم يقول: « اقهر تسد » وآراء أوروبا الآن: « دمر المدن العامرة وأهلك سكانها بالحديد والنار تخلد إلى الأبد، وقدم أفراد الأمة لنار المقذوفات لتستريح من أمتك ومن أعدائك، وتستأثر بالحياة التي لا ينازعك فيها قريب ولا غريب » وقد أيدوا تلك الآراء السافلة بنشر الجحود من القائلين بأن

الإنسان أصله قرد، وأن المادة هي الخلاقة وليس فوقها شيء، وأن الإنسان قادر على كل شيء. كل تلك الآراء المراد منها محو فضائل الأديان السماوية، والكفر بيوم القيامة.

ينحط الإنسان عن رتبة الوحوش الكاسرة، فتصبح الأرض — لا قدر الله ذلك —كما كانت قبل خلق الإنسان، كل إنسان على وجهها وحش كاسر، هذا ما عليه الغربيون الآن، وهي الهاوية التي تلقي بالإنسان في جحيم العذاب في الدنيا والآخرة، فلو تبصرت جيوش الدول الغربية المسوقة ظلماً إلى فقد الحياة، ليتمتع أهل الآراء الباطلة، لثاروا عليهم ثورة لا تبقي منهم أحداً لراحة المجتمع الإنساني. كان بعض ما عليه الغربيون صفات المدن الجاهلية والضالة، حتى أشرقت أنوار الإسلام بالسلام والرحمة والمساواة والحرية، فلما تساهل المسلمون عادت تلك الآراء المضلة، إلا أنها وضعت في عبارات خلابة، وانتشرت تلك الآراء في البلاد الغربية انتشاراً جعل القوم يسمون أرذل الرذائل فضيلة، وشر الظلم عدالة، واختراع الآلات النارية التي تبيد الإنسان إصلاحاً وعلماً. ولم تقف المفاسد عند حدود أوروبا، ولكنه مرض وبئ أصاب كثيراً من أمراء الشرق، فترى الرجل يسعى ليسمي نفسه ملكاً، ثم يقوم ليغتصب جيرانه من الأمم، ويلقي الحروب الطاحنة بينه وبين إخوانه من الأمم المجاورة له بسلاح أوروبا، لتستعبد أوروبا الجميع بعد أن تنهك الحروب قواهم، فيصبح الملك منهم سوقة، ولات حين مندم. فأغاثنا الله لإحياء الروح الإسلامية برجال يحبهم ويحبونه.

الجاهلية الثانية في الدول الغربية

أخطر على الإنسانية من الجاهلية الأولى:

الجهل نقص عظيم، ولكن الجاهل يعذر لجهله، وترك العمل بالعلم نقص عظيم، ولكن العالم لا يعذر بتركه، قال الله تعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾النساء: ١١٠.

كل إنسان على يقين من الموت، وللمسلم يقين آخر وهو أنه سيبعث ويحاسب، فإما إلى جنة وإما إلى نار، فنسيان غير المسلم للموت أو حرصه على الأعمال التي تدل على بقائه ودوامه من الطمع في الدنيا، والبخل بها، وطلبها ولو بإهلاك غيره سببه الجهل بيوم الحساب، وله سبب آخر: أنه يحب أن يتمتع بحياته الدنيا بجميع الملذات والشهوات، حتى إذا مات يكون قد تحصل على نيل جميع شهواته، ولكن المسلم كيف ينسى الموت حتى يظن أنه باق، وهو لا يمضي عليه يوم إلا ويرى نظائره مساقة إلى القبور، بل كيف ينسى ما آمن به من القضاء والقدر ويوم القيامة وحساب القبر، حتى يبلغ درجة من الغفلة تجعله من أهل الجاهلية بتقليده لأوربا، أقول، شراً من الجاهلية، وأقيم الحجة:

أهل الجاهلية ينكرون البعث وينافسون في البقاء منافسة تجعل الدماء رخيصة في جانبها، فكان الواحد منهم يقتل الآخر ليتلذذ بماله، وكانت أسباب ارتزاقهم السلب والنهب، ولكنهم مع ذلك كانوا أهل ذمة ووفاء، وحفظ للعهود والمواعيد، وأهل نجدة للجار، وأهل غيرة على الفضائل الاجتماعية، إذا أكل الرجل مع الرجل أنزله منزلة نفسه، وإذا قال له أعدى عدوه أنا في ذمتك أنزله منزلة نفسه، وكان من وفائهم أن الأسير إذا ذكر المالك له بمقابلته مرة، أو بالأكل معه، أو بالشرب معه، أكرمه وفاء، وحروب بكر وتغلب سببها قتل كليب ناقة لامرأة في جوار جساس، لأن الرجل إذا نزل في جوار رجل جاهلي بذل لأجله ماله ودمه، وحفظ عرضه، قال حاتم الطائي:

وما ضر جارا يا ابنة العم فاعلمي يجاورنا ألا يكون له ستر

وقال غيره:

ونكـــــرم جـــــارنا مـــــادام فينـــــا ونتبعــــه الكرامــــة حيــــث مـــــالا

فكان الوفاء وصدق الوعد والغيرة والنخوة والنجدة من صفات الجاهلية العمياء، مع ما كانوا عليه من الشرور في منازعة البقاء، ولكنا أصبحنا الآن في حالة هي شر مما كان عليه أهل الجاهلية.

كان أهل الجاهلية ينازعون في البقاء بسيف ورمح وسوط، وأصبحنا نقلد أوربا، وأوربا تنازع في البقاء بكل وسائل الشر.

كان شياطين الجاهلية يطلبون بعض الأموال ويتركون النساء والعيال، إلا من دافعهم، فكانوا يقاتلون بالسيف والرمح فلا يقتل إلا أفراد في المعركة لا يعدون على الأصابع، كما يفعل اللصوص ليلاً، ولكن أوربا فاقت الجاهلية العمياء، فلا تكتفي بالمال ولا باستعباد الرجال والعيال، بل بلغ بها الظلم إلى حد أنها تمحو أثر الأمة من على وجه الأرض، بالآلات الجهنمية التي تحصد النفوس حصداً، وإلا فأين المسلمون في الأندلس وفي غيرها من جزر البحر الأبيض ؟ وأين أهل أمريكا الزنوج ؟ شياطين الجاهلية كانوا إذا وعدوا وفوا، ولو وعد الرجل بأن يحضر للقتل، ورجال أوربا المصلحون تكثر وعودهم وعهودهم ويسرع وعيدهم وعذابهم، فهم إن وعدوا إنما يعدوا ليستعدوا لحصد النفوس، ومحو آثار الأمم، وإن احتلوا للإصلاح أفسدوا وتسلطوا على الملوك والعقلاء وأهل النجدة والرأي، فأذلوهم في بلادهم، أو طردوهم منها، وإذا استجار بهم مستجير استعملوه في مضرة أهله. فإن أطاعهم عاملوه معاملة راعي البهائم لبهائمه، فسمنوه وأكلوه، أو غذوه واستعملوه.

تدعي أوربا أنها مصلحة، وناشرة للحضارة والمدنية، ولكن أين إصلاحها وحضارتها لأمريكا، أصلحت ولكن إصلاحها لمن ؟ هل أصلحت السكان الأصليين ؟ لا.. ولكن أصلحت نفسها بالسيادة والترف، والاختصاص بالخير دون غيرها من أهل البلاد.

يدَّعون أنهم جاءوا لرقي الأمم، ودفع المضار عنهم، ولكن أين أثار هذا الرقي ؟ وأين آثار هذا النفع ؟.

ظهرت آثاره جلية في سلب الملك من أهله، وحشو السجون بكبار الرجال، وحصد النفوس في الشوارع، وإطفاء شعلة العقول والأفكار، وغل الأيدي، وقطع الألسنة، حتى أصبحت الأمة المحتلة بدولة من دولهم أجهل من سكان أواسط أفريقيا، وأذل من الحيوانات الداجنة، قال العربي:

لا يحمــــلُ الضَـــيْم في أرضٍ يعـــيشُ بهـــا   إلا الأذلان عـــــــيرُ الحـــــــي والوتـــــــدُ
هـــذا علـــي الخســـفِ مربـــوط برمتِـــه   وذا يشـــج فـــلا يرثـــى لـــه أحـــدُ

أصبحت الأمم المحتلة بدول الإفرنج كالحمير، تستعمل حتى تكاد تموت، فإذا مَلّت العمل قيدت بالحديد، وعلقت من رقبتها في السلاسل، وقدم لها قليل الطعام، فهي مغلولة في راحتها، متعبة في عملها، وكذلك الأمة المحتلة تعمل بالقهر، فإذا استراحت من العمل كلفت ألا تتكلم ولا تكتب، أو تزج في السجن.

هذه هي مدنية أوربا وحضارتها، وهذا هو إصلاحها ورحمتها، فاقت الجاهلية الأولى في منازعة البقاء، فصار القوم عبيد المادة، وصارت قلوبهم أقسى من الحجر، وصار عمل الخير لديهم وسيلة لإهلاك العالم أجمع، يؤسسون جمعية الرفق بالحيوانات، وينشرون المدارس والمستشفيات، وينشرون المبشرين بالدين المسيحي، ويعينون في كل عمل من أعمال الحكومة رجالا منهم بدعوى الرحمة بالأمة، ونجاة الأفراد من ظلم إخوتهم، عمل ظاهره خير، وباطنه من قبله العذاب.

جهل الشرق قصودهم فطنطن أهل الغفلة بمدح حضارتهم، ونشر أهل الأقلام على صفحات الجرائد رحمتهم وإصلاحهم، حتى أصبح أهل الغرور يصوغون عقود المدائح للإفرنج على ما جاءوا به للشرق من إطلاق حرية العهارة والخمر والربا، حتى ذمت الفضائل، وحبذت الرذائل، وسارع ملوك الشرق وأمراؤهم وأغنياؤهم إلى تقليد الإفرنج في المأكل والمشرب والملبس والمباني، والأساسات المنزلية والاجتماعات، بحالة أفسدت على الشرقيين دينهم وعرضهم، وأضاعت ملكهم

وأموالهم، حتى انتهى الأمر باستعبادهم وذلهم، باستيلاء المحتلين على قوة الجيش والمالية والزراعة والتجارة والتربية.

وأصبحت ترى الشرقي يحب أن يرى امرأته وبنته وأمه في الأسواق، بل وفي مسارح اللهو، يشهدون تمثيل القبائح والفضائح، بل ويخرج إلى الأماكن التجارية للإفرنج، ويسره أن تغازل امرأته وبنته وأمه التجار والخدمة، يأخذ ابنه وأخاه وصاحبه، ويتوجه إلى بيوت الخلاعة ويجلس فيلاعب فتيات الإفرنج الذين يقدمون المشتهيات أمام ابنه وأخيه، فيفسد نساءه نهاراً ويفسد أفراد العائلة ليلاً، وإذا أخذ الرجال وخرج، اجتمع نساؤه وخرجن بنية استنشاق الهواء في الرياض والمتنزهات، ويعلم قدر ما أضاع هذا المغرور بحضارة أوربا من دين وشرف ومال، بل وقدر ما أضاع من متاعب المزارعين والعمال عنده، لأنهم حصلوا له هذا المال بعرق جبينهم وتعب أبدانهم، وعاشوا في جوع وعرى ونكد، وأخذ نتائج أتعابهم فأنفقها على غير مستحقها من الإفرنج، ولا يمضي زمن إلا ويسلب الإفرنج أطيانه، ويرجع بخفي حنين، هذه هي رحمة الإفرنج، وهذه عاقبة من قلدهم وحبذهم لغيره، وهذه هي حقيقة الماديين الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، ممن شنع الله عليهم بقوله: (رضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها).

وهل بعد كشف الستار عن تلك الحقائق يعذر من قلد الإفرنج أو أحبهم أو والاهم وساعدهم، اللهم إلا إذا كان أبوه إفرنجياً وكانت أمه غير عفيفة، فإن المثل الفلاحي يقول: (الدم يحن) سلوا – يا قوم – الأندلس أين المسلمون الذين فيك ؟ سادوا وشادوا وعمروا وأسسوا، وكان عددهم أكثر من اليونان وبلغاريا وصربيا ورومانيا بل وأكثر من بلجيكا وهولندا والدانمارك وسويسرا، لا أبعد بك، سلوهم أين ملوك الهند وأمراؤهم ؟ وأين ملوك مصر وحضارتها وعلماؤها وقادتها ؟ وأين مدنية المغاربة والمشارقة ؟ وأين صناعاتهم وفنونهم التي أدهشت عقول فحول الصناع في أوربا ؟ لا تزال مصنوعات الشرق قبل الإسلام تحير أفكار المخترعين، ولا تزال مخترعات الشرق في العصر الإسلامي تذل أمامها عقول المتفننين، وإنا – والحمد لله – قد قامت الحجة على قصود الإفرنج ونواياهم، من منازعة الحياة منازعة يقصد بها محو الشرق وأهله، لتصبح آسيا وأفريقيا أمريكا ثانية، ولكن تحقق الإفرنج أن الدين الإسلامي هو دين الله الحق، وأن الله سبحانه وتعالى حافظ دينه، وتحققوا أن الإسلام هو القوة المعنوية الحسية التي تحارب تلك الرذائل المادية،

وتدفع منازعة الحياة الشيطانية، فهموا بما لديهم من القوة والمخترعات أن يطفئوا نور الله بأفواههم ليتمكنوا من الشرق وأهله، والله تعالى غالب على أمره.

نشروا المبشرين في الآفاق، فوجدوا أمامهم سد يأجوج ومأجوج، لأن المسلم الذي بين له دينه مرتبته من الوجود، وأعلمه أن الله تعالى خلق له ما في السموات وما في الأرض، وأعد له بعد الموت نعيماً مقيماً في جواره، لا يقبل من المبشر أن امرأة ولدت ولداً من الله تعالى، وأن إنساناً نظيره يحل ويحرم، ويغفر ويعذب، ويقبل التوبة من نظرائه، وأن الله المنزه القدوس له ولد، وكيف يقتدر الإفرنج على هذا النور، وقد سجد له العقل، واطمأن به القلب، وثلجت به النفس، بل وظهرت قصودهم من الاستعمار، وقد آن للشرق أن يعيد ما كان له من المجد، وهذا أمر سهل على جماعة المسلمين، لأن الله تعالى أغناهم بكنوز بلادهم، وحفظهم بما أودعه فيها من جو صاف، وهواء معتدل، وماء نمير، وأرض خصبة، وفكر ثاقب، وأجسام قوية نشيطة، فالشرق في غنى عن الغرب بما منح الله أهله من العقول الراجحة، والنفوس القابلة للخير، والكنوز المعدنية، والأراضي الخصبة، وما بقي إلا اليقظة والعمل، والنظر إلى رجال الإفرنج بعين التحفظ، حتى يتمتع الشرق بما آتاه الله، وينفع الأمم الأخرى بمجهودات أفكاره، وبعمل جوارحه، حتى يعيش الشرق في هناء وصفاء، نافعاً حراً مريداً، ويتخلص من الذل والاستعباد، فتحتاج إليه أوربا في كل شيء.

أوربا تقول لتخدع والإسلام يعمل لينفع (وشتان بينهما):

ليس من يقول ليخدع كمن يعمل لينفع. يظن من يجهل روح الإسلام أن دول أوربا هي دول الإصلاح والسلام، وهم في الحقيقة دول الطمع والحرب على أنفسهم قبل غيرهم، لأنهم أسسوا رقيهم في هذا العالم على ثلاثة أسس: أولها: ما اخترعوه من الآلات الجهنمية. وثانيها: ما أتقنوه من نقض العهود وخديعة الأمم. وثالثها: ما ابتدعوه من مفسدات للعقول، ومن سعى لاختلاف الأمم الإسلامية خاصة، والشرقية عامة بعضها على بعض، ومن خروج كل هيئة من الهيئات في كل أمة على بعضها. ولكن خاب فألهم، فإن غير المسلمين في الشرق تذكروا حسن المعاملة وخير الجوار بين المسلمين قروناً طويلة، وتحققوا مقاصد دول الاستعمار من إبادة النفوس، وسلب مرافق الحياة، وتدمير المدن العامرة. وليست أستراليا وأمريكا والأندلس ببعيدة عن الذاكرة،

بل ولا فلسطين وسوريا والريف والهند والسودان وجاوا والموصل والعراق بغائبة عن الحس، فإن دول الاستعمار سلبت صناعات القوم وفنونهم وتجاراتهم وزراعتهم، فأصبحت كل أمة أذل من الرقيق في أوطانها. ولم يكف تلك الدول سلب مرافق الحياة حتى سلبت عاداتهم الفاضلة، وأخلاقهم الجميلة، ووحدتهم القومية. ثم تعدت ذلك حتى سلبت من قلوبهم العقيدة الحقة بزخارف كلامية، فأصبح القوم – وخصوصاً بعض من تلقى العلم منهم في الأزهر – يكذبون القرآن في أخباره، والتوراة في قصصها والإنجيل في روايته عن الأنبياء، بوقاحة يخجل أن يرتكبها إبليس، لأن إبليس يوسوس فإذا تمكن من قلب الجاهل قال: إني برئ منك، إني أخاف الله رب العالمين.

فليحذر الظالم نقمة الله في أكمل ما يكون من الأمن، وليخش قهره في أشد ما يكون من القوة، فإن الله تعالى لا يعجزه شيء.

أحذر من يكرهك طمعاً فيما في يدك:

من عادى الإنسان طمعاً فيما في يديه لا يرضى عنه بغير سلبه، فإذا سلبه لا يرده بغير القوة القاهرة، فلا تصدق وعده ولا ما يمنيك به، ولكن اعمل لنفسك حتى تشعر بالقوة، أو تركن إلى ركن شديد، ولديها اطمع أن تسترد ما سلب منك بالعمل، لا بالقول والأمل.

التائب من الذنب كمن لا ذنب له:

معنى هذا الحديث الشريف والله أعلم ورسوله، أن التائب من الذنب يمحو الله سيئاته حتى لا يبقى عليه ذنب، أو يبدل الله سيئاته حسنات حتى يكون كأنه لم يتنجس أبداً، وقد ثبت برهان ذلك. فإنا جماعة المسلمين خالفنا وصايا نبينا وتعدينا حدود ربنا، فسلط الله من كانوا أرقاء يباعون في أسواقنا على من تعدوا حدود الله تعالى، فأيقظنا من رقدة الجهالة ونومة الغفلة، وعملنا بوصايا نبينا، فجمع الله قلوبنا وأيدنا بروح منه، وأذل لنا أعداءنا، ومكن لنا في الأرض بالحق، له الحمد وله الشكر. ولا عجب فإن الله تعالى يقول: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ البقرة: ١٨٦.

ودليل ذلك ما تفضل الله به علينا بنصرة إخواننا أنصار الله في الأناضول، وبقيام كل مجتمع من المسلمين في كل أرض مطالب بحقوقه الشرعية في بلاده بعزيمة خالصة، ونية صادقة لله رب العالمين، بعد أن كنا جميعاً نتغنى برحمة أوربا وحضارتها ومدنيتها، ونلقي بأنفسنا في حضانة أممها، ونبذل النفس والنفيس لننال الراحة والسعادة بهم، جهلا منا بما كان لسلفنا الصالح، وجهلا بما في أيدينا من نعم الله وخيراته. حتى ابتلينا بهم فأهلكوا الزرع والضرع، وسلبوا الرحمة والعدل، كنا لا نتحمل السوط فأصبح الشرق ميداناً لمقذوفات النيران وتمزيق الجلود وقصم العظام.

هل هذه الرحمة التي كنا ننشدها !! والمدنية التي كنا نتلهف عليها.. ولكن والحمد لله الذي أظهر لنا نوايا أوربا بنا وخصوصاً دولة الإنجليز، فإنا نسمع كل يوم خطب المستر كرزون [1] وبياناته التي ترمي إلى محو الإسلام والمسلمين، وإعانة غير المسلمين ولو كانوا لا يعدون على الأصابع، كالأرمن وسكان تراقيا من اليونان والبلغاريين، وجعل الأقليات سلّماً لظلم المسلمين وتظالمهم، ولم يرد بذلك إلا إظهار العداوة الكبرى لأهل الإسلام، نسمع خطبه في تمزيق الجامعة الإسلامية، واستخدامه بعض من لا خلاق لهم لتفرقة المجتمع الإسلامي، وفَصْل أعضائه من جسده كالحجاز والعراق والموصل وفلسطين، كما عملوا من قبل في عمان وحضرموت ومصر وغيرها من الأمم الإسلامية. ولكن القهار المنتقم الذي خلق السموات والأرض بالحق وأقامها بالعدل لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يهب الملك لمن يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، ويعز من يشاء، بيده الخير وهو على كل شيء قدير.

(1) المستر كرزون: كان وزيراً لخارجية إنجلترا في ذلك الوقت.

الفصل الثاني: الحرية

الحرية الحقة وآثارها في النفوس البشرية ونتائج ذلك في الإنسان وغيره:

الحرية لغة عدم حبس النفس للانتفاع بها، واصطلاحها: خلوصها من قيود الرق والاستعباد والذلة والاضطهاد. وهي بهذا المعنى صادقة على الفرد والجماعة، فالأمة لا تعد حرة ولا تعتبر مستقلة إلا إذا كان لها تصرف عام في جميع شئونها، وتدبير خاص في أحوال معاشها، ومتى كانت كذلك نالت بغيتها وبلغت أمنيتها، وحق لها أن تنافس غيرها من الأمم المجاورة لها والنائية عنها. أما إذا فقدت هذا المجد الميسور باستسلامها لعدوها وتسليمها إياه قياد أمورها، فقلّ أن تبلغ أملا من آمالها، أو تنال غرضاً من أغراضها، بل أنها تعيش عيشة مرة تسام فيها الخسف والجور، وتعدم بسببها العزة والنعمة.

وبئس هذه حياة. فإن الإنسان الذي خلقه الله ليعيش حراً يتحرك بإرادته ويسكن بإرادته، ظلم نفسه وغيره، فسلط الله عليه أشر أشرار خلقه، فسلبوا منه حريته وضيقوا عليه جولته فأصبح ذليلاً بعد العزة، ضعيفاً بعد القوة، وضيعاً بعد الرفعة، فرحماك اللهم رحماك.. قد خلقت الإنسان وفضلته على كثير ممن خلقت، ثم منحته بجانب ذلك قوة اختيارية يتحرك بها إذا شاء، ويسكن متى شاء وكيف شاء، فهل طرأ طارئ غيّر الإنسان فجعله يعمل برأي الثعلب، ويمشي على مذهب الجراد، ويحكم بحكم العقارب ؟ أم هذه نقمة منك أنزلتها به فصيرته كذلك ؟ أنت يا مولاي خلقته ضعيفاً ولا حول ولا قوة إلا بك، فكيف تكله إلى نفسه حتى تمكن منه عدوه وتنصره عليه وتخذله أمامه ؟ فاللهم رحمة منك بعبادك الضعفاء، وحناناً من لدنك بعبيدك الأذلاء، فأنت المعز وأنت المذل وأنت على كل شيء قدير.

هل الحرية خاصة بالإنسان فقط أم له ولغيره ؟

اعلم أن لكل شيء من الأشياء نفساً تتأثر بالخير أو الشر حقيقة أو حكماً، ولكن تختلف مظاهرها باختلاف ذواتها وأعيانها، فهي في الإنسان والحيوان غيرها في النباتات والجمادات، لأنها في الأوّل عبارة عن القوة التي تصدر عنها الأفعال وتتأثر بالطوارئ. أما كونها في

الثاني فهي عبارة عن حال إلهامية يمكنه بها معرفة الخير فيسكن إليه، والشر فيعرض عنه ويتململ منه. وأما كونها في الثالث والرابع فهي عبارة عن رقة في جوهرهما ونضارة في ذاتهما، وبهجة في شكلهما، فإنْ حدث ما ينافي حقيقة فطرتهما ولا يلائم طبيعة زهوتهما، فلا شك أنهما يتغيران في الحال، تغيراً يدل على أنهما فقدا حريتهما وعدم استقلالهما. ومن هنا تعلم أن الأشياء كلها تشارك الإنسان في طلب الحرية، غير أن هذا الطلب يختلف اختلافاً متبايناً بحسب اختلاف العوالم، فالإنسان يطلب الحرية بلسان المقال، وغيره ينشدها بلسان الحال.

آثار الحرية في النفوس البشرية:

تعتبر كلمة الحرية في العالم بمنزلة الكلمة الطيبة في الكلام الخاص، فإن جميع النفوس بشرية كانت أو عجماوية تطلبها، وأقرب دليل على ذلك الطير السائح في جو السماء، فإنك إذا أمسكت بواحد منه ثم حبسته في قفص فإنك تراه يتأثر لذلك الحبس كثيراً، وبذل مجهوده في الخروج منه ليتمتع بالحرية المطلقة والإرادة التامة، لذا لا يهدأ له بال ولا يطمئن له خاطر إلا إذا أفلته. وإذا كان هذا حال الحيوان الذي لا يعقل، فما بالنا بالإنسان الذي وهبه الله تعالى قوة الإدراك ومنحه العقل والتمييز ؟

فيا أيها القوم الذين نصبوا فخاخ المكر والخديعة لبني الإنسان طمعاً في مص دمائهم، ورغبة في استنزاف أموالهم، وطلباً في سلب حريتهم، وحباً في الانتقام منهم، انظروا إلى العالم بعيون بصائركم قبل أن تنظروا إليه بعيون أبصاركم، فإنكم والحالة هذه، لا تودون أن يضغط أحد على حريتكم، أو يتصرف في إرادتكم، فكيف تحبون ذلك لغيركم ؟ ألستم خُلقتم من طين وماء مهين ؟ أم أنتم خلق آخر ترون المذلة لغيركم هي عين المعزة لكم ؟.

أيها القوم.. حرروا ذلك الإنسان الظاهر من العبودية الباطلة، وأعطوه حريته، وخلصوه من قيود الرق والاستعباد والذلة والاضطهاد، فإن الله تعالى ما خلق هذا الخلق ليعبدكم من دونه، ولكن قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾الذاريات: ٥٦فكيف يحل لكم بعد هذا أن تنازعوا الله تعالى في هذا المجد الذي خص به نفسه ؟.

أيها القوم.. لا تغرنكم هذه الحياة الفانية جهلاً بحقائق الحياة الباقية، فإن لكم أجلا لا يعدوكم، وسترجعون بعد إلى ربكم، فيحاسبكم بأعمالكم، ويؤاخذكم بما كسبت قلوبكم، فهيا واستعدوا للحساب برحمة الضعفاء، ولا تنازعوا الله في رداء الكبرياء، وكفوا عنا وعن الخلق مظالمكم، قبل أن يسلط الله عليكم من هو أشد منكم قوة وأكثر جمعاً، فيحل بكم العذاب من حيث لا تشعرون.

بم تنال الحرية ؟

قد علمتَ مما سبق أن الحرية عبارة عن خلوص حركات النفس وتصريفها بالإرادة في وجوهها المشروعة، فإذا وجدت هناك ضواغط تمنع الاختيار بتاتاً، أو تخرج به عن خلال الاعتدال، فقل على الحرية السلام. وحينئذ يجب على الفرد أو الأمة التي فقدت هذا المجد وذهب عنها هذا الشرف أن تتخذ أنجع الوسائل في الحصول عليها، والسعي في ما يقرب إليها، وهذه الأسباب وتلك الوسائل أهمها ما يأتي:

1- حب الفضائل وبغض الرذائل والمحافظة على حقوق الله تعالى حسبما في الإمكان والاستطاعة.

2- الاتحاد بين الأفراد والجماعة.

3- تحسين الصناعة وترويج البضاعة وتخصيب الزراعة.

4- الاستغناء بمحصولات البلاد ومصنوعاتها ومنتجاتها عن الأشياء المجلوبة من الخارج.

5- استعمال قوة الاختراع في الماديات التي لا تستغني الأمة عنها غالباً.

نتائجها:

نتيجة الشيء عبارة عما يؤول إليه من خير أو شر، ولا تنتج الحرية إلا خيراً محصناً يكاد أن ينحصر فيما يلي:

1- الفرد أو الأمة متى كانا حرين أمكنهما أن يعملا بجد ونشاط فيما يحسن به أمر معاشرتهما، وتحصل به سعادتهما ويعم به الخير لبلادهما.

2- إغلاق باب الشرور والمفاسد، فإن الأمة المستعمِرة تعمل دائماً على إيقاع الضرر بمن استعبدتهم وأذلتهم، ولا سبيل لدفع هذه المصائب ورد هذه المحن إلا باستقلال النفوس وجولانها في ميدان الحرية، وسيرها على مقتضى الطبيعة البشرية، فإن الذل أمرّ على النفس من الحنظل، وأثقل عليها من الجندل.

3- إذا أطلقت النفوس من قيود استعبادها؛ وصارت لها الخيرة في تصريف حركاتها وسكناتها، فلا غرو أنها تعمل أعمالاً يبتسم لها الدهر، وتمجدها الأيام، ويسجلها التاريخ، ويكون لها الفخر على سائر الأمم بما ينالها من العز والمنعة والقهر والسلطان، وتصير أيضاً قوة ومثالاُ حسناً للأمة المجاورة لها والنائية عنها، بل يضرب بذكرها المثل فترتفع بذلك فوق عنان السماء، وتناطح بشرفها ورفعتها الجوزاء، ونعمت أمة هذا حالها. فيا معشر المسلمين: إني لكم ناصح أمين، فاستيقظوا من غفلتكم، وتنبهوا من رقدتكم، وشمروا عن ساعد جدكم، وسيروا على منهج سلفكم، حتى تعيدوا مجدكم والله ولي المؤمنين.

الظلم مرتعه وخيم:

الإنسان من حيث هو إنسان شر من الشيطان، وأضر من الوحوش الكاسرة على نفسه وإخوانه من بني الإنسان والعالم أجمع إن لم يتداركه الله تعالى بالعناية ويزكي نفسه ويقهر حسه. فإن الإنسان جمع الحقائق الحيوانية بكل أنواعها، والحقائق الشيطانية بجميع مقتضياتها، فهو منفرد يمثل أفراد كثيرة من أنواع الوحوش والحيوانات، وأنواع القوى الشيطانية، ففيه قوة الحسد التي لا يقر لها قرار حتى تسلب نعمة المحسود أو تهلكه، وفيه قوة تمزيق الأعضاء أشد من السبع الكاسر، لأنه قد يدس السم في المجتمع من غير أن يتحرك حركة ولا أن يُعلم فيهلكهم جميعاً. وقد يسلط الظلمة على مجتمع بالغيبة والنميمة فيهلكهم، وقد يخترع آلة يحملها على كتفه أو يديه فيهلك بها مجتمعاً

كالمدافع الرشاشة، وكمقذوفات المدافع الضخمة والطيارات والغواصات، وقد يدخل الإنسان على مجتمع فلا يلبث إلا وقد أفسد أخلاقهم، وأثار ثائرة الشرور بينهم، ويصبح كل واحد منهم وحشاً كاسراً وشيطاناً منفراً.

هذا هو الإنسان من حيث هو، لأن الله تعالى أودع فيه من القوى ما لم يودعه في كل الأنواع الحية من الملك والملكوت، فالإنسان إذا وكله الله إلى نفسه كان شراً من الشيطان، وأضر من الحيوان. ومع هذا فإن الحَكَم العدل القهار المنتقم لا ينسى ولا يغفل ولا يغيب، وبينما يكون الإنسان في استعمال تلك القوى للإفساد والإضلال، وإذا بالحكم العدل باغته فأذله، وسلب منه ما منحه من النعم، قال سبحانه وتعالى: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾ **الأنعام: ٤٤**هذه الآية دالة على أن المجتمع الجاهلي من بني الإنسان لا يعجل الله له النقمة، ولكن يبعث فيهم رسولا يبين لهم طرق الحق وسبل الخير، فإن أمدهم بالتوفيق والعناية قبلوا وأقبلوا، وإن وكلهم إلى أنفسهم — أعاذني الله وإخواني جميعاً — أنكروا وأدبروا، فلا يلبثون إلا وقد باغتتهم النقم، وعاجلتهم الشدائد، لأن الله حكم عدل لا يظلم الناس شيئاً، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ **الإسراء: ١٥**.

نسى أهل الشرق ما ذكرهم الله به على ألسنة رسله، والشرق مهبط الوحي، فأسرع إليهم بالعقوبة وسلط عليهم أهل الغرب، وما كان لهم أن يسلطوا عليهم لأن أهل الغرب لم يبلغوا رتبة الإنسانية التي بها الإنسان يقبل الحق، ولو بلغوها لبعث الله إليهم رسلاً، قال تعالى: ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ﴾**الأنفال: ٢٣**فلم يكونوا في نظر الله أهلاً لأن يدعوهم إليه لأنه هو الحكيم الخبير، فكانوا في نظر أهل العقول الكاملة كالحيوانات الراقية المقلدة للأعمال الإنسانية، كالنسناس والقرد والخيل وما أشبهها. وما كان لتلك الأنواع وإن بلغت كمالها الحيواني أن تسلط على الإنسان فتستعبده وتذله، إلا إذا أراد الله ذلك ليظهر دلائل غضبه وآيات سخطه على من أهّلهم للسماع منه وعنه وقبول أحكامه.

تسلطت أوربا على الشرق فابتدأت بالقارة المجهولة منه التي تسمى الآن بأمريكا، وكان سكانها من الجاهلية العمياء المجردين من الفكر والسلاح، وأهل أوربا لاختلاطهم بالمسلمين في الأندلس والبندقية وسكان آسيا الوسطى ومصر والمغرب انتفعوا بشيء من المسلمين، ولكن هذا النفع استعملوه في الحسد الإبليسي، والطمع القابيلي، وكلنا يعلم حسد إبليس لآدم، وطمع قابيل في أخته حتى خالف الله وقتل أخاه وعق والديه. فكذلك سكان أوربا انتفعوا من المسلمين بالغيرة، ولكن جعلوها فيما يكرهه الله تعالى من الظلم والتظالم. وبعلو الهمة، ولكن جعلوها للكبرياء في الأرض بغير الحق والتسلط على الخلق. وبتحصيل الفضائل، ولكن جعلوه في سلب حقوق العباد ومحو آثار الفضائل والكمالات من البلاد. أمهلهم القهار المنتقم أدباً لعباده المسلمين، فكفروا بالله إنكاراً لقوته وقهره وقدرته فأظهروا الفساد في البر والبحر، وأضلوا العباد، وأفسدوا البلاد، واعتقدوا أنهم آلهة لا ينازعهم قوي إلا قهروه، ولا يمانعهم ذو حق إلا أذلوه، ونسوا سريع نقمة المنتقم، وعاجل بطش القهار، بل ونسوا نشأتهم الأولى التي هي بولة من ذكر أبيهم، ومن فرج أمهم، ولم يتذكروا الموت الذي يرونه في كل يوم بأعينهم في أنفسهم وأهليهم وجيرانهم. اشتد ظلمهم في البر والبحر حتى أحزنوا سكان سموات الله من الظلم والتظالم، والله تعالى يمهل ولا يهمل، قال سبحانه وتعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾يونس: ٢٤وصدق الله العظيم. فلتطمئن قلوب المسلمين وأهل ذمة الله معهم، والأمر إذا انتهى إلى حده رجع إلى ضده.

انظر إلى الشرق وإلى وما كان فيه من اتحاد القلوب والتعاون على الحق ومن مسارعة المسلمين في عبادة الله وطاعته وما كانوا عليه من الرحمة بينهم، وما كانوا فيه من الخير والسعادة، وما كان لهم من الهمم العلية في نشر العدل والمسارعة لسعادة المجتمع الإنساني. كيف طمس الإفرنج معالمه ودرست آثاره، وأظلم جو الشرق حتى كاد يكون كالغابة التي بها أنواع الحيوانات المفترسة وغيرها، يأكل قويهم ضعيفهم، ويؤذي رجال الدين بعضهم بعضاً، فترى العالم يسارع إلى الكافر الظالم يتملق له ليؤذي أخاه العالم طمعاً إلى التقرب في عدوه وعدو ربه، تحصيلاً لما في يد

أخيه المسكين، مع أنه يرى الكافر الظالم مستعبداً قومه، مستولياً على كل شيء كان في يده، فيحارب العالِمُ العالِمَ والولدُ أباه والأخُ أخاه والجارُ جارَه.

عجباً !! أين تلك العزة التي كانت للمؤمنين ؟ وأين تلك الغيرة لله التي دان لهم بها الخلق أجمعون ؟ وأين تلك المسارعة إلى نيل فضل الله ورضاه ؟ والعمل منافسة في التشبه بأصحاب رسول الله ؟ بل وأين تأثير العلم الذي تعلموه ؟ والعبادات التي يتقربون بها إلى الله تعالى ؟ لا تعجب، فقد أهملوا تزكية النفوس فخابوا وضلوا، وتركوا تطهير القلوب فالتفت عنهم علام الغيوب، ووكلهم إلى أنفسهم فاستُعبدوا لأذل الخلق ممن كانوا مماليكهم أيام كانوا أعزاء بالتقوى.

وفي الأثر: (لا يسعد آخرُ هذه الأمةِ إلا بما سعد به أولُها)، وبم سعدنا ؟ سعدنا بالعمل بكتاب الله وسنة رسول الله، وقد آن الأوان، وليس بيننا وبين أن نسعد السعادة الدائمة إلا أن نرجع إلى الحق، وإلى الاقتداء بالسلف الصالح من الصحابة الكرام وعمل الأئمة، ليكون الله تعالى معنا ورسوله ﴿ﷺ﴾ وقد ظهرت دلائل انتقام الله من الإفرنج فقد سلط الظلمة على بعضهم. وفي الأثر: (إن الله لينتقم من الظالِمِ بالظالِمِ) وفي الحديث: « إن اللهَ ليملي للظالِمِ حتى إذا أخذه لم يُفْلِتْهُ » هذه الذكرى، والذكرى تنفع المؤمنين. وقد وعدنا الله في كتابه العزيز بقوله: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ﴾المائدة: ٥٤فإنه سبحانه وتعالى جعل حبيبه مُحَمَّداً خاتم الرسل، وجعل أمته آخر الأمم، وقال في كتابه: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾آل عمـران: ٦٨فهو ولينا، ويُظهر في كل زمان رجالاً يعلون كلمته، ويجددون سنة نبيه، فلا تخلو الأرض من قائم لله بحجة. وإنا والحمد لله نرى في كل أرض رجالاً صغرت في أعينهم الدنيا والشهوات والآمال، قاموا لله يذكِّرُون إخوانهم، ويدعونهم إلى أن يكونوا قوامين لله بالحق ولو على أنفسهم أو الوالدين والأقربين، إما ظاهرين مشهورين أو خافين مغمورين، فعلى كل مسلم أن يقوم لله مخلصاً، وأن يعتمد عليه جلا جلاله معتقداً نيل النصر، قال الله تعالى: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾آل عمران: ١٢٦وأنواع المجاهدة في سبيل الله كثيرة لا يعجز المسلم عن القيام مجاهداً في سبيل الله بقدر استطاعته، في كل بلد، قال

﴿ﷺ﴾: «كلُّ واحدٍ من المسلمين على ثغر من ثغور الإسلام فإذا تهاون إخوانُك فَاشدُدْ لئلا يؤتى الإسلام من قِبلك » [1]، وقال ﴿ﷺ﴾:

« احفـظِ الله يحفظْـكَ، احفـظ الله تَجِـدْه أمامـك، كـن مـع الله تـر الله معـك » [2]..

﴿وَمَا تَوْفِيقِيَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ هود: ٨٨.

رحمة المسلمين بأهل ذمتهم:

للإسلام صولة على القلوب تقوى بها مراقبة الله والخشية منه، مهما كانت دواعي الانتقام والظلم والتظالم، وعلى ذلك ألف دليل ودليل. مضى على الإسلام أربع عشر قرناً أكثرها كانت الصولة والسلطة والقوة والسلطان للمسلمين على العالم أجمع، ولم تخل بلد من بلاد المسلمين من وجود أقليات إذا نسبت إلى المجتمع كانت كواحد من مائة، وتلك الأقليات بين يهود ونصارى وصابئة، ولكن كان الأجنبي إذا دخل بلاد المسلمين لا يخطر على قلبه أن هذا المجتمع فيه رجل يدين بغير دين الإسلام، لما يراه من الحرية المطلقة والمساواة الفاضلة، وكثيراً ما كانت تحصل الحوادث العظام من الحروب الطاحنة بين المسلمين وأوربا، ويحصل في خلال ذلك ميول ومساعدات وتشيع وتعصب من الأقليات الإفرنج بسبب الدين، والمسلمون يعطفون عليهم كعطف الأم الشفيقة على الولد الوحيد، فإذا انجلت الحروب تناسى المسلمون هذا العكر، وحصل الصفا كما كان، ولولا ذلك لما وجد في أفريقيا وآسيا الوسطى والشمالية من يدين بغير دين الإسلام. أشربت القلوب حب الإسلام مما تجمل به أهله من الرحمة ومراقبة الله في السر والعلانية. حتى انتشر كانتشار ضوء الشمس على الأفق، وهذه الأقليات في نمو وكثرة وسيادة. ولكن انظر إلى غير المسلمين ممن أساس دينهم: (من لطمك على خدك الأيمن حول له الأيسر) كيف أثر عليهم دينهم التأثير الذي يقتضيه من عدم مراقبة الله والخشية منه سبحانه، إنهم ما دخلوا مجتمعاً إلا محوا أهله.

---

(1) سبق تخريج هذا الحديث.

(2) رواه الترمذي في كتاب الفتن الباب السابع.

وإليك مقارنة بين محكمة التفتيش وبين حادثة حصلت من سلطان تركيا: همَّ سلطان تركيا أن يُكرِه نصارى بلاده على الإسلام بالقتل لما قاموا به من الفتن الداخلية، والعصابات الدموية، والإفساد في الأرض، فاستفتى الإمام أبا السعود صاحب التفسير الشهير، فأفتاه مشدداً عليه باتباع السنة والرحمة بهم، وإقامة الأحكام الشرعية على ما هي عليه، فأخبره بأعمالهم، فقال: مهما عملوا فإن الشريعة لم تترك حادثاً من الأحداث. وانظر إلى محكمة التفتيش، التي لو صورها الكاتب على صفحات الأوراق لأذابت القلوب وأدمعت العيون. ثم انظر بعد ذلك إلى الأندلس وما كانت عليه وما آلت إليه، كان بها ثمانية ملايين من المسلمين، فأغرقوا في البحر وأحرقوا بالنار في أقل من أسبوع، وأصبحت لا ترى فيها مسلماً واحداً. ثم انظر إلى أمريكا التي يسكنها الآن فوق المائتي مليون (1)، تمشي في طولها والعرض فلا ترى فيها أمريكيا بل أصبحت كلها إفرنجاً.

لا أبعد بك إلى التاريخ السابق، ولكن انظر بعين فكرك في هذا الزمن.. ترى اليونان الذين كانوا أرقاء للحكومة التركية أعانهم أهل الظلم، حتى احتلوا بلاد المسلمين في الأناضول فأهرقوا الدماء وأفسدوا الأعراض وسلبوا الأموال، وضربوا الثغور التي ليست محصنة، وهدموا المساجد على من فيها من الملتجئين إليها، وكم هدموا مساجد على من بها في وقت صلاة الجمعة.

كل تلك الفظائع تحصل ودول أوربا تعين عليها، وتنسب كل تلك الفظائع إلى المسلمين، فلا رحمة بعباد الله ولا صدق في الأخبار. ثم انظر بعين فكرك إلى تأثير الإسلام على المسلمين.. قام المسلمون في الأناضول يردون أعداءهم في الميدان جهاراً بعد إعلان الحرب، وإنذارهم بالجلاء عن أرضهم عملاً بالعدل والرحمة، والأناضول في داخليته كثير من اليونانيين المقيمين هناك بين المسلمين، فكان من العدل الانتقام منهم أخذاً بالثأر ولا لوم عليهم، وكان كل مسلم في المعمورة يعتقد أن رجال الأناضول طهروا داخلية بلادهم من وجود العناصر المعادية لهم الأجنبية بينهم، حتى نشر الإنجليز على لسان البرق فظائع نسبوها إلى الأناضول. كان كل مسلم يرى حصولها متعينا ولا يراها ظلماً، حتى اطلعنا على الجرائد المصرية، فوجدنا اليونانيين القاطنين

(1) كان هذا العدد حين إملاء الإمام المجدد عليه السلام لهذا الكتاب.

في داخلية الأناضول يجتمعون في كنائسهم في حرية ومساواة وأمن، يدعون للمجاهدين الترك بالنصرة على اليونان وغيرهم من إخوانهم الظلمة فكانت عجيبة [1] !!.

ولا تعجب أيها القارئ.. فإن للإسلام تأثيراً على قلوب المسلمين يجعلهم يراقبون الله تعالى ويخشون لقاءه، ويرحمون العالم أجمع ابتغاء رضوان الله. وإني أبشر رجال الأناضول بالنصر والفتح المبين ماداموا متمسكين بتعاليم القرآن، متشبهين بأصحاب رسول الله رحمة وشفقة وعدلاً، وأنبه قلوب إخوتي المؤمنين إلى بذل ما في وسعهم من المساعدة، ليشاركوا إخوانهم المسلمين الذين دهمهم العدو ظلماً وعدواناً وبغياً وكفراناً، وليعلموا أن الله تعالى إنما يرحم الرحماء، قال ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾: « اللهُ في عونِ العبدِ ما دامَ العبدُ في عونِ أخيه »، والله لا يضيع أجر المحسنين.

(1) كانت تلك الأحداث حين إملاء الإمام المجدد عليه السلام لهذا الكتاب.

الباب الخامس
الوسيلة الخامسة لنيل المجد الإسلامي

العلم والعمل

الوسيلة الخامسة لنيل المجد الإسلامي
العلم والعمل

الإسلام والعلم:

من جهل شيئاً عاداه، وكم من عدو للحق مجاهر بمحاربته لجهله به، وسبب هذا الجهل فقد القابل، وفاقدوه هم الأناسي صورة الشياطين أو البهائم حقيقة، وكم من شيطان مارد في صورة إنسان، ومن وحش كاسر في صورة إنسان، وكم من بهيم وأضل في صورة إنسان. وقد يوجد القابل ويفقد الإنسان العالم المبين لحكمة الإيجاد وسر الإمداد، فيعيش مقهوراً بما تقتضيه حقائقه الإنسانية بالنسبة لما أحاط به، فيعيش كادحاً كاداً حتى يأتيه الموت ولم ينتفع بما في نفسه وما في الآفاق من خواص وآيات، لأن الإنسان من حيث هو إنسان، لا يمكنه أن ينفذ من أقطار السموات والأرض ليشرف على ما وراء المادة من الغيب المصون، ولا على ما فيها من الأسرار الدالة على جمال وجلال وكمال مبدعها سبحانه، ولا على انفراده تعالى بالألوهية، وعلوه عن النظير والشبيه والمثيل. ولابد له من زيادة على حقائقه حتى ينال هذا الشرف العظيم، وهو العلم الذي هو الكمال النفسي، قال سبحانه: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ المجادلة: ٢٢وقال سبحانه: ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ الحجرات: ٧فالكتابة والزينة والتأييد مزيد فضل الله على القوى العقلية، التي هي البرزخ بين النفس الناطقة الملكية، وبين النفس الحيوانية والحس والجسم. ومن حرم هذا المزيد انحط عن الكمال الإنساني إلى الكمال الحيواني، فقبل من الصناعات والفنون ما تدعوه إليه ضرورته، كما قبل كل نوع من أنواع الحيوانات من الصناعات والفنون ما تقتضيه حياته، كالنحل الذي أتقن الهندسة والتحليل والتركيب بقدره، وكالخيل التي أتقنت إدراك مراد الفارس فأطاعته، وكالطيور التي أتقنت صناعة عشها وجلب رزقها وتدبير بيضها وتربية فراخها، وكاليربوع الذي يخدع الصياد بصناعته. فما من نوع من أنواع الحيوانات إلا وقد أتقن من أنواع الفنون ما به يعيش في راحة وهناءة.

ومقتضى الحقائق الإنسانية ولوازمها التعاون والانتفاع بما أحاط بنا من الحقائق التي أبدعها لنا الخلاق العظيم، فإذا تفنن الإنسان في اختراع ما به يطير في الجو فذلك بعض ما له بالنسبة لكماله النوعي، إذ هو فوق الطير معرفة وقوة واقتدارا على تسخير المادة، وإن عاش تحت طبقات الماء أو على وجهه، أو جرى على الأرض بالقطار البخاري، أو سخر تيارات الماء ومعادن الأرض، أو اخترع ما يحير الجهلاء، فذلك بعض ما له، لأن القرآن المجيد علم الإنسان

بأن الله خلق له كل شيء، وسخر له ما في السموات وما في الأرض، وأمره أن ينتفع بما كنز له في تلك الأرض من بحار وأنهار وجبال وحيوان ونبات ومعادن، وخلق فيه قوة العقل التي لها السلطان على ما دونها من الحقائق كلها، وكان الإنسان قبل القرآن يعبد أكثر تلك الحقائق — عبد قابيل بن آدم النار في حياة أبيه، وعبد بنوه الأفلاك، ثم عُبدت البهائم كالعجل والجعل (الجعران)، والأنهار، والتماثيل، ثم اشتدت الظلمة على العقول فعبد الإنسان إنساناً نظيره، وشاد له الهياكل، ثم انحط الإنسان إلى الحضيض الأسفل فعبد الصور -.

حتى أشرقت أنوار القرآن فمحت تلك الظلمات عن العقول، وأشرقت على أهل الإسلام فصغر عندهم كل شيء، وأفردوا الله بالألوهية والعبادة، واستخدموا ما كانوا يعبدونه من تلك الأنواع بل ومن أصحاب العروش، محا القرآن تلك الظلمة عن عقول لم تقبل الإسلام فسمت سموا مادياً، حتى احتقر الإنسان بما ناله من القرآن رجالاً كانوا يُعْبَدون من دون الله يحلون ويحرمون، ويعطون الجنة ويوبقون في الهاوية، فأذلهم الإنسان، كما فعلت فرنسا برجال الكهنوت. ثم أطلقت العقول بالقرآن من سجن الظلمة، حتى أصبحت روسيا بما نالها تنكر من كانت تعبده قروناً طويلة. ثم انكسفت أنوار العقول التي كنا نظن أنها تسارع إلى الإسلام، بعد أن كشف عنها ظلمة الجهل بربها، فأنكروا الإله المعبود لأنهم فقدوا القابل، وفقدوا معه من بين لهم ما في القرآن من العلوم النافعة، ووقفوا عند المادة التي سخرت لهم، فلم تنفذ أنوار عقولهم منها إلى ما فوقها من آيات بينات، وغيوب غامضات. ثم بلغ بهم الجهل مبلغاً جعلهم يحكمون على الإسلام بما حكموا به على دين كانوا عليه وصل إليهم مبدلاً تبديلاً !!.

الإسلام دين العلم، دين العمل، يكشف أسرار الكون والانتفاع بما فيه من خواصه التي كنزها الله فيه لينالها الإنسان بتحصيل علوم الصناعات، فإذا تعلم وعمل اخترع ما به نيل راحته وهناءته، وقرأ القرآن المجيد، ألاحت له آياته العلية أنَّ ما اخترعته أيها الإنسان هو الحجة القوية على أن هذا الكون أبدعه وأنشأه حكيم قادر، لم يكن عبثاً، ولا بطبعه، ولا بالصدفة، فإن كل ما في هذا الكون من الحقائق لا غنى للإنسان عنه، ولا حياة له إلا به، ولا يكون هذا التدبير والإتقان إلا من قادر حكيم عليم بحاجة الإنسان الضرورية والكمالية، فتفضل فأوجد له كل ما لابد منه له وأكمل، وأمره في القرآن أن يتعلم ويعمل ليعيش بنعمة ربه في الدنيا، وليوحده فلا

يجحده، ويطيعه فلا يعصاه، ويذكره فلا ينساه، ويشكره فلا يكفره، كل ذلك بعض ما في القرآن من العلم بأسرار الكون، لأن الآيات الدالة على علوم الكون والنظر فيه والعمل للانتفاع بكنوزه بضع آلاف الآيات، كما أن الآيات الدالة على ما في الأجواء والأرجاء وما في طبقات الأرض وعلى ظهرها وفي الأفلاك الدائرات والثابتات لا تحصى، ولكن من جهل شيئاً عاداه.

انتفع المجتمع الإنساني بالقرآن أيام الصحابة والتابعين الذين فقهوه وبه عملوا، ولو لم يكن من منافع القرآن إلا أنك ترى روسيا الآن تتبرأ من دينها، وفرنسا تحارب الكنائس، وإيطاليا تقهر البابا، ومن كانوا يعبدون البهائم والأفلاك والتماثيل يخجلون من دينهم بما أظهره القرآن، وما بينه المسلمون أيام طولهم وحولهم، وتمكينهم للأمم في الأندلس ودمشق وبغداد والقاهرة والقسطنطينية وغيرها، فما من إنسان على وجه الأرض من غير المسلمين إلا وانتفع بالقرآن، وأقل منفعة نالها تمتعه بالحرية والمساواة والعدالة في زمان من كانوا يعملون بالقرآن. وإني على يقين أنه سيأتي وقت تقوم الأمم من نومة الغفلة ورقدة الجهالة، فيضربون على أيدي الوحوش الكاسرة من رجال السياسة الذين يقودون الناس إلى المجازر لينعموهم بالملك والعلو في الأرض بالباطل.

بعض من يدعون الإسلام سافروا إلى أوربا وهم جهلاء بروح الإسلام، بل بمبادئه التي يدركها أطفال المكاتب، فشهدوا حرية في فك قيود الآداب ونيل الغرائز، وما تقتضيه من الإباحة التي هي رتبة أسفل البهائم، فإن أكثر أنواع الحيوانات لها آداب لا تتعداها كالطيور والوحوش الكاسرة، فإن لكل ذكر منها أنثي لا يتعداها، وللبهائم الأخرى آداب أخرى لا تتعداها، فإنك ترى الذكر لا يأتي أنثي ما دامت حاملة ولا في وقت إرضاعها، ولكن أهل الجهالة العمياء الصماء يرون في أوربا قبائح تتنزه عنها البهائم، فيرونها خيراً وجمالاً، لأنهم انحطوا إلى أسفل أنواع الحيوان. وهاأنت ترى منهم الآن من يقبح فضائل الإسلام، مع انغماسه في أقبح الرذائل، ويتبجح بالاعتداء على القرآن المجيد، والاستهانة برسول الله ﴿ﷺ﴾ كطه حسين والرصافي وغيرهما ممن ألقوا بأنفسهم إلى هاوية من ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وجعل على أبصارهم غشاوة، وإني أشكر الله وأحمده سبحانه لي ولأهل الإيمان ولجميع المسلمين، حيث حفظنا مما ابتلى به هؤلاء التعساء الجهلاء، الذين هم كالخفافيش التي لا تقوى على ضوء الشمس، وسيأتي الوقت الذي فيه يندمون، قال سبحانه: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ آل عمران: ١٤٠فتزول دولة

عباد المادة وتدول الدولة لنا عليهم، ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ الشعراء: ٢٢٧ .

الإسلام دين العلم والعمل:

حُكمُ أعداء الدين عليه بعمل الجاهلين بحقيقة روحه — ممن يدعون الإسلام وليسوا منه في شيء، وإن حصلوا من العلم أمثال الجبال — حُكم باطل.

والإسلام بريء ممن حكم عليه بأعمال الأدعياء ممن شنع الله تعالى عليهم بقوله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ يوسف: ١٠٦ وقوله تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ﴾ آل عمران: ٢٨ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ النساء: ١٤٢ - ١٤٣ وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾ التوبة: ٥٤ وقال (ﷺ): « يا معشر مَن آمن بلسانِه ولم يُفِض الإيمانُ إلى قلبِه... الحديث » .

الإسلام:

هو دين الله الذي ارتضاه لعباده، ورضى العمل به منهم، وهو وضع إلهي يدعو أصحاب العقول السليمة من الهوى إلى قبول ما هو عن الرسول (ﷺ)، لأنه وضع سائغ لذوي العقول السليمة باختيارهم المحمود يدعوهم إلى الخير بالذات. فإذا سجد العقل للإسلام بعد إقامة الحجة ووضوح المحجة، تحقق العقل أنه دين الله المرضيّ الذي لا لبس فيه ولا حجاب عليه ولا عوج له. ولديها يطلع الله عبده المصدق بما جاءه من عند ربه على قيوميته الظاهرة بكل ناد، وفي كل واد، وعلى كل باد، بل يراها بعيون روحه أظهر من كل محسوس ملموس، ويعلم عظمته الحقية التي لا يشير إليها اسم، ولا يحيزها رسم، وهي مداد كل مداد. الإسلام روح فتحت أقفال القلوب، ومحت الغشاوة عن العيون، والوقر عن الآذان، بل رفعت الإنسان من حضيض الجاهلية

العمياء الصماء، إلى مستوى كان فيه فوق ملائكة السماء، متخلقاً بأخلاق الله وأحوال رسله الكرام، عاملاً بأعمال الأنبياء والصديقين، حتى بلغ مقاماً كان يجيبه الله إذا سأل، فتنزل الملائكة نصرة له وتأييداً، يراها ويسمع منها من زكى نفسه بآداب الإسلام، وعمر قلبه بعقيدته، وجمل هيكله الإنساني بأعماله وآدابه. لا تحكم على الإسلام إلا بحقيقته التي هي الكتاب والسنة وعمل أئمته، وبعد ذلك فاحكم تكن عادلاً في حكمك.

الإسلام بالعلم، والعلم بالإسلام:

الحكم على الشيء فرع عن تصوره، وإنا وإن كنا نعتقد أن حكم سكان مجهولات أفريقيا مثلاً على دولة ألمانيا بتأخرها في الصناعات والفنون حكم لا قيمه له، فإنا نعتقد أن الحاكم على الإسلام بأنه غير العلم أقل قيمة في الحكم من هؤلاء الجهلاء، وكان الأحرى بنا أن لا نهتم بهم، ولكنا دعانا إلى أن نبين تلك الحقيقة أن بعض أهل الأزهر رفعوا شأن هؤلاء الذين لا خلاق لهم بالوقوف معهم في مستوى واحد أمام القضاء، والحقيقة أنه لا علم إلا بالإسلام. وأقول أيضاً إن ما وصل إليه الإنسان — بما يسمونه العلم الحديث والعلوم العصرية — هو بالإسلام أيضاً. ولولا الإسلام لما قهر الإنسان حقائق كان يعبدها ويقدسها.

وظن بعض من لم يقع به العلم على عين اليقين أن العلم شيء والإسلام شيء دعوى باطلة، كما قال بعضهم وهو طه حسين: (أنا أتكلم بصفتي عالم لا بصفتي ديني) وكأنه لجهله بروح الإسلام يقول: إن الإسلام يحارب العلم كما ظن ذلك أهل الجهالة من قبله. وسأورد على هذا من أدلة النقل عن الله ورسوله ﷺ وآثار أئمة الهدى ما يحكم به على نفسه بجهالته بروح الإسلام، ولكني الآن أبتدئ بالعلوم التي كشفت خواص المادة وجعلت للإنسان السلطان على قهر الأنواع الحية على الأرض، وعلى المعادن والجمادات والهواء والماء. وهاهي أثار ما كان عليه المجتمع الإنساني قبل الإسلام محفوظة على صفحات الكتب، وفيه ما اكتشفه الباحثون من المباني وصناعات الطب والتحنيط، وما كانت عليه الدول من سياسات الإبادة والتدمير، وإعظام الملوك ورفعهم إلى مقام الربوبية، ومن سياسات استعباد الأمم. والتاريخ المنقوش على الأحجار، والمسطر على أوراق البردي، وما أبقاه الدهر من كتب اليونان والفرس والآشوريين والبابليين والكلدانيين والكنعانيين والفينيقيين من سكان صور وصيدا، وما بقي من تاريخ الروم في زمان حروبهم مع

رمسيس فرعون مصر وغير ذلك، يدل على أن المجتمع الإنساني كان أشبه بغابة جمعت من الوحوش أضرها، ومن الحيوانات أضعفها.

بلغ الإنسان بعلومه الكمال الذي يليق بنوع من أنواع الحيوانات كالنحل والنمل والطيور، وبعض أنواع الأسماك التي لها جامعة تتعاون فيها على تأسيس مدينة، وعمل نظام لحفظ مدينتها من الأعداء، ومن سلطة المؤثرات الجوية، مع تحصيل ما لابد منه وأكمل من طعام وشراب. ومن نظر إلى النحل في هندسته لحجرته وتربية أولاده وفي اقتداره على تنويع الرطوبات الموجودة على الأزهار، وهي عفصة الطعم أو مزة أو مرة، فينقلها بقوة الصناعة إلى عسل محفوظ يجمع.

كل المخترعات كانت بالإسلام وبعده:

لم يبلغ المجتمع الإنساني قبل الإسلام في هندسته وإتقانه للصناعة مبلغ النحل، ولا في حروبه للعدو ومحافظته على وطنه كما يعمل النحل في مدينته، بل ولم يبلغ مبلغ النمل في رعاية الصحة بإتقان مدينته بحالة يتخلخل فيها الهواء، وتصل إليها حرارة الشمس من غير أن تصل إليها هواطل الأمطار أو شديد البرد. ولم يبلغ الإنسان قبل الإسلام في خروجه للحروب مع الأمم الأخرى لتحصيل ضرورياته مبلغ الطيور، التي تسافر من العراق إلى نجد إلى الشام إلى مصر إلى السودان، تتبع مواضع الماء والمرعى، وترجع إلى بلادها في فصل الأمطار فيها. وكم من نوع من أنواع الحيوانات له سياسات تُعجز بني الإنسان من دفاعه عن نفسه، وفي حفظه من مؤثرات الجو وفي تحصيل ما لابد منه له.

كل ما وصل إليه المجتمع الإنساني قبل الإسلام هو القيام بما دعت إليه الضرورة، التي جعلت البهائم الراتعة تعمل لها. جاء الإسلام ولم يظهر في عاصمة روما ولا في قصبة الفرس ولا في بيضة الهند ولا في منفيس (مدينة الفراعنة) ولكنه ظهر بين جاهلية عمياء صماء، يأكل بعضهم بعضاً، يأكلهم الناس ولا يأكلون، لا علم لهم ولا صناعات إلا تقديس الأحجار،

والسلب والنهب وإهراق الدماء، لا ملك يجمعهم، ولا دين عن الرذائل يمنعهم. فما ظهر إلا وسرت أنواره العلية أسرع من انتشار ضوء الشمس في السماء الجلية، فأصبح بالإسلام كل فرد من هؤلاء فوق فلاسفة العالم من لدن آدم، علماً بخواص تلك الآثار الكونية، ومشاهدته لما فيها من آيات مبدعها الحكيم، ومعرفته بنفسه وبربه، مما لا يمكن أن يحصله إلا من تلقى علومه عن الوحي، أو سماع العلم من الله تعالى.

رفع الإسلام الإنسان إلى مستوى جعل فيه السموات وما فيها، بل ومن فيها من عمارها الطاهرين، والأرض وما فيها من الممالك الثلاث من حيواناها، ونباتها، ومعدنها وجمادها، دون مقام الإنسان في نظره، لأنه لم يرى بالإسلام فوقه إلا ربه وأن ما سواه ومن سواه يراهم عبيداً مربوبين لله، وعباداً مقهورين بقهره سبحانه، وعلم فوق ذلك أن في كل ذرة من ذرات الأرض، بل وفي كل تلك الأجواء والأرجاء، بل وفي السماء وأفلاكها ترى كل ذلك مسخراً له، أودع الله فيه كنوزاً يخرجها بالإسلام فينتفع بها وينفع بها عباد الله في تلك الدار، لتظهر آثار قدرة الله وحكمته، ويظهر فضله ورحمته لعباده، فيعبدونه ولا يشركون به شيئاً.

كانت الشمس معبودة قبل الإسلام، بل والنار والأنهار، لا.. بل والبقر. أعجب من هذا عبادة الإنسان وما ينحته من الأحجار !! بل وما يركبه من الأشجار !! أو ما يصوره بالمداد !! لا، بل كان الإنسان يعبد رجلاً من نوعه أوامرأة فيقدسها ويجلها، وكان فلاسفة اليونان يعبدون آلهة مخصوصة، حتى خبطت عقولهم في عالم ما فوق المادة، فخسفت أنوار العقول، وباءوا بالجحود، وخبطوا في أنفسهم خبط عشواء، فقال بعضهم: أصل الإنسان خنزير. وقال غيرهم: إنما هي الطبيعة. وقال غيرهم: لا وجود للكون وإنما هي أوهام. سبحان الله. جاء الأنبياء قبل رسول الله صلوات الله وسلامه عليهم، فأهلك الله بكل نبي أمته، لأنهم جاءوا بما يناسب عصورهم، فجاء نوح بما أعجزهم بالسير على الماء؛ وجاء إبراهيم بما حيرهم من بقائه في جوف النار، وجاء موسى بما أعجز السحرة حتى آمنوا، وجاء عيسى بما أعجز الأطباء، فأحيا الموتى وأبرأ الأكمه والأبرص، وجاء غيرهم بمثل هذا. حتى جاء خاتم الأنبياء عليه الصلاة والسلام، فجاء بالحكمة العلية مبيناً للعقل والروح والحس ما جذبهم به إلى الحق، وأبقاه فينا فعلمنا به، فلم نفقده مدة عملنا بما جاءنا به، فانتشر الإسلام، وأحيا الله به العلم في أفريقيا وآسيا وأوروبا والجُزر، وقد وجدت آثار العرب

في أمريكا الشمالية، والغالب أنهم وصلوها من بوغاز تهرنج، كما دخلوا أوربا من بوغاز جبل طارق، ولكن الإسلام أسرعت إليه الغربة ففارقه أهله بعد أن ملأ الأرض علماً وعدلاً وسلاماً ورحمة، حتى أصبحنا في هذا الزمان والمدعون الإسلام بل والحاكمون على أنفسهم بالجهل يقولون: العلم غير الإسلام، وكبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا.

حال المجتمع الإنساني قبل الإسلام:

لم أكن مغالياً إن قلت إن المجتمع الإنساني قبل الإسلام كان أشبه بمجتمعات الحيوانات التي تتعاون على بقاء الحياة، كالنمل والنحل وأنواع الطيور، فكانت عيشته كعيشتها، يتعاون أفراده لتبادل المنفعة ودفع المضرة. والأصل في المجتمعات الإنسانية البداوة في كل الأمم، وكانت حالة البداوة في المعيشة حالة تنازع، تسود فيه القوة، وكان أغلب تلك المجتمعات جاهلية، تنازع الآثار الجوية، وتزاحم الوحوش، حتى ارتقى بعض بني الإنسان، فأسس المدن وأرسل الله الرسل ليبينوا للناس ما به نيل السعادتين بقدر ما يناسبهم، فكان ما يدعوهم إليه الرسل يخالف عاداتهم ومألوفاتهم، فوقع بينهم وبين الرسل ما ذكرته التوراة في أسفار الأنبياء، لأن الناس تعودوا الظلم والجور والطغيان، مع أن الإنسان ديني بالفطرة، ولكن قوة الحس والجسم جعلت الإنسان لا يقبل إلا ما يجانس حسه وجسمه، فأبى بنو الإنسان أن يعبدوا إلا ما يحسونه ويمسونه مما يصنعونه بأيديهم.

وتوالت الرسل يدعون إلى عبادة العلي العظيم المنزه، فقُتل منهم من قُتل، و كُذِّب منهم من كُذِّب, فكان الناس مع الرسل في حرب عنادى, فلم ينتفعوا من الرسل بعلم نافع, ولا بعمل رافع, اللهم إلا فن بناء السفن الذي تعلموه من سيدنا نوح عليه الصلاة والسلام, أو علم صناعة السيوف والدروع وإتقان البناء الذي تعلموه من سيدنا داود, لأنه هو الذي لان له الحديد, وبنى بيت المقدس, وقام سيدنا سليمان فاستخدم الفينيقيين في إتقان الصناعات اللازمة للمدن المتعلقة ببناء المنازل, والنجارة والبرادة, ثم تعلم تلاميذ سيدنا إدريس فن صنع الملابس وما يلزمها من النسيج والغزل والخياطة, وفن الطب وعلم خواص النباتات.

وعاش الإنسان حتى في زمن الرسل على جاهلية عمياء, فعبد بنو إسرائيل العجل في زمن الكليم، وقال بطرس – أكبر تلاميذ سيدنا عيسى – أنت الله. فغضب، حتى قال له: ستنكرني بعد. كانت المجتمعات الإنسانية قبل الإسلام بين جاهلية عمياء, أو بين أمة ضالة, أو أمة مبدلة للحق, أو أمة فاسقة, فكانوا يعبدون الأحجار المنحوتة بأيديهم, أو الأفلاك المشهودة لهم, أو الملوك أو الرسل أو بعض الحيوانات, وتلك حقائق لا تحتاج إلى دليل, إلا من وفقهم الله من تلاميذ الرسل عليهم الصلاة والسلام في حياتهم, وهم قليل, ثم بدل من بدل, وارتد من ارتد بعد الرسل.

أنا لا أنكر أن فن البناء وفن الطب وفنون الزخرفة والتصوير والنقش كان بالغاً مبلغاً في الشرق, أعجز صناع زماننا هذا في أوربا وأمريكا, وآثار المصريين والبابليين والآشوريين, واليمانيين والفرس والهند, لا تزال محل إعجاب كبار المخترعين, ولكن كل تلك الآثار شيدت على أسس الظلم والتظالم, والبغي والاستئثار, لأن الأمم كانوا يجلون الملوك إجلال الربوبية. مكث الإنسان دهوراً طويلة في الجهالة العمياء تحت تسليط السلطة الظلومة الغشومة, لا يعلم من نفسه إلا أنه مقهور لأفراد زعموا أنهم آلهة، أو أبناء الآلهة ومن قرأ تاريخ المصريين منذ خمسة آلاف سنة يعلم مقدار المجتمع الإنساني العلمي العملي من تقديس الأسر المالكة، وكان الأمر في الهند كما هو في مصر، فإنهم كانوا يعبدون الثالوث المقدس، وهو صنم يمثل إنساناً ذا ثلاث رؤوس: الإله وابنه وروحه، وترجمة إبرهة الهندي وبوذا وغيرهما بيان لما كان عليه الإنسان.

لم تكن تلك الأحداث في الأزمنة القديمة فقط، بل كانت موجودة بحقائقها في زمان ظهور الإسلام، فكانت الصين تسمي ملكها ابن ماء السماء، والفرس يسمونه ملك الملوك، أو شاه، وكانت الدولة الرومانية تستعبد الشرق استعباد الإنسان للبهائم، وكل ما وصلوا إليه من العلوم إلى ظهور الإسلام كان محصوراً في فن الطب، وتدبير المنزل والمدن، وطرق استعباد الأمم بالقوة القاهرة، والتفنن في سلب ما في أيديهم، وشيء قليل من علم النفس، ومن إثبات القوة القاهرة الغائبة عن الحس، خبطوا فيه خبط عشواء، لم يركنوا إلى ركن من العلم مكين، ولم يثبتوا ما أدعوه بآثاره من علم يقبلها العقل الكامل.

أقول خبط عشواء لأن الأمة التي برعت في هذا واشتهرت هي الأمة اليونانية، وكانوا خدماً عند المصريين، يراهم المصري نجاسته، لأن العلوم التي كانت عند المصريين كانوا يرجعون فيها إلى الخليل، وإلى يوسف الصديق، قبل موسى بزمن طويل، ولكن تغيرت وتبدلت بسبب الأطماع والحظوظ التي تدعو إليها نفوس الملوك لاستعباد الشعوب، بسلب ما لديهم من الفنون والصناعات والآداب، وتجريدهم مما يجعلهم يدفعونهم عن أوطانهم.

ظهور الإسلام وأثره على تقدم الإنسانية:

ظهر الإسلام فمحا ظلمات الجهل عن عيون العقل، وأيقظ من أسلم من نومة الغفلة، فعلم كل مسلم نفسه ونشأتها الأولى، والآخرة، وحكمة وجود الإنسان، ثم فكت عنه قيود الذل لنظرائه من أهل الظلم، والذل لبعض الآثار الكونية، حتى تحقق من نفسه أن كل شيء في السموات والأرض خلق له، وأن الله منحه القوة التي يستخدم بها كل شيء لانتفاعه مما هو في السموات والأرض، من جمادات بأنواعها، وحيوانات ونباتات بأنواعها، بل والكواكب، حتى بلغ ما تعلمه من أصول الإسلام وفروعه أن الملائكة خلقت له، وظهر له أنه بإتباعه للنبي عليه الصلاة والسلام يبلغ درجة من العزة والمجد لا يرى فوقه إلا ربه تعالى، ويرى كل شيء لأجله، قال سبحانه: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ الجاثية: ١٣ ثم تحقق بعد تحصيله ما يجب عليه من العلم أنه سيفوز بالخلود في جوار ربه، وفي معية الأخيار، من الأنبياء والأطهار من الصديقين.

نظر الإنسان إلى الكون نظرة رجل بصير، حكيم عالم في منزله الذي صار له التصرف المطلق في كل ما فيه من المنافع والخيرات، فساح عقله فيما حوله للانتفاع بنعمة الله المخزونة له، ليعرف ربه فيشكره على نعماه، ولم يقف المسلم عند هذا الحد، ولكنه جاهد نفسه بعد كمال التصديق، بما بلغه عن النبي عليه الصلاة والسلام، فزكت نفسه، وساحت روحه في العالم الأعلى، فتجلت له حقائق هذا العالم، فعلم من عجائب القدرة، وغرائب الحكمة، ما جعله يفرد ربه بالألوهية دون غيره، ويتخلق بأخلاقه العلية من الرحمة والكرم، والعلم والعفو، والمسارعة إلى عمل الخير، حتى بلغ من اليقين والشهود مبلغاً كان فيه أشبه بالرسل عليهم الصلاة والسلام، فخرق الله له العادة وأكرمه بما جعله به إماماً عظيماً، وسيداً مطاعاً، وهم كثيرون في كل زمان.

فضل الإسلام على أوروبا وأمريكا:

لم تنحصر خيرات الإسلام على المسلمين، بل تعدتهم إلى جميع الأمم، وكان أكثر الناس انتفاعاً بعلوم الإسلام أوربا الحديثة وأمريكا، فإنهم انتفعوا بعلوم الأندلس واكتشافاتهم التي أسعدت بني الإنسان، بالعلوم التي سلبوها من المكاتب الإسلامية في الحروب الصليبية، وما أخذه نابليون من خزائن الأزهر الشريف، وقد أهمل المسلمون تحصيل تلك العلوم المفيدة، وقضت سياسة الملوك منهم أن يشغلوا العلماء بدرس الأحكام مجردة عن الحكمة، وعن العلوم التي فرضها القرآن من النظر والتدبر والفكر، وعلوم الأخلاق، وعلوم النفس، ومعرفة الله تعالى، وعلوم تدبير الفرد والمنزل والمدينة، والمجتمع العام، والعلوم العقلية التي بها فتح كنوز المادة، ومعرفة خواص كل نوع منها، وأنها خزائن للنعم، يفتحها العلم والعمل، وقد فرض الله كل تلك العلوم وأوجبها على كل مسلم في القرآن، قال سبحانه: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ ﴾ يونس: ١٠١. وقال تعالى: ﴿ فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ ﴾ الملك: ١٥. وقال تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ ﴾ التوبة: ١٠٥. وقال تعالى: ﴿ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ ﴾ الزمر: ٩.

فكان المسلم المتمسك بالدين يحيط بكل أنواع العلوم، ويعتقد أنه يجهل من كمال ربه وقدرته وحكمته بقدر ما يجهل من أي علم من العلوم، وكانوا يولون أهل العلم الولايات، فيكون الوالي إماماً وقائد الجيش، وطبيباً وعالماً بسير الأفلاك وتغيير الفصول، وقد نظر وال من الولاة مد البحر، وكان يجهل المد والجزر، فقال: هذه تكفينا صيفتنا، ظنا أنه ماء عذب، فبلغ الخليفة فعزله لجلهه بتأثير الكواكب على البحر... لم يبلغ الإنسان مقام الشرف والمجد إلا بالإسلام، وقد ترك المسلمون العمل بوصايا الإسلام فذلوا لمن كانوا أتباعاً لهم، وترك غيرهم دينهم فعزوا ورقوا في الأرض لأخذهم بأعمال المسلمين الكونية. وإني على يقين أن تلك الأمم قريباً يظهر لها الحق جلياً فتسارع إلى الإسلام، وكيف لا ؟ والإنسان مفطور على حب الحرية والمساواة، ومجبول أن يحكم على الأشياء بعقله، وكلما أظهرت الصناعات والفنون ما كنزه الله للخلق في المادة كلما فكت الأغلال من عنق العقل، فحكم أن الدين الإسلامي هو الدين الحق، وأن ما سواه لا يقبله العقل.

ومن حكم أن الدين الإسلامي لا يحث على تحصيل العلوم كذبته الحقائق، والواجب على المسلمين في هذا العصر بعد أن شهد أعداء الدين بأحقيته، وسارع فيه كثيرون من أمريكا وأوربا، أن يسارعوا إلى الحق والعمل به، ليكونوا أئمة لمن ستنكشف لهم أنوار الإسلام قريباً، بل وليكونوا متمتعين بالحياة الإسلامية الفاضلة، مسارعين إلى نيل السعادة الباقية في جوار الأخيار ممن عملوا بالإسلام ونشروا فضائله وآدابه وأصوله بين الأمم، والأمر سهل، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

هذا وما هي العلوم التي عاداها الإسلام ؟ هل هي ما حصلته أوروبا من العلوم التي جعلتهم يتفننون في استعباد الخلق وإهراق الدماء، وحرمان الأمم من مرافق الحياة، وسياسة ظاهرها إصلاح وفرح، وباطنها إفساد وترح، مما حكم بوحشيته كثير منهم، وقامت أحزاب تقبح هذا العمل وتثبت أنه نهاية الظلم والطغيان ؟ إن كان القائل بمعاداة الإسلام العلم يرى أن الإسلام عدو تلك السياسة فصدق، لأن الإسلام أسس مع الرحمة، فإن لم تتيسر فعلى العدل والإيثار والتعاون على الخير، بعد توحيد الله وشكره على نعماه، والمسارعة إلى تحسين الفضائل النفسانية، ومن ظن أن الإسلام عادى علماً من العلوم النافعة، أو فناً من الفنون المفيدة للعامة، أو صناعة تجعل الإنسان يعيش مستريحاً، فقد جهل الإسلام، أو كذب على الحقائق، والجاهل إذا حكم فحكمه عائد عليه، والعدو إذا حكم فشره راجع إليه، قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦۚ ﴾فاطر: ٤٣.

وقال العربي:

ومهما يكن عند امرئ من خليقة   وإن خالها تخفى على الناس تعلم

على من نرجع باللائمة ؟:

أَعَلى أنفسنا لتقصيرنا في تحصيل ما فرضه علينا الإسلام لنفوز بالسعادتين ؟ ولإهمالنا في تزكية أنفسنا واستخدام عقولنا كما أمرنا الإسلام، فأنتج التقصير والإهمال لقس النفس، ومرض العقل، وانحراف الخيال، وضعف الوهم، وانضواء الفكر، واضمحلال الإدراك، حتى صار الإنسان

أضل من الأنعام، وشراً من الشيطان، فأصبح أهل التقصير والتساهل ممن يدعون الإسلام كالبهائم الراتعة، يقودهم العدو إلى مهاوي الهلكة، فيقلدونه تقليد الأعمى، ويتبعون كل ناعق، فإذا قال قائل: حرية أوربا وحضارتها وعدلها وعلومها وصناعتها، أنكروا ما هم عليه من الفضائل والكمالات، وسارعوا إلى التقليد.

أم نرجع باللائمة على الدين وهو براء من أعمالنا ؟ وقد أثبتت سماحته الرحمة، فحفظت الأمم المخالفة للإسلام برحمة الإسلام، ورفعت علومه العقول إلى مستوى انكشفت لها فيه خواص المادة، وآيات قدرة الله وحكمته. اللهم إن دينك الحق، به الفوز بالخيرين، فأسألك يارب العالمين أن توفقنا للعمل به والتعصب له رحمة بالمجتمع الإنساني الذي أصبح كفئة من الناس على سفينة أحاطت بها الزوابع، وهاج عليها البحر؛ ببركة علوم أوربا الحديثة التي يفتخر بها من جهل دينه.

أخذت أوربا عن المسلمين نشاطهم في الصناعة، ومسارعتهم إلى فتح كنوز المادة، وشجاعتهم، وتركت العقيدة الحقة، والعبادة التي تجعل المسلم ذا رحمة وعفو وإحسان، وإيثار لغيره، وتركت الأخلاق الفاضلة التي بها حياة المجتمع في حرية ومساواة وأمن على النفس والمال والعرض، فخبثت النفوس، وانكسفت أنوار العقول، وتسلط الحس على النفس والعقل، فهبط الإنسان إلى رتبة البهائم شهوة وإباحة، والسباع جرأة ووقاحة، والشياطين كيداً وخبثاً، فاستخدم العقل والنفس لهذا القصد حتى انمحى شرف الإنسانية في نظرهم، وحكموا أنهم قردة ارتقت كما قال دارون تكذيباً للكتب السماوية، وكذلك تفعل العلوم التي يفاخرون بها، والعلوم - يا قوم — صور ترسم على جوهر النفس، تجذبها إلى الارتفاع عن الإنسانية إلى الفضائل الملكوتية، بل وإلى ما فوق ذلك من التخلق بأخلاق الله.

ما هي تلك العلوم التي تفاخر بها أوروبا ؟ !:

كلنا نعلم أن كثيراً من أنواع الحيوانات أتقن فن تأسيس المنازل على قدر احتياجه، كالنمل والنحل والطيور والأرانب وغيرها، وأتقنت تدبير المجتمعات كذلك، كالنمل والنحل والطيور والأرانب والقردة والأسماك، وأتقنت فن دفع العدو لتحفظ منه إما بحرب أو بهزيمة أمامه،

وأتقنت طرق تحسين قوتها، وقد امتاز بعض الحيوانات بفضائل عجز عنها علم أوروبا، كالوفاء في الكلاب، والغيرة في الديكة والطيور والسباع، وكالحياء من عمل المباح كالإبل التي تتستر في أوقات ملامسة الذكر للأنثى، وبإتقان فن تدبير المنزل وحسن تربية ما يتناسل منها مثل الحمام والأرانب والنحل وغيرها.

إذا تقرر هذا فعلوم أوربا إنما هي فنون اقتضتها الحقيقة الإنسانية التي هي أكثر الأنواع الحية ضروريات وكماليات, ولا فخر لأوربا بما نسب إليها من الفنون أو العلوم, فإن الإنسان من خمسة آلاف سنه وأكثر أتقن من الصناعات في تشييد القصور الفخيمة وإبداع الأثاثات المنزلية التي أعجزت كبار المخترعين في الغرب, وها هي آثار الملك توت عنخ آمون التي اكتشفت بقبره في الأقصر معجزة كبرى تدل على أن أوربا تفتخر بما يخجل.

يا قوم: هل تبرج النساء بالزينة. ولبس الثياب القصيرة, التي تظهر العورات وإباحة السفور للنساء, والتفنن في آلات وأدوات الطعام والشراب واختراع المصبغات من الثياب, وصرع العقول تحت أقدام الشهوة البهيمية, وقتل الحياة الإنسانية الفاضلة بالخمور والمخدرات, ورجوع الإنسان إلى المرتبة البهيمية بحالة يخجل منها بعض أنواع الحيوانات بجلوس النساء والبنات في الأندية العامة, واشتراك الرجال والنساء في الرقص, وقتل الغيرة بسيف البلادة الجمادية, واختراع ما يعين على ذلك, هذا هو العلم الذي تفتخر به أوربا, ويتمشدق بمدحها عليه من لم يميز بين الفضيلة والرذيلة؟ اللهم رحماك ببني الإنسان, يا قوم ارجعوا إلى الإسلام, وتداركوا الأمر بترك الاستسلام للعدو, وانظروا بعيون الفكرة, وحكموا العقول لتشرق أنوار الحق فتمحق ظلمات الباطل, فإن الحق أبلج, والباطل لجلج, والمؤمن يكفيه قليل الحكمة.

تركت أوربا دينها فتقدمت, ونحن تركنا ديننا فتأخرنا:

لقد ترك القوم دينهم فتقدموا في الدنيا, وتركنا ديننا فتأخرنا في الدنيا والآخرة, قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾الأعراف: ٩٦

قال تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ ﴾ النور: ٥٥ صدق الله العظيم, فإن وعده – سبحانه وتعالى – تحقق بجمال معانيه جلياً مشهوداً لعيون الرؤوس, ملحوظاً لقوى النفوس. وكيف لا؟ وقد أنزل الله القرآن على نبيه صلوات الله وسلامه عليه, فافتتح دعوته ﴿ﷺ﴾ بالعرب الذين هم أولى الناس به وأحق الناس باتباعه, لأن الله سبحانه وتعالى بشَّر في الأسفار الماضية والصحف السابقة أنه جاعل من ولد إسماعيل أمة عظيمة, في صحف سيدنا إبراهيم، وصحف سيدنا موسى، فكان العرب أفق مشرق هذه الشمس الإلهية, ومسطع أنوار تلك الأسرار الربانية, لتكون آية الله تعالى جلية للعقول, واضحة للنفوس, تنجذب بها القلوب التي أعدها الله تعالى لفهم أسراره العلية, وحكمه الجلية, وكيف لا ؟ والعرب إذ ذاك كانوا في جاهلية عمياء, لا يجهل عاقل ما كانوا عليه من الأخلاق السبعية.

كانوا يؤكلون ولا يأكلون, تفرقت أهواؤهم, واختلفت شعوبهم, وتباينت مقاصدهم, كأن العقل إذا نظر إليهم يحكم بالبديهة أن من المستحيل اجتماع تلك الآراء المختلفة, والحظوظ المتباينة, والمفاسد التي صارت عادة لهم وسنة, كان كل فريق منهم يناوئ الآخر, لا يجتمعون على قائد لهم, ولا يتحدون لرئيس ولا يقبلون أن يكون لهم سلطان يقهرهم, أو ملك يجمعهم, تلك حقيقة بديهية لا يجهلها أحد له إلمام بمبادئ العلوم, فقام بينهم رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾, وهم على تلك الأحوال المنكرة, والأخلاق الوحشية, فكانوا في التفرقة كقطع الزجاج التي لا تلتحم, أو كالنار والثلج اللذان لا يمتزجان, فما مضت فترة من الزمن إلا وولدوا ولادة جديدة, فكانوا أرواحاً بعد أن كانوا أشباحاً, وحكماء حلماء علماء بعد أن كانوا في جاهلية عمياء, فتح الله أقفال قلوبهم ففقهوا, ورفع الستار عن عيون بصائرهم فشهدوا, فجمعهم الله على الهدى بعد التفرقة, وعلى الحق بعد الضلال, وصار الله معهم, وفتح لهم باب بركات السماء بما جملهم الله تعالى به من الحكمة والبيان والنور والتبيان, وبركات من الأرض بما مكن لهم في الأرض بالحق, جعل الله لهم الأرض ميراثاً فملأوها نوراً وعدلاً وسادوا العالمين كما يسود الأب الرحيم فيجملهم بالبر له, والصلة لأقاربهم بمكارم أخلاقه وجمال أعماله, ودام هذا المجد لهم بقدر تمسكهم بروح القرآن الكريم فكان مجدهم وعزهم وسعادة المجتمع الإنساني وخيره بقدر تمسك المسلمين بالقرآن،

وعملهم بسنة رسول الله ﴿ﷺ﴾ وهدى أئمة السلف الصالح من أئمة الهدى ممن صدقوا ما عاهدوا الله عليه.

نظر الله إلى المسلمين نظرة عناية ومعونة، لأنهم نظروا إلى الله بقلوب ملؤها الخشية وأرواح قوامها الرغبة فيما عنده سبحانه وتعالى، والرهبة من جلاله العلي، ومزاجها الحنين إلى انتشال العالم أجمع من مساخط الله تعالى ومواطن غضبه، فواجههم الله تعالى بوجهه الجميل، وقبل منهم أحسن ما عملوا وتجاوز عن سيئاتهم. لم أقل كانوا أنبياء معصومين، ولا ملائكة مطهرين، بل كانوا يذنبون كما نذنب، ولكن جملهم الله بجمال قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴾الأعـــــراف: ٢٠١، وبنـور قولـه تعـالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ ﴾آل عمـران: ١٣٥. فكان الله تعالى ينظر إلى قلوبهم معقودة على التوحيد الحق، والإخلاص لذات الله تعالى وحسن النية في العمل لوجه الله تعالى، وإن كانت أبدانهم تتقلب في بعض الأحيان في المعاصي، فكان ظاهرهم وإن تنجس بالمعاصي ولكن سريرتهم كانت مشرقة بأنوار التوحيد والإخلاص، والعزة بالله، سر قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾المنافقون: ٨.

فكان الله تعالى إذا نظر إلى تلك القلوب المنعقدة على النور الحق تقبل منهم أحسن ما عملوا، ومعلوم أن ذرة من أعمال القلوب خير من أمثال الجبال من أعمال الجوارح، لأن أعمال الجوارح المجردة عن أعمال القلوب لا ينظر الله إليها قال الله تعالى: ﴿ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ٨٩ ﴾الشـــعراء: ٨٩. وقـال ﴿ﷺ﴾: « إِنَّ الله لَا يَنظُرُ إلى صُوَرِكُم وَلَكِن يَنظُرُ إلى قُلُوبِكُم»

[1]وقال(ﷺ): « إنَّ الله لَا يُقبلُ على كَلَام الحَكِيم وَلَكِن يُقبِلُ على هَمِّهِ وَهَوَاهُ» [2]وقال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾الكهف: ٢٨[3].

فلا تظن يا أخي أن أهل الجنة الذين أثنى الله عليهم كانوا معصومين من المعاصي، بل قد يرتكبونها كما نرتكبها، ولكن القلوب كانت مشرقة بأنوار الخشية من الله تعالى والرغبة فيما عنده، فكان الله يتقبل أعمال قلوبهم التي هي أحسن ما عملوا من الطاعات، ويتجاوز عن سيئاتهم التي يعملونها بأبدانهم. ولا تظن – يا أخي – أن أهل النار الذين شنع الله عليهم، وذمهم في كتابه العزيز لم يكونوا مطيعين لله، ولكن الله تعالى نظر إلى أعمال أبدانهم التي تطيعه فلم يقبلها، وردها عليهم لأنه علم ما في سرائرهم من شرك خفي أو من حظ متبع أو هوى مطاع فرد عليهم أعمالهم لأنهم كانوا يحسبون أنهم يحسنون صنعاً، بدليل قوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾الفرقان: ٢٣.

فلا ييئسك قبيح عملك من أن تكون من أهل الجنة إذا تقبل الله أحسن ما عملت، ولا تأمن جانب الله بحسن عملك. هكذا كان السلف الصالح الذين أثنى الله عليهم ومدحهم، حتى تغيرت أحوال القلوب، وشهد الناس أن الظهور بالتقوى، والتجمل بأنواع العبادات موجب لارتفاع الشأن في الدنيا، ونيل الرياسة والسيادة. فامتزج حب الدنيا في القلب بالإخلاص، فالتفت الله تعالى بوجهه الكريم عن المجتمع الإسلامي، فكنت ترى أبداناً مجملة بالطاعات، ورجالاً مجملين بحلل أهل التقوى فيخشع قلبك لرؤيتهم، وينشرح صدرك بالنظر إليهم، وتقول: هؤلاء المتقون، ولكن الله تعالى ينظر إلى قلوبهم فيرى همة لغيره، وهوى في غيره، وأخذت الحظوظ والأهواء تمتزج بأنوار الإسلام في القلوب حتى كاد هذا النور يطفأ من القلوب، وأصبح هم الناس دنياهم، فوكلهم الله إلى أنفسهم بتركهم العمل بكتابه العزيز والاقتداء بنبيه الكريم (ﷺ)،

---

(1) رواه أحمد في الجزء الثاني صفحة 285، 539 ومسلم في كتاب البر الحديث 33 وابن ماجة في كتاب الزهد الباب التاسع.

(2) رواه الدارمي في كتاب المقدمة الباب 27.

(3) سورة الكهف آية 28.

والتشبه بأئمة السلف الصالح من الهداة المرشدين، فاكفهرت الأجواء، ونضبت العيون، وأبدلت العزة بالذل، والقوة بالضعف، والاجتماع بالتفرقة، وتركوا دينهم وبه المجد والسلطان في الدنيا والسعادة الأبدية في الدار الآخرة، ووقعوا في الذنوب التي توجب النقم، والمعاصي التي تغير النعم، وفي البدع التي تهتك الحرم، وفي المنكرات التي تحبس غيث السماء، وفي الضلالات التي تديل الأعداء، سر قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾ الرعد: ١١.

فإذا أراد المسلمون أن يجدد الله لهم المجد، ويمكن لهم في الأرض، ويمنحهم العزة به، ويجعلهم أئمة للمتقين، وسادة للعالمين، ما عليهم إلا أن يعودوا إلى ما كان عليه أسلافهم الصالحون الذين أذل الله لهم العالم أجمع، وليس ذلك بالأمر الصعب على المسلم، وكيف يصعب على المسلم عملاً يكون به عزيزاً بعد الذل ؟ متبعاً بعد أن صار تابعاً، عظيماً بعد أن صار حقيراً، بل كيف يتعسر عليه عمل يكون الله به معه، ويكون به مع الله، يجمله الله بحلل الخلافة عنه، يسخر الله له به ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه، لست في مقام إقامة الحجة على أننا تركنا معالم ديننا وأبدلنا النور بالظلمة، فأبدل الله القوم بالعز ذلاً، وبالغنى فقراً، وبقوة السلطان والتمكين في الأرض ضعفاً وهواناً، لأن ذلك أمر جلي، ولكني أعجب كل العجب من قوم جهلوا ما كان عليه أسلافنا بإقتدائهم بهدى الأئمة الهداة المرشدين، وعملهم بسنة رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ من السلطان القائم والعز الدائم والمجد الحقيقي، حتى أصبحوا إذا رأوا متمسكاً بدينه، عاملاً بسنة رسول الله ﴿ﷺ﴾، يظنون أن ذلك تقهقر، عجباً عجباً ! بلغت الغواية من الإنسان مبلغاً جعلته يجهل ويجهل أنه يجهل، يقولون: لم تتقدم أوروبا إلا بترك الدين، فاتركوا الدين تتقدموا، ونعم تركت أوروبا الدين فتقدمت، وتركنا ديننا فتأخرنا.

بم يأمر دين أوروبا ؟! ننظر إلى أصوله وإلى إمامه الأول، أمر بخراب الدنيا، قال للغني أترك مالك واتبعني، ترك الزواج ليقتدي به، قال: أعط ما لقيصر لقيصر، وأعط لله ما لله، ففصل الدين عن الدنيا، أهمل الحدود، فقال للزانية التي شهد عليها الشهود أنها زنت: انصرفي، يدينك من يدين الناس، أهمل الأجسام إهمالاً يؤدي إلى خراب المجتمع الإنساني، فكأنه جاء ليترك الناس الزراعة والتجارة والصناعة ليكونوا ملائكة روحانيين، وهذا محو لحكمة إيجاد الوجود، والبحث فيما خفي في الآثار من آيات موجب الوجود مما هو برهان على عجائب قدرته، وغرائب حكمته، لم

تأنس نفسه بأن يأوى إلى مسكن، نفر من أمه وقال: لست أمي، ومن إخوته وقال: لستم إخوتي، هذه أصول دين أوروبا، والمتمسكون به هم أفراد ليسوا من بني الإنسان، مسكنهم الغابات، فلو أن أوروبا تمسكت بدينها لكانوا همجاً رعاعاً، ولكنهم تركوه بعد أن علموا أنه حجر عثرة في طريق التقدم، وقبر لآيات الله المنبلجة في الآثار التي تنتجها الأعمال والصناعة، وتمسكوا بوصايا القرآن وأعمال رسول الله ﴿ﷺ﴾، واقتداء بالخلفاء الراشدين في عملهم في الدنيا للدين، وتركوا عقيدة القرآن وعبادته وأخلاقه، فهم كما قال تعالى: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾الروم: ٧. فبعثهم الله على من تركوا دينهم الحق وبدلوا نعمة الله كفراً، فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولاً، ترك القوم دينهم، ولكن عملوا بوصايا ديننا، وتركنا نحن ديننا فصرنا أذلاء.

هل دينهم أمر ببعث البعوث وبعث العلماء في أنحاء الأرض للدعوة ؟ كما قال تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾آل عمـــران: ١٠٤ لا والله، هل من دينهم إعداد العَدد والعُدد للجهاد ؟ لا والله، هل من دينهم تقوية الفكر حتى يجول فيفتق رتق المادة ويعلم ما فيها من الخواص التي أعدها الله لنفع بني الإنسان ؟. كما قال تعالى: ﴿ قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ يــونس: ١٠١. لا والله هل في دينهم العناية بنظافة الأبدان والثياب والمساكن ؟ لا والله، كما قال ﴿ﷺ﴾: « النَّظَافَةُ نِصفُ الإيمَانِ » [1] وبر الوالدين وصلة الأرحام سر قوله تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ ﴾النســاء: ٣٦وقوله تعالى: ﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ ﴾الإســراء: ٢٦، لا والله، هل في دينهم جمع الأموال وعمل المجتمعات بالتعاون كما هي فريضة دينية فرضها الله تعالى « الزكاة » ؟ كما قال تعالى: ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾البقرة: ٤٣، لا والله. وقال تعالى: ﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ ﴾آل عمـران: ١٣٤، لا والله، هل في دينهم أحكام شرعية

(1) أورده الهيثمي في مجمع الزوائد 1/ 236 والعراقي في المغنى عن حمل الأسفار 1/ 49، 134 وأبو نعيم في تاريخ أصبهان 1/ 183 والدرر المنثورة 60.

مدونة تحفظ بها المدن وتحصن بها المجتمعات ويضرب بها على يد الظالم وينصر بها المظلوم ؟ لا والله، ولكنهم أخذوها من ديننا وعملوا بها، إذن فهم تركوا دينهم وعملوا بوصايا ديننا فسلطهم الله على من تركوا دينهم الحق، ونحن أولى بديننا منهم وأحق به منهم، فلو أننا عملنا بديننا — ونحن أهل توحيد الله والمؤمنون بكتب الله ورسله — لواجهنا الله بوجهه الجميل، ورد لنا مجدنا وجعل العالم أجمع أذلاء لنا كما جعل لأسلافنا.

المراد بالعلوم العصرية وفضل المسلمين الأوائل في هذا المجال:

هذه الكلمة لا أفهم لها مدلولاً، لأني لا أعلم علماً يدرس الآن لم يكن له أصل قديم، لأن الإنسان منذ نشأته وهو يكدح في سبيل المنافسة في الحياة، وكلما توفر لديه الضروري نزعت نفسه وراء البحث عن الكمالي، فإن كان المقصود من العلوم العصرية علوم الحكمة العملية من الصناعات والمخترعات التي كانت محصورة في فنون البخار والكهرباء واستخدام الهواء فليست هذه العلوم عصرية، فإن البخار استخدمه الإنسان من أربعة آلاف سنة، فإن الكهنة كانوا يملأون المرجل من الماء ويجعلون له فوهة بصمام، ويوقدون تحته النار حتى إذا امتلأ بخاراً وضعوه في جوف الصنم ورفعوا الصمام فيخرج البخار من الفوهة بصوت مزعج، فيقول الكهنة للناس إن الإله غضبان عليكم، وينالون منهم أغراضهم، وكذلك الكهرباء فإن الإنسان من قديم يعلم قوة الجذب المغناطيسي وتأثير الدلك على جوهر الكهرمان، فكأن تلك الفنون إنما هي نتائج أفكار قرون طويلة.

وإن كان المراد بالعلوم العصرية علم الحساب والهندسة والجبر واللوغاريتم والمساحة وتخطيط الأرض « الجغرافيا »، فإن تلك الفنون لم تَصِرْ علوماً ذات أصول وفروع إلا بسلف المسلمين الصالح، فإن واضع علم اللوغاريتم هو الخوارزمي، وواضع علم الجبر هو جابر بن عبد الله الشهير، وأول من بحث في معرفة خطوط الطول والعرض وحقق تلك المسألة المأمون، وأول كرة صنعت صنعها عالم كبير من علماء المسلمين، وأول من جعل للطب كتباً يرجع إليها الرئيس ابن سينا، فإن قانونه كان يدرس بألمانيا لأواخر القرن الثامن عشر، هذا وإن الدين الإسلامي فرض تعليم العلوم على كل مسلم، لأن العبادة التي فرضها الله علينا لا يمكن أن تؤدي إلا بعلم تلك

العلوم كلها فإن تلك العلوم في حكم الفريضة لأن الفريضة لا تتم إلا بها، قال الله تعالى: ﴿ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ ﴾يونس: ٥.

فكأن تلك العلوم التي نسميها عصرية وتنزعج منها نفوس من لم يحط علماً بأسرار القرآن وينكر تعليمها ليست علوم اليوم، ولكنها تكاد تكون علوماً دينية وقد أثبت طرفاً من ذلك في كتاب (معارج المقربين) فارجع إليه — إن شئت — ولا يكون المسلمون متجملين بمعاني الإسلام حقيقة عاملين به إلا إذا أحاطوا علماً بكل الفنون والصناعات، تنكشف لهم عجائب قدرة الله وغرائب حكمته في مكنوناته، وتنبلج لهم أنوار وظيفة كل مرتبة من مراتب الوجود، وما أودعه الله فيها، كما قال تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ ﴾ الجاثية: ١٣.

الفائدة الدينية من تعليم العلوم العصرية:

المؤمن يزيد إيمانه وينقص كما هو معلوم، وإنما مزيد الإيمان يكون بقدر ما ينبلج للقلب من نور البرهان، وسطوع نور الدليل، والحكمة العملية التي منها الصناعات لا يمكن أن ينتفع الإنسان بها نفعاً عاماً إلا بعد أن يعلم خواص كل مادة من مواد عناصر الكون، ويعلم خواصها منفردة ومزدوجة ومتحدة، وما ينتج منها متحدة ومنفردة، فإذا ظهر للمسلم خواص الأشياء التي تحيط به وقدر منافعها له واحتياجه إليها، عَلِم حق علم العلم أن الذي خلق تلك الأشياء حكيم قادر لأنه سبحانه وتعالى خلقها مؤهلة لنفعه، وخلقه محتاجاً إليها، معتقداً أن وجودها ليس عبثاً، ولديها تنبلج له أنوار الآيات بعد علم الخصوصيات، فيشهد في كل شيء آية دالة على قدرة القادر البديع وحكمة المبدع العليم، وتدبير المبدئ المعيد ويفقه سر قوله تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ ﴾ الجاثية: ١٣. ويعلم قدر النعمة عليه بالعقل الذي به استخدم كل شيء سخره له مولاه، فإذا قرأ القرآن بعد هذا العلم كان كأنه يسمعه من ربه، وإن أكثر آيات القرآن حاثة على الفكر والنظر والعبرة والتبصرة، قال أبو هريرة ﷺ: (كنا نتعلم الإيمان قبل القرآن وإذا قرأنا القرآن ازددنا إيماناً) وأصبحنا نحن الآن نتعلم القرآن قبل الإيمان. فالحكمة العملية التي منها تدبير النفوس منفردة ومجتمعة وعلم سياسة المجتمعات وفنون الصناعات به يزيد الإيمان.

أما نقص الإيمان فبقدر خفاء الدليل، وإذا كان المطلوب غيباً والدليل خفياً كيف تنال المقصود ؟ فيكون الإيمان ناقصاً، وبقدر نقصه تكون الجرأة على عمل المنكرات وارتكاب المخالفات، والإقدام على المعاصي وعدم الخشية من الله تعالى في السر والعلن، والخوف من الخلق، وقد يبلغ نقص الإيمان أكثر العلماء والمدعين الإرشاد، أحبوا أنفسهم، وبذلوا ما في وسعهم بجلب الخير لها ودفع الضر عنها، فتهاونوا في تأدية الواجب عليهم من إنذار الناس عاقبة المخالفة، فصار الدعاة إلى الله لا عمل لهم إلا تبشير من أكرمهم والدعاء له وإدخال السرور عليه كائناً ما كان، وصار العلماء يجتهدون في أن يبرأوا من نسبة العلم النافع للدار الآخرة، المذكر بأيام الله المزكى للنفوس لأنفسهم خشية أن يقال لهم: إنكم لستم عصريين. واهتموا بما به يكون العالم قاضياً أو محرراً أو مدرساً، ومتى نال الشهادة اعتمد عليها، وصارت الحجة القوية يوجب بها على الناس طاعته وتعظيمه، وكأن الشهادة هي العلم، والعلم هو الشهادة، فصار المسلمون بذلك كلما فعل المرء منهم سيئة لا يجد من غيره تقبيحاً لها، ولا تخويفاً له من عاقبتها، ألفت نفوس المسلمين رذائل الأعمال.

ولو أن الله تعالى أيقظ الدعاة من نومة الجهالة، والعلماء من رقدة الغفلة، وأحبوا أنفسهم الحب الذي تنال به السعادة الأبدية لقاموا قومة رجل واحد ينبهون المسلمين إلى ما تراكم على أبدانهم من الأدران، التي ربما أدت إلى التهاب الجلد وسرت إلى العظام. وإني — يا أخي — أبشرك بأن كل ما تراه بعينك حاصل من المسلمين من المعاصي، كغبار على جسد مجرد من الثياب، يزول بأول رذاذ ينزل من السماء.

ولو شئت إقامة البرهان على ذلك فقم إلى مواطن الفجور، وذكر الناس بنعم الله عليهم وفضله الواصل إليهم، ثم تخلص من هذا الموضوع بسحر البيان إلى تذكيرهم بيوم الحساب وشدته وهوله فإنك — يا أخي — والله لا ترى إلا قلوباً خاشعة، وأبداناً خائفة، وعيوناً دامعة، ومزاحمة عليك وتعظيماً لك، وإكباراً وبذل النفس والنفيس في محبتك والانقياد لأمرك، ولكنك — يا أخي — إذا وقفت أمام إخوانك المؤمنين وهم في معصيتهم وتسلط عدوهم عليهم فنفرتهم بقوارض كلامك، وأحرقتهم بشواظ حماقتك، فإنك — يا أخي — توقعهم في أكبر مما هم فيه، وتلقيهم في مهاوي الله وغضبه، وإنما الحكيم من عرف كيف ينقذ الغريق من اليم بحيلة لا تلحقه به، وحكمة

لا تضره، قال الله تعالى: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ ﴾ النحـل: ١٢٥، وقال تعالى: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾ المؤمنون: ٩٦.

أوربا تفوقت على الجاهلية الأولى
أنواع المجتمعات

مجتمع الحيوانات في الغابات وغيرها:

معلوم أن الحيوانات حرمت العقل الذي يعقل عن الله، ومتى فقد هذا العقل ولو من مجتمع إنساني انحط عن مرتبة البهائم، ولو أنه شاد أعظم المدن وتفوق في الصناعات والفنون. وإليك ما عليه الحيوانات في مجتمعاتها وخصوصاً المفترسة منها يقهر بعضهم بعضاً، لإبادتها وضررها لا ينال منها منفعة، حتى كأنه مطبوع على أنه لا يبقى في العالم غيره، أو لاعتقاده أن وجود كل ما سواه ضار له، أو أنه يقصد أن يجعل بقية الأنواع مستعبَدة له يستعملها في منافعه، فيفترس منها كل يوم ما فيه كفاية قوته وقوت أنثاه، وهذه صفة الحيوانات، فقد يكون كل شخص من نظيره بهذا الحال، فتراها دائماً تتغالب ويهرب بعضها من بعض، والقاهر منها يكون متمتعاً بشهوتي البطن والفرج، وترى بعضها يهلك غيره لأن بقاء غيره نقص ومضرة في وجوده، فإن أبقى الحيوان غيره فإنما يبقيه لأن في طبيعته أنه موجود، ولينتفع به فيستعبده.

وهذه الطبائع التي في المجتمعات الحيوانية تشبه مجتمعات أوربا، فإنها بما أوتيت من آلات التدمير والإبادة تعمل عمل الحيوانات المفترسة، فإنها إذا وجدت قوماً عزلاً من السلاح ليس لهم دين يجمعهم ولا قوة تحصنهم، تغلبوا عليهم فأبادوهم بقوة الحديد والنار، والحجة في ذلك أمريكا وأستراليا ومجاهل أفريقيا. وإذا علموا بأمة متحدة بأخرى ذات قوة ولها دين يجمعها ومدن عامرة بالصناعة والفنون، خدعوها ففصلوها عن الأمة الحامية لها، واستعبدوها أولاً بالخديعة والكيد بدعوى أنهم رجال الإصلاح والرفق بالحيوانات وتحرير الرقيق والرحمة بالمرضى. فإذا تمكنوا بالخديعة والكيد كشفوا الغشاء الحريري الذي على اليد الحديدية، ولطموا الأمة بالحديد والنار كما فعلوا في شمال أفريقيا والهند والصين وجاوا وسوريا وفلسطين وسيبريا وغيرها، مع أن الجاهلية الأولى ما سمعناه عنها في التاريخ لم يبلغ غاية الظلم والجور هذا المبلغ.

وإليك بيان المجتمعات الجاهلية والضالة:

كانت تلك المدن أيام كان دينها مؤسساً على آراء ضالة سافلة مدنا جاهلية، فقد كان يرى بعض من يدعون العلم بأسرار الكون لقومهم آراء أحط من حال الحيوانات فيقول: إنا نرى الموجودات المحسوسة متضادة، وكل واحد منها أعطى مع وجوده قوة يدافع بها عن نفسه من الهلاك، ومعه قوة أخرى يستخدم بها سائر الأشياء لينال باستخدامها السلامة والكرامة ونيل الشهوات، حتى بلغ بهم هذا الوهم الباطل مبلغا صار به كل واحد من أصحاب هذه الآراء، هو الذي يجب أن ينفرد بالسلطة على الغير ونفوذ الكلمة حتى يكون سيد الجميع. وتلك القوى التي ذكرتها لك في الأنواع الحية، كالقرون في نوع البقر والغنم والغزال والكركدن، وكاللطم باليد في السباع، وكالأنياب والزلومة في الفيل، حتى والبراغيث، وكالسرة التي يعرك بها الجمل عدوه، وكالرفس بالرجلين في الحمير، وكالجرأة في النمر، وكاللدغ في إلقاء السموم في الأفاعي، وكاللسع في العقارب، وكالعظام التي في ظهور الأسماك، وكالثوب في الجحر التي تختبئ فيه الزحاف والحيوانات الصدفية، وكسرعة العدو في حيوانات الغابات الضعيفة، وكالأجنحة في الطيور، ومن القوى ما وضعه الحق تعالى في مناقير بعض الطيور كالديكة والباز والنسر من الطيور الجارحة، وكالعقل الذي يكتسب به الإنسان اختراع الآلات والأدوات المدمرة والمبيدة لكل حي، وكقوة التسلق على الأشجار في القردة والنسانيس، وكنظم المجتمع كما في بعض الطيور والنحل والنمل والأنواع التي لها مدينة كالحصون التي تحتمي بها، قال تعالى: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمْ﴾ **النمل:** ١٨ وشر القوى التي يدافع بها الإنسان عن نفسه ويهلك غيره العقل المكتسب عند أهل النفوس الخبيثة، الذين عطلوا العقل الذي يعقل عن الله بإقتدائهم بأهل الآراء السافلة، التي تجعل المجتمع الإنساني كمجتمع الوحوش الكاسرة في الغابات، وانتشرت تلك الآراء الوحشية بين كل الأمم الجاهلة والضالة حتى كان كل واحد منهم لا يستريح إلا بالانتقام ليكون جباراً في الأرض، كما قال المصري لموسى: ﴿إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ **القصص:** ١٩. كانت المجتمعات كلها قبل الإسلام جاهلية أو ضالة، أو مبدلة وهي مدن أهل الأديان السماوية الذين بدلوا الحق بالباطل. قال أرسطو في زمن الجاهلية لإسكندر المقدوني: « فقر تملك » وكان بعضهم يقول: « اقهر تسد » وآراء أوروبا الآن: « دمر المدن العامرة وأهلك سكانها بالحديد والنار تخلد إلى الأبد، وقدم أفراد الأمة لنار المقذوفات لتستريح من أمتك ومن أعدائك، وتستأثر بالحياة التي لا ينازعك فيها قريب ولا غريب » وقد أيدوا تلك الآراء السافلة بنشر الجحود من القائلين بأن

الإنسان أصله قرد، وأن المادة هي الخلاقة وليس فوقها شيء، وأن الإنسان قادر على كل شيء. كل تلك الآراء المراد منها محو فضائل الأديان السماوية، والكفر بيوم القيامة.

ينحط الإنسان عن رتبة الوحوش الكاسرة، فتصبح الأرض – لا قدر الله ذلك –كما كانت قبل خلق الإنسان، كل إنسان على وجهها وحش كاسر، هذا ما عليه الغربيون الآن، وهي الهاوية التي تلقي بالإنسان في جحيم العذاب في الدنيا والآخرة، فلو تبصرت جيوش الدول الغربية المسوقة ظلماً إلى فقد الحياة، ليتمتع أهل الآراء الباطلة، لثاروا عليهم ثورة لا تبقي منهم أحداً لراحة المجتمع الإنساني. كان بعض ما عليه الغربيون صفات المدن الجاهلية والضالة، حتى أشرقت أنوار الإسلام بالسلام والرحمة والمساواة والحرية، فلما تساهل المسلمون عادت تلك الآراء المضلة، إلا أنها وضعت في عبارات خلابة، وانتشرت تلك الآراء في البلاد الغربية انتشاراً جعل القوم يسمون أرذل الرذائل فضيلة، وشر الظلم عدالة، واختراع الآلات النارية التي تبيد الإنسان إصلاحاً وعلماً. ولم تقف المفاسد عند حدود أوروبا، ولكنه مرض وبئ أصاب كثيراً من أمراء الشرق، فترى الرجل يسعى ليسمي نفسه ملكاً، ثم يقوم ليغتصب جيرانه من الأمم، ويلقي الحروب الطاحنة بينه وبين إخوانه من الأمم المجاورة له بسلاح أوروبا، لتستعبد أوروبا الجميع بعد أن تنهك الحروب قواهم، فيصبح الملك منهم سوقة، ولات حين مندم. فأغاثنا الله لإحياء الروح الإسلامية برجال يحبهم ويحبونه.

الجاهلية الثانية في الدول الغربية

أخطر على الإنسانية من الجاهلية الأولى:

الجهل نقص عظيم، ولكن الجاهل يعذر لجهله، وترك العمل بالعلم نقص عظيم، ولكن العالم لا يعذر بتركه، قال الله تعالى: ﴿ وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾النساء: ١١٠.

كل إنسان على يقين من الموت، وللمسلم يقين آخر وهو أنه سيبعث ويحاسب، فإما إلى جنة وإما إلى نار، فنسيان غير المسلم للموت أو حرصه على الأعمال التي تدل على بقائه ودوامه من الطمع في الدنيا، والبخل بها، وطلبها ولو بإهلاك غيره سببه الجهل بيوم الحساب، وله سبب آخر: أنه يحب أن يتمتع بحياته الدنيا بجميع الملذات والشهوات، حتى إذا مات يكون قد تحصل على نيل جميع شهواته، ولكن المسلم كيف ينسى الموت حتى يظن أنه باق، وهو لا يمضي عليه يوم إلا ويرى نظائره مساقة إلى القبور، بل كيف ينسى ما آمن به من القضاء والقدر ويوم القيامة وحساب القبر، حتى يبلغ درجة من الغفلة تجعله من أهل الجاهلية بتقليده لأوربا، أقول، شراً من الجاهلية، وأقيم الحجة:

أهل الجاهلية ينكرون البعث وينافسون في البقاء منافسة تجعل الدماء رخيصة في جانبها، فكان الواحد منهم يقتل الآخر ليتلذذ بماله، وكانت أسباب ارتزاقهم السلب والنهب، ولكنهم مع ذلك كانوا أهل ذمة ووفاء، وحفظ للعهود والمواعيد، وأهل نجدة للجار، وأهل غيرة على الفضائل الاجتماعية، إذا أكل الرجل مع الرجل أنزله منزلة نفسه، وإذا قال له أعدى عدوه أنا في ذمتك أنزله منزلة نفسه، وكان من وفائهم أن الأسير إذا ذكر المالك له بمقابلته مرة، أو بالأكل معه، أو بالشرب معه، أكرمه وفاء، وحروب بكر وتغلب سببها قتل كليب ناقة لامرأة في جوار جساس، لأن الرجل إذا نزل في جوار رجل جاهلي بذل لأجله ماله ودمه، وحفظ عرضه، قال حاتم الطائي:

وما ضر جارا يا ابنة العم فاعلمي يجاورنا ألا يكون له ستر

وقال غيره:

ونكـــــرم جـــــارنا مــــادام فينــــا ونتبعـــــه الكرامـــــة حيـــــث مـــــالا

فكان الوفاء وصدق الوعد والغيرة والنخوة والنجدة من صفات الجاهلية العمياء، مع ما كانوا عليه من الشرور في منازعة البقاء، ولكنا أصبحنا الآن في حالة هي شر مما كان عليه أهل الجاهلية.

كان أهل الجاهلية ينازعون في البقاء بسيف ورمح وسوط، وأصبحنا نقلد أوربا، وأوربا تنازع في البقاء بكل وسائل الشر.

كان شياطين الجاهلية يطلبون بعض الأموال ويتركون النساء والعيال، إلا من دافعهم، فكانوا يقاتلون بالسيف والرمح فلا يقتل إلا أفراد في المعركة لا يعدون على الأصابع، كما يفعل اللصوص ليلاً، ولكن أوربا فاقت الجاهلية العمياء، فلا تكتفي بالمال ولا باستعباد الرجال والعيال، بل بلغ بها الظلم إلى حد أنها تمحو أثر الأمة من على وجه الأرض، بالآلات الجهنمية التي تحصد النفوس حصداً، وإلا فأين المسلمون في الأندلس وفي غيرها من جزر البحر الأبيض ؟ وأين أهل أمريكا الزنوج ؟ شياطين الجاهلية كانوا إذا وعدوا وفوا، ولو وعد الرجل بأن يحضر للقتل، ورجال أوربا المصلحون تكثر وعودهم وعهودهم ويسرع وعيدهم وعذابهم، فهم إن وعدوا إنما يعدوا ليستعدوا لحصد النفوس، ومحو آثار الأمم، وإن احتلوا للإصلاح أفسدوا وتسلطوا على الملوك والعقلاء وأهل النجدة والرأي، فأذلوهم في بلادهم، أو طردوهم منها، وإذا استجار بهم مستجير استعملوه في مضرة أهله. فإن أطاعهم عاملوه معاملة راعي البهائم لبهائمه، فسمنوه وأكلوه، أو غذوه واستعملوه.

تدعي أوربا أنها مصلحة، وناشرة للحضارة والمدنية، ولكن أين إصلاحها وحضارتها لأمريكا، أصلحت ولكن إصلاحها لمن ؟ هل أصلحت السكان الأصليين ؟ لا.. ولكن أصلحت نفسها بالسيادة والترف، والاختصاص بالخير دون غيرها من أهل البلاد.

يدَّعون أنهم جاءوا لرقي الأمم، ودفع المضار عنهم، ولكن أين أثار هذا الرقي ؟ وأين آثار هذا النفع ؟.

ظهرت آثاره جلية في سلب الملك من أهله، وحشو السجون بكبار الرجال، وحصد النفوس في الشوارع، وإطفاء شعلة العقول والأفكار، وغل الأيدي، وقطع الألسنة، حتى أصبحت الأمة المحتلة بدولة من دولهم أجهل من سكان أواسط أفريقيا، وأذل من الحيوانات الداجنة، قال العربي:

لا يحمــــلُ الضَــيْم في أرضٍ يعــيشُ بهـــا إلا الأذلان عــــــيرُ الحــــــي والوتـــــــدُ
هــــذا علـــي الخســـفِ مربـــوط برمتِـــه وذا يشـــج فــــلا يرثـــى لـــــه أحــــدُ

أصبحت الأمم المحتلة بدول الإفرنج كالحمير، تستعمل حتى تكاد تموت، فإذا مَلّت العمل قيدت بالحديد، وعلقت من رقبتها في السلاسل، وقدم لها قليل الطعام، فهي مغلولة في راحتها، متعبة في عملها، وكذلك الأمة المحتلة تعمل بالقهر، فإذا استراحت من العمل كلفت ألا تتكلم ولا تكتب، أو تزج في السجن.

هذه هي مدنية أوربا وحضارتها، وهذا هو إصلاحها ورحمتها، فاقت الجاهلية الأولى في منازعة البقاء، فصار القوم عبيد المادة، وصارت قلوبهم أقسى من الحجر، وصار عمل الخير لديهم وسيلة لإهلاك العالم أجمع، يؤسسون جمعية الرفق بالحيوانات، وينشرون المدارس والمستشفيات، وينشرون المبشرين بالدين المسيحي، ويعينون في كل عمل من أعمال الحكومة رجالا منهم بدعوى الرحمة بالأمة، ونجاة الأفراد من ظلم إخوتهم، عمل ظاهره خير، وباطنه من قبله العذاب.

جهل الشرق قصودهم فطنطن أهل الغفلة بمدح حضارتهم، ونشر أهل الأقلام على صفحات الجرائد رحمتهم وإصلاحهم، حتى أصبح أهل الغرور يصوغون عقود المدائح للإفرنج على ما جاءوا به للشرق من إطلاق حرية العهارة والخمر والربا، حتى ذمت الفضائل، وحبذت الرذائل، وسارع ملوك الشرق وأمراؤهم وأغنياؤهم إلى تقليد الإفرنج في المأكل والمشرب والملبس والمباني، والأساسات المنزلية والاجتماعات، بحالة أفسدت على الشرقيين دينهم وعرضهم، وأضاعت ملكهم

وأموالهم، حتى انتهى الأمر باستعبادهم وذلهم، باستيلاء المحتلين على قوة الجيش والمالية والزراعة والتجارة والتربية.

وأصبحت ترى الشرقي يحب أن يرى امرأته وبنته وأمه في الأسواق، بل وفي مسارح اللهو، يشهدون تمثيل القبائح والفضائح، بل ويخرج إلى الأماكن التجارية للإفرنج، ويسره أن تغازل امرأته وبنته وأمه التجار والخدمة، يأخذ ابنه وأخاه وصاحبه، ويتوجه إلى بيوت الخلاعة ويجلس فيلاعب فتيات الإفرنج الذين يقدمون المشتهيات أمام ابنه وأخيه، فيفسد نساءه نهاراً ويفسد أفراد العائلة ليلاً، وإذا أخذ الرجال وخرج، اجتمع نساؤه وخرجن بنية استنشاق الهواء في الرياض والمتنزهات، ويعلم قدر ما أضاع هذا المغرور بحضارة أوربا من دين وشرف ومال، بل وقدر ما أضاع من متاعب المزارعين والعمال عنده، لأنهم حصلوا له هذا المال بعرق جبينهم وتعب أبدانهم، وعاشوا في جوع وعرى ونكد، وأخذ نتائج أتعابهم فأنفقها على غير مستحقها من الإفرنج، ولا يمضي زمن إلا ويسلب الإفرنج أطيانه، ويرجع بخفي حنين، هذه هي رحمة الإفرنج، وهذه عاقبة من قلدهم وحبذهم لغيره، وهذه هي حقيقة الماديين الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، ممن شنع الله عليهم بقوله: (رضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها).

وهل بعد كشف الستار عن تلك الحقائق يعذر من قلد الإفرنج أو أحبهم أو والاهم وساعدهم، اللهم إلا إذا كان أبوه إفرنجياً وكانت أمه غير عفيفة، فإن المثل الفلاحي يقول: (الدم يحن) سلوا – يا قوم – الأندلس أين المسلمون الذين فيك ؟ سادوا وشادوا وعمروا وأسسوا، وكان عددهم أكثر من اليونان وبلغاريا وصربيا ورومانيا بل وأكثر من بلجيكا وهولندا والدانمارك وسويسرا، لا أبعد بك، سلوهم أين ملوك الهند وأمراؤهم ؟ وأين ملوك مصر وحضارتها وعلماؤها وقادتها ؟ وأين مدنية المغاربة والمشارقة ؟ وأين صناعاتهم وفنونهم التي أدهشت عقول فحول الصناع في أوربا ؟ لا تزال مصنوعات الشرق قبل الإسلام تحير أفكار المخترعين، ولا تزال مخترعات الشرق في العصر الإسلامي تذل أمامها عقول المتفننين، وإنا – والحمد لله – قد قامت الحجة على قصود الإفرنج ونواياهم، من منازعة الحياة منازعة يقصد بها محو الشرق وأهله، لتصبح آسيا وأفريقيا أمريكا ثانية، ولكن تحقق الإفرنج أن الدين الإسلامي هو دين الله الحق، وأن الله سبحانه وتعالى حافظ دينه، وتحققوا أن الإسلام هو القوة المعنوية الحسية التي تحارب تلك الرذائل المادية،

وتدفع منازعة الحياة الشيطانية، فهموا بما لديهم من القوة والمخترعات أن يطفئوا نور الله بأفواههم ليتمكنوا من الشرق وأهله، والله تعالى غالب على أمره.

نشروا المبشرين في الآفاق، فوجدوا أمامهم سد يأجوج ومأجوج، لأن المسلم الذي بين له دينه مرتبته من الوجود، وأعلمه أن الله تعالى خلق له ما في السموات وما في الأرض، وأعد له بعد الموت نعيماً مقيماً في جواره، لا يقبل من المبشر أن امرأة ولدت ولداً من الله تعالى، وأن إنساناً نظيره يحل ويحرم، ويغفر ويعذب، ويقبل التوبة من نظرائه، وأن الله المنزه القدوس له ولد، وكيف يقتدر الإفرنج على هذا النور، وقد سجد له العقل، واطمأن به القلب، وثلجت به النفس، بل وظهرت قصودهم من الاستعمار، وقد آن للشرق أن يعيد ما كان له من المجد، وهذا أمر سهل على جماعة المسلمين، لأن الله تعالى أغناهم بكنوز بلادهم، وحفظهم بما أودعه فيها من جو صاف، وهواء معتدل، وماء نمير، وأرض خصبة، وفكر ثاقب، وأجسام قوية نشيطة، فالشرق في غنى عن الغرب بما منح الله أهله من العقول الراجحة، والنفوس القابلة للخير، والكنوز المعدنية، والأراضي الخصبة، وما بقى إلا اليقظة والعمل، والنظر إلى رجال الإفرنج بعين التحفظ، حتى يتمتع الشرق بما آتاه الله، وينفع الأمم الأخرى بمجهودات أفكاره، وبعمل جوارحه، حتى يعيش الشرق في هناء وصفاء، نافعاً حراً مريداً، ويتخلص من الذل والاستعباد، فتحتاج إليه أوربا في كل شيء.

أوربا تقول لتخدع والإسلام يعمل لينفع (وشتان بينهما):

ليس من يقول ليخدع كمن يعمل لينفع. يظن من يجهل روح الإسلام أن دول أوربا هي دول الإصلاح والسلام، وهم في الحقيقة دول الطمع والحرب على أنفسهم قبل غيرهم، لأنهم أسسوا رقيهم في هذا العالم على ثلاثة أسس: أولها: ما اخترعوه من الآلات الجهنمية. وثانيها: ما أتقنوه من نقض العهود وخديعة الأمم. وثالثها: ما ابتدعوه من مفسدات للعقول، ومن سعى لاختلاف الأمم الإسلامية خاصة، والشرقية عامة بعضها على بعض، ومن خروج كل هيئة من الهيئات في كل أمة على بعضها. ولكن خاب فألهم، فإن غير المسلمين في الشرق تذكروا حسن المعاملة وخير الجوار بين المسلمين قروناً طويلة، وتحققوا مقاصد دول الاستعمار من إبادة النفوس، وسلب مرافق الحياة، وتدمير المدن العامرة. وليست أستراليا وأمريكا والأندلس ببعيدة عن الذاكرة،

بل ولا فلسطين وسوريا والريف والهند والسودان وجاوا والموصل والعراق بغائبة عن الحس، فإن دول الاستعمار سلبت صناعات القوم وفنونهم وتجاراتهم وزراعتهم، فأصبحت كل أمة أذل من الرقيق في أوطانها. ولم يكف تلك الدول سلب مرافق الحياة حتى سلبت عاداتهم الفاضلة، وأخلاقهم الجميلة، ووحدتهم القومية. ثم تعدت ذلك حتى سلبت من قلوبهم العقيدة الحقة بزخارف كلامية، فأصبح القوم – وخصوصاً بعض من تلقى العلم منهم في الأزهر – يكذبون القرآن في أخباره، والتوراة في قصصها والإنجيل في روايته عن الأنبياء، بوقاحة يخجل أن يرتكبها إبليس، لأن إبليس يوسوس فإذا تمكن من قلب الجاهل قال: إني بريئ منك، إني أخاف الله رب العالمين.

هذا هو الإصلاح والسلام اللذان تنشرهما دول الاستعمار...

الإصلاح: إلقاء العداوة والبغضاء بين كل أمة، وخروج كل أمة على الأخرى. والسلام: التفنن في اختراع الآلات الجهنمية من الحديد والنار، فيقذفون على الأمم الحمم (مذوب المعادن) من الجو ومن البحر ومن البر، ومن تحت طبقات الأرض، ويعززون هذا بأن الأمة في حاجة إلى الإصلاح، ووضع السلام بينها، وتمتعها بثمرات ما لديها من المعادن والزراعات والتجارات. ويعلم الله تعالى أن القوم في لينهم شر من الوحوش الكاسرة في غضبها. لا ينكر أحد أن الإصلاح والسلام بالإسلام، إلاَّ خبيث شر على بني الإنسان من الشيطان، وأضر عليهم من سعير النار، بل ومن السيل الجارف، والله لا يهدي كيد الخائنين.

الإسلام هو القرآن وكلام رسول الله وعمله وسيرته، وما كان عليه أئمة الهدى بعده ﴿ﷺ﴾، وليس الإسلام ما عليه المسلمون الآن. ودليلنا على ذلك أنهم لو كانوا مسلمين كما يدعون لما تمكن منهم عدوهم، ولا جاس خلال ديارهم، ولا قدر أن يطعن في دينهم، ولا نشر بينهم الفحشاء والمنكر من الزنا وعمل قوم لوط والمسكرات جهراً، ومن الربا والمخدرات، بل ومما هو شر من ذلك وهو اتخاذ عدو الله وعدونا أولياء نلقي إليهم بالمودة، حتى يكون بعضنا آلة لكيدنا وضررنا.

وليس أدل على أن الإصلاح والسلام بالإسلام، من بقاء أقلية ممن يتدينون بغير الإسلام متمتعين بالحرية والمساواة، كان يقف الرجل منهم بجانب الخليفة أمام القاضي فيحكم على الخليفة، بل ويقف القبطي بجانب ابن أمير مصر فيأمر الخليفة القبطيَّ أن يلطم ابن الأمير قصاصاً في يوم الحج الأكبر، ويأمر الخليفة بهدم الدور الأعلى من بيت بعض الأمراء محافظة على عرض جاره القبطي في مصر، حتى لا ينظر من الدور الأعلى إلى عورات داره. فكان غير المسلم مع القلة والضعف، متمتعاً بما يتمتع به الأمراء من الحرية والغنى والمساواة. حتى اعتنق الإسلام أكثر الأمم من غير ترهيب ولا شدة، وإنما كان سيف الإسلام لمحو عروش الظلم المنازعين في الربوبية. ونحن المسلمون أحوج ما نكون الآن إلى الرجوع إلى ما كان عليه سلفنا الصالح، من العقيدة والعبادات والمعاملات والأخلاق، لنسعد في الدنيا بالتمكين في الأرض بالحق والعزة التي وعدنا الله بقوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾المنافقون: ٨ونسعد يوم القيامة في جوار الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً.

الباب السادس
الوسيلة السادسة لنيل المجد الإسلامي

اللغة العربية

الوسيلة السادسة لنيل المجد الإسلامي
اللغة العربية

أكتب في هذا الموضوع كتابة لأخي الذي منحه الله عين العبرة وقلب الفكرة، فنظر بقلبه إلى ما كان عليه السلف الصالح وما نحن عليه الآن، فشعر بالفرق البين، بين عز ومجد وعلو في الأرض في الدنيا، وجوار رب العالمين في مقعد صدق يوم القيامة، هذه حالة سلفنا. وبين ذل لمن كانوا عبيداً لنا، وفقر لمن كانوا تبعا لنا، وخوف ممن كانوا يعوذون بنا، يتخطفنا من أرضنا مَن كانوا أهل ذمة أو أرقاء، نتصرف فيهم متى شئنا وكيف شئنا هذا كله في الدنيا، والعذاب الأليم يوم القيامة، أعوذ بالله من مخالفة السنة والعمل بغير كتاب الله. من كان يشهد هذا الفرق العجيب بين الآباء والأبناء؛ كيف لا تحصل له الحيرة، ويبكي نادماً على ما فرط في جنب الله، ويبحث عن هذا المجد الذي تفضل الله به على أجدادنا الذين كانوا في جاهلية عمياء قبله، وكانوا على شفا حفرة من النار فأنقذهم الله به من ذنوبهم، فأصبحنا كما تعلم، ويشهد التاريخ والآثار الباقية.

هذا المجد حقاً لم يكن إلا بقوة الاتحاد والائتلاف والتعصب لإعلاء كلمة الله، والعمل بكتابه وسنة نبيه، ولا اتحاد إلا بدين ولغة ونسب ووطن، ولم تجمع تلك المعاني كلها إلا في الإسلام، فإن للدين لغة هي لغة القرآن، ولغة رسول الله ﴿ﷺ﴾، ولغة أئمة الهدى من عرب وعجم، فإن أكثر أئمة الهدى كانوا من العجم ولغتهم هي لغة القرآن.

هذا سيدنا سلمان الفارسي، وهذا سيدنا بلال الحبشي، الذي جعله أمير المؤمنين سيدنا عمر بن الخطاب سيداً بقوله: أبو بكر سيِّدُنا، وأعتق سيِّدنا – يعني بلال – وهذا صهيب الرومي، الذي ورد فيه: (نِعْمَ العبدُ صهيب لَوْ لَمَ يَخَفِ الله لَمْ يَعْصه). كلمة أثنى الله بها على رسله الكرام وهي كلمة: نعم العبد، وقد أثنى بها رسول الله ﴿ﷺ﴾ على صهيب. وهذا سيدنا أبو رافع مولى رسول الله ﴿ﷺ﴾، وسيدنا حارثة، وسيدنا زيد بن حارثة، وسيدنا أسامة بن زيد، الذي أَمَّره رسول الله على أئمة المهاجرين والأنصار وغيرهم، ومن لا يحصي عددهم من الأعاجم لم تكن لهم لغة إلا لغة القرآن.

ثم قام بتنفيذ تلك السنة أئمة المسلمين في كل زمان، فكانوا إذا فتحوا مدينة من المدن حثوا من أسلم على تعليم اللغة العربية، حتى يفهم أسرار الدين وتنكشف له أنواره، وكأن اللغة

العربية أصل من أصول الدين، لا يكون الدين كاملاً إلا بها، وبدونها لا يكون المسلم مسلماً كاملاً، بل يكون مقلداً لا تشرق على قلبه أنوار الإسلام، ولا يظهر لنفسه جمال الإسلام الحقيقي.

وما عينٌ رأت من خلفِ سِترٍ كَعَيْنٍ شَاهَدَتْ حِسَّا ومَعنى.

ولما كان الدين الإسلامي هو كتاب الله وكتاب رسول الله، كان لابد للمسلم أن يحفظ من القرآن ما يجب عليه أن يحفظه، فرض عين أو سنة مؤكدة، ليس المراد بحفظه أن يكون كالببغاء، يتكلم بما لا يفهم، فإن ذلك لا يكون به المسلم مسلماً قد أقام الصلاة ونطق بكلمة التوحيد. فعلى كل مسلم أن يجعل أول مهم يبذل قصارى همته في نيله تعليم اللغة العربية، وفهم معانيها بقدر ما يخرجه عن أن يكون كالببغاء، بل يحفظ رتبته في الوجود، فلا يعمل عملاً إلا ويعلم سره، ولا يعتقد اعتقاداً إلا بعد أن يطمئن قلبه به، إما بنور التسليم أو بواضح الحجة. ومن قال إني مسلم ولم يتعلم اللغة العربية تعصباً للغته، ورأى لغته أحب إليه من لغة القرآن، وأخذته الغيرة على لغة آبائه وأجداده التي لم يكن المراد منها إلا التفاهم فقط، كان هاوياً في هاوية الذل في الدنيا، وفي حطمة العذاب في الآخرة، لأنه يصير ممن لغة آبائه أحب إليه من لغة كتاب الله وسنة رسول الله، ولو تدبر أخي المسلم – بصَّره الله بعيوبه ونقائصه – في هذا الأمر لتحقق أن عمله غير سنة، ومحض جهالة لا ينتفع بها في الدنيا، بل تضره في الدنيا وتوبقه فى العذاب الأليم في الآخرة، لأنه لجهله باللغة العربية يحرم فهم أسرار دينه، وعلم جمالاته الحقيقية، وما كان عليه الأئمة الهداة المرشدون من العوائد الحسنة، والشمائل الجميلة، والعزيمة الموجبة لرضوان الله تعالى، وكل تلك الكمالات لا يتحصل عليها إلا بتعليم اللغة العربية.

ولقائل أن يقول: إن أكثر من يتكلمون باللغة العربية يجهلون كل تلك المعاني، فأُجيبُه: إن جهالة المتكلمين باللغة العربية بتلك المعاني أنتجت لهم المذلة والخسران في الدنيا، لأنهم أهملوا تعليم لغة القرآن والسنة، واقتصروا على اللغة العامة، واجتهدوا في التفنن في تعليم اللغات الأعجمية، ولو أنهم تعلموا اللغة العربية لفهموا أسرار القرآن، ولفقهوا أحكام الله سبحانه وتعالى.

شرف اللغة العربية بالقرآن:

أيها المسلم.. دينك الإسلام، ووطنك الإسلام، ونسبك الإسلام، ولغة القرآن هي لغتك، فلم تلقى بنفسك من الأفُق العلي إلى المكان السحيق ؟ تبعد نفسك عن الله تعالى وعن رسوله ﴿ﷺ﴾، وتقطعها من أخوة المؤمنين فتقول: إني تونسي، أو أفغاني، أو تركي، أو مصري، أو بخاري، نعم.. أنا أقول تلك الكلمة عند التعارف لأميز نفسي أمام غيري، ولأرفع الستار عن منزلتي من إخوتي المؤمنين، فربما كان المتكلم معي له قرابة لي لها واجب شرعي غير واجب الأخوة الإسلامية، من صلة أو إحسان. لكن يلزم أن أكون موقنا أن الإسلام وطني ونسبي، كما أنه ديني. وأن لغتي هي لغة القرآن التي لا أتكلم إلا بها، ولو مع غير المسلم كائنا من كان، من غير نظر إلى أني تركي أكره أن أتكلم بلغة العرب، أو أني صيني وهي لغة العرب، بل لأنها لغة القرآن لا لأنها لغة العرب. فإن تعصب العربي لها لأنها لغته ولغة آبائه فقط، بذلك يكون فاسقاً ضالاً. كما يحصل التعصب للغة العربية من نصارى مصر والشام زعماً أنها لغة آبائهم، أو أنها اللغة الفصحى التي من دونها كل اللغات. فمن تعصب للغة العرب بتلك المعاني فقط فليس بمسلم، وإن كانت في الحقيقة هي اللغة حقاً. ويجب على كل عاقل من أنواع بني الإنسان أن يتكلم بها، لغزارة مادتها، وخفة ألفاظها على النفس، ولتأثيرها الروحاني على أهل العقول وحسن أساليبها، ولكن مجدها الحقيقي وشرفها الحقيقي من جهة أنها لغة القرآن فقط، فمن لم يتعلمها بعد علمه بأنها لغة القرآن وقال: أنا مسلم، فقد ظلم نفسه وأساء إليها.

أيها المسلم الحبشي والنوبي والفارسي والبخاري والتركي، تعلمك اللغة العربية ونطقُك بها لا ينسيك نسبك لآبائك، الذي به التعارف والتمييز، ولكنه يجملك بالنسب الرباني، ويجعل لك ملكاً يدوم ولا يزول، تنتقل منه من ملك الدنيا إلى الملك الكبير الأبدي في جوار رب العالمين. وأنت أيها العربي المدعي أنك أشرف الخلق، وأن اللغة العربية هي أعظم اللغات، إن كنت تقول ذلك لأنك مسلم مؤمن بالله ورسوله، فأنت صادق لأن أكرم الخلق على الله الأتقياء، وإن حكمت بشرف اللغة العربية لأنها لغة القرآن صدقت، وهذا ما يقول به أخوك التركي والفارسي والهندي والصيني والسوداني.

وأي مسلم من أنواع الخلق تقول له: اللغة العربية أفضل اللغات، ويجب تعلمها لأنها لغة القرآن، يقول لك لا ؟ وأي مسلم من أي أنواع الناس تقول له: إني عربي مؤمن بالله ورسوله عامل بكتاب الله وسنة رسول الله، فأنا كريم على الله، ويقول لك المسلم لا ؟.

إذاً.. تنبه من غفلتك أيها العربي، واحفظ لإخوانك المسلمين حقوقهم، وإن كان ما يفتخر به اليهودي والنصراني والمجوسي ممن يدعون أنهم عرب هو فخر لك فاستعذ بالله أيها الإنسان، فمن افتخر على إخوته المؤمنين بما يفتخر به هؤلاء فليس بمسلم عند العلماء. وكيف يرضيك أن تقول إني عربي، وأنت تعين الكافر الذي يتعصب للغته ليفرق كلمة إخوتك المؤمنين من ترك أو فرس أو هنود أو أفغانيين، إذا كنت تعادي إخوتك المؤمنين لأنهم ترك، وتحب النصارى واليهود لأنهم عرب، أعوذ بالله ممن أعماه الحظ وأضله الهوى. كل مسلم يتعصب لجنسه فقط، أو للغته فقط، بدون نظر إلى الدين كما يتعصب اليهود والنصارى للّغة العربية أو العرب، فذلك عدو لا نصلي عليه إذا مات، ولا ندفنه في قبور المسلمين، ولا نزوجه منا لأنه مرق من الدين كما يمرق السهم من الرمية.

وأنت أيها الأخ التركي والفارسي والهندي والبخاري، بل وكل من تفضل الله عليه بالإسلام، واختارهم لتوحيده ولكتابه المجيد، اعلموا أن النصارى واليهود ممن يدعون أنهم عرب شياطين يسعون في جماعة المسلمين، ليفسدوا ببث روح التفرقة بين المسلم والمسلم بشيء ما أنزل الله به من سلطان، وهذا سلمان الفارسي من آل بيت رسول الله، كالعباس بن عبد المطلب وحمزة ﵄. وأبو لهب الهاشمي مقطوع من هذا البيت الكريم. وبلال الحبشي من نسب رسول الله، وزيد بن حارثة جعله رسول الله ﴿ﷺ﴾ ابنه كالقاسم، وزوّجه سيدة من سادات بني هاشم. ليس الأمر يا إخوتي بنسب الآباء ولغتهم. أقول قولي هذا وأنا – والحمد لله – حسني حسيني من والدي ووالدتي، وإنما الأمر ببذل النفس والمال والجاه والنسب واللغة لنيل رضوان الله الأكبر، ولإعلاء كلمة الله، ولعلونا جماعة المسلمين في الأرض بالحق، وأستبدل كل ذلك بنسب الإسلام ولغة القرآن وعزة الإيمان لنيل رضوان الله الأكبر، ولإعلاء كلمة الله وإذلال أعداء الله، ولعلونا جماعة المسلمين في الأرض، حتى يكون الله ورسوله أحب إلينا مما سواهما، وتكون لغة القرآن

أحب إلينا من لغة أنفسنا، ونسب الله ورسوله أحب إلينا من نسب آبائنا، إلا بالقدر الذي نصل رَحِمَنا، ونتعارف ببعضنا.

دعوة إلى تعميم اللغة العربية:

يا أخوتي الترك، إن الله تعالى منحكم الإمامة ومكن لكم في الأرض، كل ذلك بالإسلام لا بغيره، وبسر روحانية رسول الله ﴿ﷺ﴾، ويعلم الله فيكم الخير، فإن الله أعلم حيث يجعل إمامته، قال الله تعالى: ﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ [1] وشُكر الله تعالى واجب، فاشكروا الله بأن تجعلوا لغة القرآن لغتكم، ونسب رسول الله نسبكم، فيصبح جميع المؤمنين إخوة لكم، آنسين بكم، يتفاهمون معكم ويأمنون جانبكم، أنتم يا إخوتي الأتراك حفظتم حوزة الدين زماناً طويلاً، ونشرتم الإسلام في بلاد الروم، ولأسلافكم الصالحين تمسك بالقرآن وعمل بالسنة بها مكن الله لهم في الأرض، ولكن اشتغالهم بالجهاد وبالفتوحات لم يمكنهم من تعميم اللغة العربية وجعل التفاهم بها، وها أنتم والحمد لله شعرتم بهذا النقص، وبالفراغ الواسع بينكم وبين إخوتكم المؤمنين، فسارعوا إلى تعليم اللغة العربية يا إخوتي، أيد الله بكم دينه، وجدد الله بكم مجد المسلمين وأذل بكم أعداء الدين، واجتهدوا أن تجعلوها هي اللغة التي يجب أن يتكلم بها كل مسلم مع المسلم أو مع غيره ويجب أن يتكلم بها غير المسلم مع المسلم ومع غيره فى بلاد الإسلام، حتى تزول التفرقة التي أوجدها من ليسوا مسلمين في المسلمين، طمعاً في إضعاف سلطان المسلمين، وتمزيق المجتمع الإسلامي، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون. يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾الحجرات: ١٠ وهذا نسب الله الذي يحكم به، وحكمه الذي أخبرنا به، فكيف نترك العمل بكتاب الله تعالى ونعمل بهوانا فنقول: المصري أخو المصري، والشامي أخو الشامي، والتركي أخو التركي، والفارسي أخو الفارسي ؟.

إذا وفقنا الله وأعاننا بأن نجعل لغة القرآن هي اللغة التي يجب أن يكون التفاهم بها والتحرير بها، أكرمنا الله أولاً: بالائتلاف والاتحاد حتى نكون كالجسد الواحد. ثانياً: يحفظ الله مجتمعنا من تداخل الأجنبي بيننا بالفساد بوجوه:

---

(1) سورة البقرة آية 124.

أولاً: أنه لا يتكلم معنا إلا باللغة العربية، فلا يمكنه أن يدس دسيسة باللغة العربية، لأنه يخشى أن ينفضح أمام المسلمين.

ثانياً: أن غير المسلمين ممن يدعون أنهم عرب، لا يجدون لهم باب شر يدخلون منه على جماعة المسلمين ليفرقوهم.

ثالثاً: أني لو قلت: أنا تركي، والأخر قال: أنا عربي، ونحن نتكلم باللغة العربية، لا تحصل عداوة بيننا لأننا نمثل رجلين، كل رجل من قبيلة يفتخر بقبيلته، لا دخل للدين في الموضوع، كما يفاخر بنو هاشم بني أمية.

رابعاً: يحصل خير عظيم بتعليم اللغة العربية، وجعلها لغة التفاهم، لأن الشياطين الذين يدخلون بين المسلمين بالتفريق بدعوى أن الخلافة تركية أو عربية، لا يجدون سبيلاً، وكم من عدو للمسلمين يسهر الليل ليكيد لهم بسبب اللغة التركية والعربية، ولو أن إخوتنا الترك محوا هذا الشر لجددوا مجد الإسلام، وردوا له ما كان في عصر سلفنا الصالح.

هذا ما يحصل من الخير في الدنيا.. أما ما يحصل من النعيم المقيم يوم القيامة، فذلك بما ينكشف للعقل من أسرار القرآن، وما يتجلى للروح من أنواره، وما يطمئن به القلب من أدلته وحججه، حتى ينعقد القلب على توحيد الله تعالى والصدق في معاملته، والإخلاص لذاته الأحدية بما يفهمه من كتاب الله، وما يمد به من روحانية رسول الله عند قراءة كلامه ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾.

هذا وإن الإفرنج يتعلمون اللغة العربية يا إخوتي لغرض دنئ من أغراض الدنيا ليكيدوا لنا، وقد نالوا ما نالوه بتعليم اللغة العربية، والأخذ بعلم السلف الصالح في الاستعمار والأخلاق والمعاملات. فإذا كان الإفرنج يتعلمون اللغة العربية التي ليست لغة دينهم ولا لغة أوطانهم ولا لغة آبائهم، فكيف بنا ؟ وهي لغة كتاب الله، ولغة رسول الله، ولغة العلوم والفنون والآداب، ولغة أئمة الهدى من عجم وعرب، وقد فرض علينا تعليمها.

إنا والحمد لله على يقين أن إخوتنا الأتراك فقهاء في الدين، لا فرق بين التركي وصميم العربي في اليقين الحق، وربما كانوا على جانب من الآداب والاحترام للقرآن الشريف ينبئ عن كمال اليقين الحق، قد لا يبلغه إلا أهل المعرفة من غيرهم، فلم يبق سوى إيثار لغة القرآن ولغة رسول الله ﴿ﷺ﴾ على غيره من اللغات، حتى يبرهنوا أنهم يؤثرون الله ورسوله ولغة كتابه العزيز على أنفسهم وآبائهم ولغتهم، فينالون بذلك الرضا من الله تعالى والمعونة منه سبحانه، بالتمكين في الأرض، وقطع جراثيم الضُّلال الذين يسعون بين جماعة المسلمين بالإفساد بسبب اختلاف اللغات، وبذلك يسد باب الفتنة، فلا يحصل الخلاف لتركي وعربي، لأن أقباط مصر الذين يتكلمون باللغة العربية يحسبون بين المسلمين عرباً. وكذلك نصارى الشام الذين هم من أبناء الرومان، يدعون أنهم عرب لتكلمهم باللغة العربية، ويتعصبون للعرب بسبب ذلك للإفساد ولبث السم في الدسم، أعاذ الله جماعة المسلمين من التعصب لغير الحق، ومن التمسك بما يضر في الدنيا والآخرة، ولا ينفع في الدنيا ولا الآخرة، منحنا الله جميعاً التعصب للحق ولو على أنفسنا، حتى نكون مع الحق سبحانه وتعالى ويكون الحق معنا.

وقد تبين لنا أن اللغة العربية إنما نتعصب لها لا لأنها لغة العرب، بل لأنها لغة القرآن الشريف، ولغة رسول الله ﴿ﷺ﴾، وكل شيء من الله ورسوله هو أحب إلينا من أنفسنا ومن آبائنا، حباً في الله وفي رسوله ﴿ﷺ﴾، وإيثاراً لله ورسوله على أنفسنا وعلى من سواهما وما سواهما. وليس ذلك بالأمر الصعب، لأن تعليم اللغة العربية إذا كان عن رغبة في الله تعالى ورسوله ﴿ﷺ﴾؛ تيسر للكبير وسهل على الصغير. وقد لا تمضي شهور إلا والكل يتكلمون باللغة العربية مع الرغبة والحب، ولا أشك أن هذا الأمل إذا حققه الله تعالى أصبح المجتمع الإسلامي كما كان أولاً، لهم السيادة والسلطان والمنعة والقوة والتمكين في الأرض بالحق، كل الذي قررته حقائق بدهية، لا أشك أن كل من تكلم بغير اللغة العربية منا يشعر في نفسه بنقص، لا أقول في كمالياته، بل في ألزم ضرورياته التي بها صحة دينه وسعادته في الدنيا، وراحة قلبه، وذلك لأن المسلم الذي يتكلم بغير لغة القرآن الكريم يجهل دينه، وما به من الكمالات والأخلاق والمعاملات التي بها سادَ سلفنا الصالح، ويلزم على ذلك أن الصناعات والتجارات والفنون والحرف التي حث عليها القرآن، وأمرنا بالمسارعة إلى عملها، والعمل فيها للدين تهمل، أو تكون كتبها بغير لغة القرآن الشريف، ويختص بها أعداء القرآن، وهي ضرورة لحفظ ديننا وراحتنا في الدنيا، فيحصل

الضعف لمن تركوا التكلم بلغة القرآن في دينهم ودنياهم، وتنحصر العلوم القرآنية – التي تتجاوز الألف علم عدًّا – في غير أهل الإسلام.

كل ذلك يحصل لأن المسلمين يتفاهمون بغير لغة القرآن الكريم، والمسلمون مذ كانت لغتهم لغة القرآن الكريم، كانوا لا يهتمون إلا بما هو خير لجميع المسلمين، والله سبحانه وتعالى أسأل أن يوقظ قلوبنا جميعاً من نومة الغفلة ورقدة الجهالة، ويبصر العربي منا بتقصيره في التعصب للحق، وتعصبه للغته بدون ملاحظة أنها لغة القرآن، وينبه إخواننا بالنقص الناشئ بترك لغة القرآن، وتعصبهم للغتهم عناداً لأهل الجهالة من المفسدين الذين يثيرون شحناء المفاسد بيننا لإيقاع العداوة بين الأخ وأخيه في الله تعالى، بعد أن اتصل نسبنا بالله سبحانه وتعالى ورسوله ﴿ﷺ﴾، فصرنا إخواناً في الله كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾الحجر: ٤٧.

وقد تمكنوا من قلوب فريق من المسلمين حتى شغلوهم بعداوة بعضهم، وبعمل المكايد لبعضهم، فالتفتوا عن العمل الصالح من تقوية الثغور، وفتح دور الصناعات لإعداد العدة وجمع القلوب للعدو، ونشر العلوم القرآنية بين جماعات المسلمين، ونشر الدين بين العالم بالطرق التي سلكها سلفنا الصالح، حتى يسعد المسلمون بقوة السلطان في الدنيا والسعادة الأبدية في الآخرة. ولكن. ترك الجماعة الاقتداء بالسلف الصالح، وشغلهم أهل الفساد حتى حصل ما لا يخفى على مسلم.

أسأله سبحانه أن يجمع قلوب المسلمين بروح منه سبحانه، لتقوى الرغبة فيما عند الله تعالى، وتشتد محبة المسلم للمسلم، ويسارع كل مسلم في خير إخوته المسلمين، حتى يعود الإسلام كما بدئ سر قوله ﴿ﷺ﴾: « بُدِئَ الإسلامُ غريباً وسيعود كما بُدِئَ » ومعنى الحديث ظاهر لمن ألقى السمع وهو شهيد، وقد قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾الصف: ٩ وسنة الله تعالى في عباده لا تبديل لها، وسيجعل الله

للمسلمين التمكين في الأرض ويظهر دينه على الدين كله كما وعد سبحانه، ولا تبديل لكلمات الله، وصلى الله على سيدنا مُحَمَّد وآله وسلم آمين.

خـــاتمـــة

بالجد نيل المجد

بالجد نيل المجد

فتشـــــــبهوا إن لم تكونــــــوا مــــــثلهم   إن التشـــــــبه بالكــــــــرام فـــــــلاح

يتعين على من قاموا بهمة ليعيدوا مجدهم الذي شيده سلفهم الصالح، أن يعلموا – أولاً – ما كانوا عليه، لينهجوا على منهجهم القويم، حتى يفوزوا بمقصدهم العظيم، وإن تغير الحال والشأن في هذا الزمان، فإن أعمال القلوب التي تربطها بعلام الغيوب لم تتغير، فيلزمنا أن نوقظ القلوب بذكراهم، حتى تتحقق بالحق، فتقوم متوجهة إليه – سبحانه – ولديها تنشط الأبدان لعمل ما يقتضيه كل زمان. أوصى سيدنا أبو بكر عمر – رضي الله عنهما – عند موته فقال: (إن الحق ثقيل، وهو مع ثقله مريء، وإن الباطل خفيف، وهو مع خفته وبئ، وإن لله – عز وجل – حقاً بالنهار لا يقبله بالليل، وحقاً بالليل لا يقبله بالنهار، وإنك لو عدلت على الناس كلهم، وجرت على واحد منهم، لَمَال جورك بعدلك. فإن حفظت وصيتي لم يكن شيء أحب إليك من الموت – وهو مدرك – وإن ضيعت وصيتي لم يكن شيء أبغض إليك من الموت، ولن تعجزه) وقال عمر بن الخطاب ﵁: (حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوها قبل أن توزنوا، وتزينوا للعرض الأكبر على الله تعالى، يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية، وإنما خف الحساب في الآخرة على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا، وثقلت موازين قوم في الآخرة وزنوا أنفسهم في الدنيا، وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الحق أن يكون ثقيلاً) وأوصى رسول الله ﴿ﷺ﴾ فقال: « اتَّقِ اللهَ أينَمَا كُنتَ وأتبع السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمحُهَا وَ خَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ » [1]. وقال سيدنا علي: (أما بعد: فإن المرء يسره درك ما لم يكن ليفوته. ويسوؤه فوت ما لم يكن ليدركه، فما نالك من دنياك فلا تكثرن به فرحاً، وما فاتك منها فلا تتبعه لنفسك أسفاً، وليكن سرورك بما قدمت، وأسفك على ما خلفت، وشغلك لآخرتك، وهمك فيما بعد الموت) [2]. وقال كرم الله وجهه: « الهوى شريك العمى، ومن التوفيق الوقوف عند الحيرة، ونعم طارد الهم اليقين، وعاقبة الكذب الذم، وفي الصدق السلامة، رُبَّ بعيد أقرب من قريب، وغريب من لم يكن له حبيب، والصديق من صدق غيبه ولا يعدمك من حبيب سوء الظن، نعم الخلق التكرم، والحياء سبب إلى كل جميل، وأوثق

---

(1) رواه أحمد والترمذي وهو حسن والدارمي والحاكم في المستدرك والبيهقي في شعب الإيمان.

(2) رواه الترمذي 1987 وأحمد 5/ 153، 158، 169، 177، 228، 236 والدارمي 2/ 323 والحاكم في المستدرك 1/ 54 والطبراني في المعجم الصغير 1/ 192 وأبو نعيم في حلية الأولياء 4/ 378 وابن كثير في تفسيره 2/ 177، 2894 والزبيدي في إتحاف السادة المتقين5/ 512، 8/ 518، 576 والمتقي الهندي في كنز العمال 5629، 43296 والسيوطي في الدر المنثور 2/ 76.

العرى التقوى، وأوثق سبب أخذت به نفسك سبب بينك وبين الله عز وجل، إن مالك من دنياك ما أصلحت به مثواك، والرزق رزقان: رزق تطلبه، ورزق يطلبك، فإن لم تأته أتاك، وإن كنت جازعاً على ما أتلفت من يديك، فلا تجزعن على ما لم يصل إليك، واستدلل على ما لم يكن بما كان، فإن الأمور أشباه ».

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: « لكل شيء آفة، وآفة العلم النسيان، وآفة العبادة الكسل، وآفة التجارة الكذب، وآفة السخاء التبذير، وآفة الجمال الخيلاء، وآفة الدين الرياء، وآفة الإسلام الهوى » وقال ﴿ﷺ﴾: « آفة أُمَّتِي الدِّينَارُ وَالدِّرهَمُ ». وعن ابن عباس رضي الله عنهما: « لا تمار حليماً ولا سفيهاً. أما الحليم فيقليك، وأما السفيه فيؤذيك، وأخلف أخاك إذا غاب عنك بمثل ما تحب أن يخلفك به إذا غبت عنه، وأعفه مما تحب أن يعفيك منه، واعمل بعمل رجل يعلم أنه مكافأ بالإحسان، مأخوذ بالإساءة » وقال ﴿ﷺ﴾: « ثَلَاثٌ مَن كُنَّ فِيهِ أستُكمِلَ إِيمَانُهُ: لَا يَخافُ فِي الله لَومَةَ لَائِم وَلَا يُرَائِي بِشَيء مِن عَمَلِهِ وَإِذَا عُرِضَ عَلَيهِ أمَرانِ أحَدُهُمَا لِلدُّنيا وَالآخَرُ لِلآخِرَةِ آثَرَ الآخِرةَ عَلَى الدُّنيَا [1]وقال ﴿ﷺ﴾: «ثَلاث مُنجِياتٌ وثَلَاثٌ مُهلِكَاتٌ فَأَمَّا المنجِيَاتُ فَخَشيَةُ الله فِي السِّرِّ وَالعَلَانِيَة وَكَلِمَةُ العَدلِ فِي الرِّضَا وَالغَضَبِ وَالقَصدُ فِي الغِنَى والفَقرِ » [2].

بالرجوع إلى القوة التي فوق الأسباب يرجع المجد:

قال الله تعالى: ﴿ **أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخۡرَ بِٱلۡوَادِ وَفِرۡعَوۡنَ ذِي ٱلۡأَوۡتَادِ ٱلَّذِينَ طَغَوۡاْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ فَأَكۡثَرُواْ فِيهَا ٱلۡفَسَادَ فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ سَوۡطَ عَذَابٍ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ** ﴾الفجر: ٦ - ١٤. قال العربي:

---

(1) أورده الزبيدي في إتحاف السادة المتقين 6/ 264، 9/ 678، 10/ 107 والعراقي في المغنى عن حمل الأسفار.

(2) أورده الزبيدي في إتحاف السادة المتقين 8/ 164، 192، 337، 9/ 178، 678 والتبريزي في مشكاة المصابيح 5122 والعراقي في المغنى عن حمل الأسفار 3/ 235 والهيثمي في مجمع الزوائد 1/ 91.

ومـــا مـــن يـــد إلا يـــد الله فوقهـــا   ولا ظـــــالم إلا ويبلـــــى بظـــــالم

دفع الظلم عن النفس فطرة في كل ذي كبد رطبة، وقد جعل الله لكل نوع من الحيوانات قوة يدفع بها الظلم عن نفسه: فمنها ما جعل له مخالب ذات أظافر كالكلاليب، ومنها ما جعل له أنياباً، ومنها ما جعل له قروناً، ومنها ما جعل له نفثات سمية، ومنها ما جعل له درقة من الحجر يحتمي بها عند حصول الضرر، ومنها ما جعل له أجنحة يطير بها، أو سرعة تفر بها، لأنه أودع الظلم في النفوس الحية التي تنافس في تحصيل البقاء في ترف.

وكل تلك المظالم المتنوعة في الحيوانات بحسب قوتها، موجودة في الإنسان وزيادة عليها، فالإنسان له أنياب ومخالب، وأرجل يرفس بها، ورأس يضرب بها، وقد يبصق في وجه عدوه فيقتله إذا وصل بصاقه إلى فمه، أو إلى جرح في وجهه، أو عضو من أعضائه، ويزيد على ذلك قوة الكيد الإبليسي والانتقام بالتدبير، فالإنسان وحش وأضر، وشيطان وأشر، وخصوصاً إذا آتاه الله تعالى الزينة والأموال، وأمده باختراع الآلات الجهنمية فإنه يكون أضر على بني الإنسان من الشيطان، بل ومن شر الأمراض الوبائية الفاتكة، وليس للمظلومين المجردين من الزينة والأموال والآلات الجهنمية ما يدفع عنهم الظلم، ولا من يدفعه عنهم، فإذا بذلوا ما في وسعهم مما هو في طاقتهم ولم يظفروا بقصدهم من الحرية والمساواة وجب أن يرجعوا إلى القوة التي هي فوق الأسباب، وهي قوة الحكم العدل الذي لا يرضى من نفسه الظلم فكيف يرضاه من غيره .

ربما يظن من لا علم له بالدين أن الرجوع إلى القوة التي هي فوق الأسباب لا تتحقق إلا بترك العمل والأخذ بالأسباب، فأرد عليه أن أئمة المتوكلين على الله تعالى، الراجعين إلى مسبب الأسباب بالمعنى الأكمل، هم رسل الله (صلوات الله على نبينا وعليهم)، وهم في أشد مواطن اليأس كانوا أسرع الناس إلى الأخذ بالأسباب، وطمأنينة القلب باليقين الحق أن الله تعالى أقرب إليهم من أنفسهم، إلى أن تتلاشى الأسباب، فيغيثهم مسبب الأسباب ﷻ، ولديها يرون الله تعالى أقرب إليهم من أنفسهم.

ومن قرأ الآيات الواردة التي فصلت حوادثهم، يعلم أن الرجوع إلى القوة التي فوق الأسباب يجب أن يكون مصاحباً للعامل من بدايته إلى نهايته، والرجوع إلى القوة التي فوق الأسباب لا يكلفنا مجهوداً، ولا بذل نفائس، ولا ضياع نفوس، وإنما هو رعاية الآداب الدينية، والقيام بالوصايا النبوية، وحسن النية بالإخلاص في العمل، والطمع في نيل الجزاء الحسن من الله على العمل، بإسقاط النظر إلى الناس ذماً ومدحاً، وترك الطمع في نيل ما يفنى، بألا يجعل العمل لنفع خاص، أو لدفع شر خاص، إذا قام عاملاً للنفع العام، ودفع الشر الخاص عمل إفرادي، وكل فرد يقدم نفعه الخاص في وقت الخطر المحدق بالمجتمع أثبت تبرئته من المجتمع، وحرم هذا النفع، وعجل لنفسه الذل، وإن القوى التي بقيت لنا محصورة في ثلاثة أشياء:

الأول: حسن الظن بالله أن يتداركنا بخفي لطفه.

الثاني: الرجوع إلى العمل بالدين في جميع شئوننا، حتى نسعد بما سعد به سلفنا الصالح.

الثالث: أن يكون كل فرد منا بالنسبة للمجتمع ككل عضو بالنسبة للجسد الحي، والعضو في الجسد إنما يعمل لنفع الجسد العام، وكلما كان الجسد قوياً كان العضو قوياً، ومن جهل تلك الحقيقة أضر نفسه قبل أن يضر غيره.

بعض من لا ثقة لهم بالله تعالى ممن يعتقدون دوام الحال، يسارعون إلى نفعهم الخاص، ولو بضرر المجتمع، والحقيقة أن دوام الحال من المحال، وبرهان ذلك مشهود صباح مساء، فكم من قوي ضعف من حيث لا يعلم، ومن عزيز ذل من حيث لا يشعر، ومن ملك عظيم فَرَّ ناجياً بنفسه، ومن أمة أخذت زخرفها وازينت وتحققت أنها قادرة على كل شيء، فنزع ملكها، وسلب تاجها، وأصبحت أذل من الذل، فالواجب على كل فرد من أفراد المجتمع أن يتحقق أن عزه وسعادته ومجده لا يتحصل عليها إلا ما دام المجتمع عزيزاً قوياً، ذا قوة ومنعة، متمتعاً بحرية الآراء، والتجارات والزراعات، لا يرى فوقه إلا الله الحكم العدل، الآمر الناهي، ثم أولياء الأمور منا، المنفذين لأحكام الله تعالى.

وليتـق الله مـن زعمـوا أن الـدنيا هـي دار البقـاء، وأن القـوي مـن النـاس تـدوم قوتـه، وليرجعوا إلى صوابهم قبل نزول البلاء الفادح الذي يستحقه الظالمون بسبب ظلم عباد الله تعالى، والإفساد في الأرض، فإن الأقوياء الذين يساعدون من ينالون الخير به، وينتقمون ممن يريد الخير لأمته، لا يركن إليهم إلا من عرض نفسه للهلاك الأكبر.

وقد آن أن تجمع القلوب والألسنة على دفع الشر العام، وجلب الخير العام، ليكون لكل فرد منا قسط وافر من العز والمجد، وسبيل هذا الخير لا يجهله إنسان، والمعونة من الله تعالى.

بالاتحاد يعود المجد:

قال الله تعالى: ﴿ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا ﴾آل عمران: ١٠٣ . وقال رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾: « تَرَى المؤمِنِينَ فِي تَرَاحُمِهِمْ وَتَوادِّهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى » [1].

ومعنى هذا الحديث الشريف أن كل عضو من أعضاء الجسد متحد بجميع الأعضاء، فكل عضو به كمال تركيب الجسد، وله عمل عام وخاص، بحيث لو مرض لم يقم بوظيفته, فيختل تركيب جميع الجسد, وكذلك كل فرد من المجتمع الإسلامي هو كالعضو المتمم لتركيب المجتمع, له وظيفة خاصة ونفع عام, بحيث لو أهمل فيما هو خاص به لكان كالعضو الأشل في الجسم, ولو تساهل فيما هو واجب عليه للمجتمع لكان كالعضو المتألم الذي يضر جميع الجسد, فالفرد إذا لم يحصل ما لا بد له منه بالطرق المسنونة شرعاً أضر المجتمع بفساد أخلاقه بتحصيله ضرورياته بالباطل, فيفسد أخلاق كثيرين, وإن لم يقم بما يجب عليه للمجتمع فتح أبواب الشر على نفسه وغيره, بحبه لذاته وحسده لمن رفع الله قدرهم بقدر هممهم, ولا أضر على المجتمع ممن أحب نفسه وحسد من أقامهم الله عمالاً لخير المجتمع,لأنه يستعمل كثيراً من البسطاء مرضى القلوب فيما يضر, ولو كان فيه ضياع مجد المجتمع حسداً لأهل الهمم العلية الموفقين للخير.

الساعي في التفرقة شر الخلق:

أول من سعى في التفرقة من الخلق إبليس, حسد نعمة الله على آدم فسعى في تفرقة كلمة الملائكة, وماذا يفعل الحسود في قدرة الودود؟ يبوء بخيبة وخسران وطرد ولعنة, نرى العائلة ذات المجد تحفظ كيانها بين المنافسين في مجدها وحسادها وأعدائها ما داموا متحدين, حتى يفسد فرد منها فيسعى في تفرقتها, فيشتغل بعضهم ببعض, فتضيع منهم الفرص الثمينة التي بها دوام المجد ومزيد الفضل, ولا تلبث حتى تهبط من سماء الرفعة إلى أرض الذلة، ما لم يتداركها الله بفضله ببعد الساعي في التفرقة أو إبعاده عنها بالاتحاد.

---

(1) رواها البخاري في كتاب الأدب الباب 27 ومسلم في كتاب البر الحديث 66.

الاتحاد مطلقاً خير كله:

إن المجتمع لا يخلو من مرضى القلوب الذين يسارعون إلى الفتنة بفطرهم، ولا يستريحون إلا في الجو العكر، لأنهم جبلوا على حب الشر والانتقام والحسد.

قال رسول الله ﴿ﷺ﴾: « أَلَا أُخبِرُكُم بأبغَضِكُم إِلَيَّ وَأَبعِدكُم مِنِّي مَجَالِسَ يَومَ القِيَامَةِ الثَّرثَارُون ٱلْمُتَفَيْهِقُوْن الَّذِينَ لَا يَأْلَفُونَ وَلَا يُؤلَفُونَ » (1) ذلك لأن الأشرار يتداوون بفعل الشرور، قال الشاعر:

تداويت من ليلى بليلى من الجوى كما يتداوى شارب الخمر بالخمر

ولما كانت شرور الفرد تأتي من عدوه الشيطان ونفسه، والعائلة تكون شرورها من حسود يحب سلب نعمتها، فعدو الأمة أمة تسعى في سلب مجدها وملكها، وكما أن في الجسد أجزاء تستعين بالعدو على نيل غرضها من الشهوات والحظوظ والأهواء، فتنتفع بالشيطان والنفس وتعادي العقل والروح والفكر فكذلك في العائلة من ينتفع بعدوها لينال الرياسة والثروة، وفي الأمة رجال ينتفعون بعدوها فيسرهم إضعاف الأمة ليفوز بقصوده الفاسدة. والمتعين على كل مجتمع أن يحفظ أفراد المجتمع بالاتحاد، ولو كان بعضهم على ضلال، خشية من حصول التفرقة التي تمزق جسد المجتمع، ودليل ذلك ما حصل لبني إسرائيل من فتنة موسى السامري التي هي كالنار المحرقة لليابس والأخضر، لو تفرقت الأمة، ولكن الله تعالى تداركهم بلطفه، فاتحدوا على هذا الضلال وقام سيدنا هارون فبين للمؤمنين في خلوته مضار هذه الفتنة، وأمرهم ألا يتفرقوا حتى يرجع سيدنا موسى، فلزم المؤمنون السكينة وأهملوا السامري ومن معه محافظة على الاتحاد، وهذا معنى قول سيدنا هارون: ﴿**إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ**﴾طه: ٩٤. فرسول كريم على الله تعالى يعلم مقدار الكفر بالله، ولم يأمر المؤمنين بدفع هذا الشر خوفاً من تفرقة الأمة التي ربما استأصلتها قتلاً وفساداً، فصبر حتى رجع سيدنا موسى .

(1) رواه الترمذي في كتاب البر الباب70 وأحمد في الجزء الرابع صفحة 193، 194.

وهي الحكمة التي يجب علي كل مجتمع أن يلاحظها في وقت الفتنة محافظة على الاتحاد، فإن الباطل لا سلطان له، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا﴾الإسراء: ٨١. ومتى اعتنت الأمة بالساعي في التفرقة، وقامت لدفع شره فتحت أبواب الشرور، وفرقت كلمة الأمة، بل الواجب على المجتمع أن يهمل أمر هذا الحسود المفرق مع المحافظة على المجتمع من هذا المرض ببيان مضاره من غير عمل عدائي، فقد يتبصر المفتون فيعادي من فتنة، أو يتبين للمفسد سوء عمله فيرجع عنه، والحق أحق أن يتبع، وثمن الاتحاد غال، ومن لم يبذله لنيله حرمه، وليس كل غيور لنيل الاتحاد يمكنه تحصيله، فإن للأمور وجوهاً تتضح وطرقاً تسهل الوصول إليها، ورجالا أهل حكمة ومعرفة بالنفوس، يعالجون هذه الأمراض حتى يزول المرض، أو يخف الألم وما توفيقي إلا بالله.

المجتمع الإسلامي كالجسد الواحد:

معلوم أن المجتمع الإسلامي مثله رسول الله ﴿ﷺ﴾ بالجسد. ولما كان كل جماعة من المسلمين في الأرض يمثلون عضواً من أعضاء المجتمع الكلي الذي يشبه الجسد الواحد، ويمثلون مجتمعاً إسلامياً منفرداً يعمل لخيري الدنيا والآخرة، منفصلاً ومتصلاً، ولذلك مثل: رجل له أبناء أقام أحدهم في التجارة، والآخر في الصناعة، والثالث في الزراعة، والرابع في ضبط الأعمال، فمجتمعهم هو المجتمع، لأن كل واحد منهم بالنسبة للمجتمع ككل عضو للجسد، ولكن التاجر يعمل لنمو التجارة وانتشارها، فكأنه منفصل وفي الحقيقة هو متصل بإخوته، لأن الخير عام، فمصر أو الشام أو العراق وإن كانت مجتمعات منفصلة في ظاهر الأمر إلا أنها متصلة كل الاتصال بالمجتمع الإسلامي كاتصال اليد بالجسم، والرأس بالعنق, ولكل مجتمع من تلك المجتمعات حقوق واجبة عليها, وكل فرد منها مطالب كل المطالبة بالواجب المقدس عليه الذي هو طلب الخير للأمة, ودفع الشر عنها, والعمل لنيلها الاستقلال والحرية, بحيث لو خالف أحد منهم يعاقب يوم القيامة, وربما جهل بعض الأفراد فظن أن الخير الخاص به يمنعه عن المطالبة بهذا الحق المقدس، أو ربما سعى لنيل سعادة له وخير، ففرق بين المجتمع، وربما دعاه الحسد وطلب السيادة إلى مساعدة أعداء الأمة، وكل ذلك مفسدة عظمى، فإن هذا المغرور إذا نجح في قصده لا يلبث متمتعاً بالسعادة إلا زمناً يسيراً، ويذل بما يصيب الأمة من الذل، لأنه فرد منها، وإذا قدر الله

تعالى وفازت الأمة برغباتها عاش ذليلاً مهاناً هو ومن بعده من أبنائه حتى يعذب يوم القيامة. أقول: بالاتحاد يعود المجد ويقهر الضد، لأن الجسد لا يبلغ كمال صحته ومسراته إلا إذا اتحدت الأعضاء على العمل للجسد، فقامت العين واليد والأذن وغيرهم لخدمة الجسد، والاتحاد يكسب أهله خيرين: خير الشرف التاريخي الذي يكسبه المجد، وخير السيادة ونفوذ الكلمة وقوة العصبية، والتفرقة تهوي بصاحبها في ذلين: ذل احتقاره بين الأمة، وذل حرمانه من الثقة به، منحنا الله الاتحاد جميعاً.

إنما نسعد بما سعد به سلفنا الصالح:

إن الله تعالى بارك لنا في دينه الحق الذي جاء به الصادق الأمين ﴿ﷺ﴾ من عنده، فكنا قبل الإسلام شراً من الوحوش الكاسرة وأضل من البهائم الراتعة، في محيط صحارى قاحلة، وأودية ماحلة، يأكلن الغير ولا نأكل، ويملكنا ولا نملك، نهيم على وجوهنا في الفدافد للسلب والنهب وقتل الأبرياء، حتى آتانا رسول الله ﴿ﷺ﴾ بالهدى ففتح الله به آذاناً صماء، وأعيناً عمياء، وقلوباً غلفاً، حتى أذل الله لنا العالم أجمع ومحا بنا الظلم والتظالم، والباطل والضلال، وسرت أنوار الإسلام سربالشمس في رابعة النهار، فكان المسلم يلبيه ربه وتخدمه الملائكة وتزول به عروش الملوك الظالمة وتيجانهم الطاغية. دام لنا هذا المجد مادمنا عاملين بوصايا رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ مقتدين بأئمة الهدى، حتى تنافسنا الدنيا كما تنافسها من قبلنا فتفرقت القلوب، واختلفت الأهواء وتباينت المصالح، فسلط الله عليهم من لا قبل لهم به ممن كانوا يرهبوننا أشد من رهبتهم من الله تعالى ورسوله ﴿ﷺ﴾.

يا قوم: تيقظوا من نومة الغفلة ورقدة الجهالة إن الله مكن لنا في الأرض بالحق تمكيناً جعل تيجان الملوك تذل لنا، وسخر لنا ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه،حتى أطاعنا كل شيء، ومنحنا الله العلم الذي به نستخدم ما حولنا من الحقائق، وهذه كتب الفنون والصناعات، والعلوم حجة قائمة على ما تفضل الله به علينا، فنحن أول من اخترعنا المخترعات النافعة، وأول من أظهرنا خبايا الكائنات، وأول من رفعنا شأن الصناعات، وأول من نشرنا العدل والفضائل بين جميع الأمم، وأول من دعا الأمم إلى الحق المبين، بالرحمة والشفقة والحكمة والموعظة الحسنة، وأول من محا الشرك والجحود والظلم والتظالم من العالم أجمع، ودام لنا الرقي والسلطان والمجد، حتى

تســــــاهلنا في ديننــــــا، وعملنــــــا بغــــــير وصــــــايا نبينــــــا «ﷺ»، فكان الاستعباد والذل، والصغار والخزي، فتداركوا الأمر بالرجوع إلى الله وإلى العمل بسنة نبيه، فليس بعد العيان بيان.

يا قوم: إن من ترك السنة والكتاب أدخله الله العذاب، فكيف يرضى قوم بالعذاب في الدنيا بعد النعيم ؟ وبالاستعباد بعد الملك، وكلهم يعلمون أن عذاب الآخرة أشد وأبقى.

يا قوم: ليس بيننا وبين المجد الذي كان لسلفنا، والتمكين في الأرض الذي كان لآبائنا، إلا أن نقول: يحيا القرآن المجيد، يحيا رسول الله «ﷺ»، تحيا السنة المطهرة، يحيا منهج السلف الصالح، ونعمل على تجديد سنن نبينا «ﷺ»، والأمر يسير، والوهاب القوي قادر قريب ممن تقرب إليه، وليست هذه نظرية تحتاج إلى برهان أو أمر جديد نريد أن نجربه، فكل مسلم تحقق بما كان عليه سلفنا الصالح وبما نحن عليه الآن.

يا قوم: ديننا الإسلام، ووطننا الإسلام، ونسبنا الإسلام، وسعادتنا في الدنيا والآخرة بالإسلام، فهلموا بنا — يا قوم — نتدارك الأمر قبل فواته.

لا تيأسوا من روح الله:

لم يترك من الجهل شيئاً من خطر على قلبه اليأس من روح الله، وليس بإنسان من ورد على قلبه القنوط من رحمة الله، فإن ديننا أقامه الله تعالى بسيدنا ومولانا مُحَمَّد «ﷺ» منفرداً، وكل أهله وأقاربه أعداؤه، بل العالم أجمع، فلم تمض أعوام تعد على الأصابع إلا وقد أشرق نور الإسلام فعم الأكوان، فانمحت به ظلمات المجوسية، وظلم ملوك النصرانية، وأصبح تاج كسرى وقيصر وهرقل ومقوقس وغيرهم على الترب في شوارع المدينة المنورة، ذلاً للحق الذي محا ظلمات الظلم والتظالم بأحبابه وأنصاره.

إن الله سبحانه وتعالى بشرنا بأنه يظهر ديننا على الدين كله، وهو القاهر الفاعل لما يريد، وبشرنا بأنه سوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه، يجددون ما اندرس من معالم دينه، ويحيون ما مات من سنن نبيه «ﷺ»، وإنا لنطمع أن نكون منهم – إن شاء الله تعالى — وقد آن الأوان،

وبلغ الظلم عنان السماء، وجاس الإفرنج خلال الديار، وطعنوا في ديننا، وقد بشرنا رسول الله ﴿ﷺ﴾ بأنه لا تزال طائفة منا قائمة على الحق. فالواجب علينا الآن أن نترك ما حرم الله تعالى، من الربا والزنا والخمر والميسر والمسارعة في أعداء الله، وأن نظهر عداوتهم دينا — خصوصاً من أظهروا عداوة الله ورسوله والمسلمين — عملاً بقوله سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ﴾الممتحنة: ١.

ثم نبر ونقسط إلى من لم يقاتلونا، ولم يخرجونا من ديارنا، كما قال الله تعالى: ﴿لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ﴾الممتحنة: ٨. ويجب علينا معاداة غيرهم، والتباعد عن معاملاتهم كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَأَخۡرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخۡرَاجِكُمۡ﴾الممتحنة: ٩. يجب علينا أن نوالي من والى الله ورسوله، وأن نتحد قلباً وقالباً على المنفعة الإسلامية العامة، وأن نتجرد من العمل للمصلحة الخاصة بالنفس، وأن نعين من علمنا منه حب الله ورسوله، وبغض أعدائه, وتحققنا منه السعي للخير العام، وأن نطهر أنفسنا من الطمع في غير مطمع، ومن الحسد، باعتقاد جازم أن الموت قريب، وأن عداوة المسلم عداوة لله ولرسوله، وأن كل مسلم يسعى لخير نفسه وإخوته المسلمين، ثم نحافظ كل المحافظة على القيام بشعائر ديننا، ونترك ما نهانا الله عنه دفعة واحدة، مهما كان فيه من الخير العاجل لنا، كموالاة الأعداء، وتقليد خصومنا، وترك الواجب علينا خوفاً أو حياءً أو مداراة للعدو، فإن من ترك الحق حياء أو خوفاً أو مداراة للعدو فقد عظم غير الله تعالى، ومسلم عظَّم غير الله مرق من الدين كما يمرق السهم من الرمية.

يا قوم: للمداراة قدر مخصوص لا تتجاوزه، وللحياء حد محدود لا يخرج عنه، وللخوف صورة واحدة، وهي أن يخاف على نفسه الموت معتقداً أنه ينجو فيتحيز إلى فئة قوية يقوم معها مجاهداً لله، ومن خاف في غير هذه الصورة فترك الحق تركه الحق يوم القيامة، يوم لا ينفع مال ولا بنون، ومتى وفقنا الله تعالى لإحياء سنن رسول الله، والعمل بكتاب الله كان الله معنا، ولنا، وجدد بنا، ولنا، ما كان لسلفنا، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ

﴿لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ﴾ النور: ٥٥.

أيها المسلمون: إن نصرتم ربكم أعاد لكم مجدكم:

قال تعالى: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ محمد: ٧.

تنزه الله وتعالى عن أن يحتاج إلى الخلق في قهر عدوه أو في تقوية جانبه سبحانه، ولكنه سبحانه خلق الإنسان حراً مريداً، ركبه من العناصر المتضادة، وخلق نفوس بني الإنسان متفاوتة قصوداً وميولاً، إلا أنهم متحدون في ضرورياتهم وأغراضهم، متفاوتون في هممهم وآمالهم، ولما كانت نصرة العبد ربه سبحانه وتعالى تتحقق أولاً في الفرد بقهر نفسه على العمل الذي يرضي الله سبحانه وتعالى، وعلى ترك ما يكرهه الله تعالى فيكون في عمل ما لا يلائمه، وترك ما يلائمه طاعة لأمر الله تعالى، ناصراً الله تعالى على نفسه، فإذا نصر الله تعالى بقهر نفسه على محاب الله سبحانه ومراضيه، نصره الله تعالى على أعدائه من الشيطان والنفس والجوارح نصرة تجعله مالكاً لتلك القوى، كما قال سبحانه عن كليمه: ﴿رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي﴾ المائدة: ٢٥. ومتى نصر الله العبد على نفسه فملكها كان الله معه، فقام العبد غيرة لله تعالى، ناصراً الحق، محارباً للباطل، كارهاً أن يرى ما يكرهه الله تعالى في الوجود وهو قادر أن يزيله بقلبه أو بلسانه أو بيده، وهذا سبيل رسل الله – صلوات الله وسلامه عليهم – وأي مجتمع من المسلمين تفضل الله تعالى عليه بتلك الموهبة فأخلص في محاربة قواه أولاً حتى ملكها، وقام ماحياً للضلال والبدع، نصره الله وأيده، ولو قل، وكذلك كان رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم، قال الله تعالى: ﴿ أَفَمَنۡ أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقۡوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٍ خَيۡرٌ أَم مَّنۡ أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٖ فَٱنۡهَارَ بِهِۦ فِي نَارِ جَهَنَّمَۗ﴾ التوبة: ١٠٩.

طريق النصرة:

أسباب نصرة الله للعبد أن يطالب بحق ثابت، وأن يكون الطلب على ما تقضيه الأحكام الشرعية، وأن يخلص الطالب في طلبه لله تعالى، وأن يستمد الحول والقوة من الله تعالى،

مجرداً من الغضب لنفسه ومن حب الانتقام ممن خالفه في رأيه، وأن يأخذ بالمشورة قبل الإقدام حتى لا يغتر بنفسه في العمل اجتماعاً لقلوب المسلمين، ومتى توفرت تلك الأركان تحققت النصرة من الله تعالى، وفاز أهل الحق بحقهم وزيادة في الدنيا، وفازوا برضوان الله يوم القيامة، وسعد كل مطالب بالحق ولو مات قبل نيله.

ومعلوم أن المجتمع الإسلامي فقد صحته الروحانية التي كان بها يحب كل فرد للمجتمع ما يحبه لنفسه، فكان يحس الفرد في مراكش بما يتألم منه مسلموا الهند، كما تحس الرأس بألم خنصر الرجل، وكان يحس المجتمع في الهند بآلام المجتمع في شمال القوقاز كما تحس أصابع الرجلين بآلام الرأس، وجسم يتألم منه عضو ولا يحس بألمه ميت، وعضو يتألم الجسم ولا يحس بألمه مفقود الحياة.

كيف تعود تلك الحياة الروحانية ؟:

تعود تلك الحياة الروحانية بما بدئت به، بدئت تلك الحياة الروحانية برسول الله ﴿ﷺ﴾، فقد أظهره الله سبحانه لنا إنساناً، وأعلمنا سبحانه أنه معصوم، فأقواله وأعماله وأحواله ومعاملاته وما بينه لنا هو الحق الذي به افتتحت سعادتنا، ونلنا به الخير الحقيقي في الدنيا والآخرة، وبلغنا به المجد الذي لا يزول، هذا أمر يقيني ليس بيننا وبينه إلا أن نذكر ما كان لسلفنا من المجد والعزة والملك والتمكين في الأرض بالحق، حتى بلغ ذلك المجد مبلغاً كان فيه المجتمع الإنساني بين مسارع إلى الإسلام بعقل واعتقاد، أو أهل ذمة لسماحة الإسلام وحسن معاملة أهله، أو أرقاء يباعون في الأسواق لجهالتهم وعنادهم للحق، والكل في حرية تامة، وراحة عامة، لمحافظة المسلمين على وصايا رسول الله ﴿ﷺ﴾، ومسارعتهم إلى تنفيذ أحكام الله وحدوده.

ليس بين المجتمع الإسلامي وبين أن يعود له المجد الذي كان له شقة شاسعة، ولا مسافة واسعة، وإنما هي لمحة تحصل بها الصلحة، ونحن والحمد لله لم يغب عنا رسول الله ﴿ﷺ﴾، ولن يغيب ﴿ﷺ﴾ وهو فينا ونحن معه، أما كونه ﴿ﷺ﴾ فينا فالقرآن المجيد والسنة المطهرة — حفظهما الله لنا من التغيير والتبديل، وسهل جداً علينا العمل بهما، والغيرة لهما، وإقامة

حدودهما، وقهر المتساهلين على القيام بما أوجبه الله تعالى، ورغب فيه رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ – وأما كوننا معه ﴿ﷺ﴾ فأمر لا يكلفنا مشقة، وليس بيننا وبينه شقة، وقد بين الله تعالى صفات وأخلاق وأعمال من يتفضل عليهم بمعيته ﴿ﷺ﴾ التي بها نكون مع الله تعالى، ويكون الله معنا.

مجتمع معه الله يفوز بما تمناه:

أقول مجتمع والحقيقة أن فرداً معه الله، يذل الله له كل من سواه، ودليل ذلك: الهجرة: هاجر رسول الله ﴿ﷺ﴾ من بلده العزيز عليه وأقاربه بعد أن تحمل فادح الآلام ليس معه إلا الله تعالى، وكل أهل مكة مجمعون على قتله ﴿ﷺ﴾، وأنت تعلم مقدار أهل مكة في المجتمع العربي، وصحبه الصديق ﵁، والعرب جميعاً عقدوا قلوبهم على بغض الحق الذي جاء به، وأجمعوا على قتله، فنال في هجرته ﴿ﷺ﴾ ما نال من الشدائد، حتى وصل إلى المدينة المنورة، فأظهر الله دينه، ونصر رسوله ﴿ﷺ﴾ وأيده حتى التجأ إليه ﴿ﷺ﴾ أهل المنعة والقوة من أعدائه، والله ﷻ وعد أهل الإيمان برسوله ﴿ﷺ﴾ بأن يكون معهم ولهم، ماداموا معه وله، وإنما هي لمحة تحصل بها الصلحة. والله ولي المؤمنين، فاعتبروا يا أولي الأبصار.

الواجب الأول على المسلمين الآن:

الغيب خفي عن الخلق, ولكل وقت واجب، فانتهز فرصة ما يقتضيه الوقت لتنال الخير بحسن النية وصحة الوسائل. ولما كان الغيب مستوراً, والمقصد محبوباً, ونيله مشكوك فيه, وجب على القائم بالطلب أن يقف مع الشريعة بالأدب, حتى يفوز بالخيرين: خير مقصده, ورضوان الله تعالى, أو يرجع بالأجر من الله والإثابة, ومن أسرع للقيام بواجب الوقت مخالفاً الشريعة, غافلاً عن النية الحسنة, ورعاية جانب الله تعالى, غير معتمد عليه, يكون آثماً إن نال قصده, أو محروماً في الدنيا, معذباً في الآخرة إن حرمه.

والوقت الحاضر يقتضي أمرين عظيمين: أهمهما الرجوع إلى كتاب الله وسنه رسول الله, لنجدد ما تركناه, ونعيد العمل بما أهملنا فيه, وهو المقصد الأسمى الذي به الفوز بكل قصودنا,

والشأن الأهم الذي بإهمالنا فيه يضيع منا كل شيء, حتى حياتنا الإنسانية, فنعيش عيشة الحيوانات الداجنة التي تعمل لغيرها.

نتائج المحافظة على الشريعة:

يفوز المحافظون على الشريعة بالعزة في الدنيا من الحرية الحقيقية التي بها لا يرى المحافظ على الشريعة فوقه أحداً إلا الله تعالى، فيكون عبداً لواحدٍ أحدٍ ليس له شبيه ولا نظير من الخلق، فلا يذل إلا له سبحانه، وذله لله عين العز والمجد، ويفوز بطمأنينة القلب، لأنه خليفة عن ربه الذي له كل شيء، وأن كل ما سواه ومن سواه عبيد مربوبون لرب قادر، وعباد مقهورون بحكيم قاهر، فيقوم بحقوق الخلافة عن ربه عاملاً بالإخلاص بقدر استطاعته، يفوز المتمسك بالشريعة ببغض الكفر والضلال وأهلهما، ويعادي الرذائل وأهلها ويحب الإيمان والهدى والفضائل، ويعادي أهل البدع والأهواء، يفوز بأن يتشبه برسول الله ﴿ﷺ﴾، فيحصل العلوم النافعة، ويعمل الأعمال الصالحة، ويسارع إلى نفع الخلق بقدر طاقته، تشبهاً بالصديقين، ويتخلق بأخلاق الله تعالى من الحلم والعفو والإحسان والكرم لمن يستحق، ومن القهر والانتقام والشدة على من يستحق، حتى يكون كما خلقه الله في أحسن تقويم روحاً وجسماً يفوز المتمسك بالشريعة بمحبة الله له فيكون نوراً لخلقه يهدي إلى الحق، ويلقي الله له المحبة في الخلق فيكون إماماً للمتقين، هذا أول واجب أوجبه علينا الوقت الحاضر.

الواجب الثاني:

تابع للواجب الأول، وبه ينال, وهو المسارعة إلى رد ما فقدناه من ملك ووطن وعلوم وصناعات وفنون وحرية وإرادة, ودفع ما ابتلينا به من الاستعباد والاستبداد, وفساد الأخلاق والعوائد, وانتشار الفواحش ظاهراً وباطناً, والركون إلى أعداء الله تعالى, والمسارعة فيهم, وطلب الدنيا بأعمال الدين, وإهمال العمل بكتاب الله تعالى عملاً بما وصفه أهل الكفر, وفقد الغيرة لله ولرسوله وللفضائل, ونسيان القلوب يوم القيامة وهَوْله, ومحو الرحمة الإسلامية من بين المجتمع حتى من قلوب أفراد العائلات لبعضهم, وفقد الثقة من بعضنا لبعض ووضعها في أعداء الله ورسوله ﴿ﷺ﴾ وأعدائنا حتى تمكنوا منا لغفلتنا وغرورنا، هذان هما واجبا الوقت.

اليقظة للظفر بالمقصد الأعظم:

كل مسلم يعلم أن الله تعالى ما فرط في كتابه من شيء وأن رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ بين لنا كل شيء من أحوالنا الشخصية، للفرد وحده، وله مع والديه وإخوته وأرحامه، وله مع زوجته وأولاده وأتباعه، وله مع جيرانه ومع أهل قريته، وللفرد مع شركائه ونظرائه في عمله، من تجارة وزراعة وحرفة وصناعة وخدمة لكل فرد مع كل فرد، ومع المجتمع، وللأفراد مع بعضهم من المسلمين، ولهم مع أهل الذمة وللمجتمع مع أهل الحرب.

بين الله لنا كل شيء حتى علمنا كيف نأكل، وكيف نلبس، وكيف نلامس النساء، وكيف نمشي، ووضح لنا رسول الله ﴿ﷺ﴾ بعمله وقوله كل شيء من شئوننا مما لا تهتدي إليه العقول، ولا تصل إليه الأفكار، بالبحث والتجارب، رحمة من الله تعالى بنا، وعناية، فصرنا — والحمد لله — أعزاء بالله بعقائدنا، سعداء بعبادتنا لله تعالى، إخواناً متحابين بالتشبه برسول الله ﴿ﷺ﴾، أغنياء بمسارعتنا لما أمرنا الله به من العمل للخير العام، في أمان من شرور الخلق بالتمسك بحسن المعاملة الشرعية، أصحاء الأبدان بتحريم الخمور والفحشاء والفجور، يهابنا ملوك الأرض لتعظيمنا لله تعالى، ومحافظتنا على أحكامه. لَعَمْرُ الله هذا هو العز في الدنيا والمجد في الآخرة، به تخضع لنا تيجان ملوك الأرض، وبه نفوذ بجوار رسول الله يوم العرض.

لذا يجب علينا أن نتبصر في أمورنا، ونتوقى مكائد أعدائنا، ونعتصم بالله تعالى، عاملين بكتابه سبحانه، وبسنة نبيه ﴿ﷺ﴾، ونعتقد أن الحياة الدنيا دار فناء فنحتقر حظوظها وملاذها، متحدين على العمل بالقلب والقالب فيما ننال به سعادتنا في الدنيا ونعيمنا في الآخرة، محتقرين كل رياسة أو ثروة أو سعادة توقعنا في التفرقة وشتات الحال، فإن عدونا قوي يقظ. وننبه إخواننا بمصر واليمن والشام وغيرها من البلاد الشرقية أن يعتبروا بما فات، وأن يستقبلوا المستقبل بقلوب اتحدت على نصرة الحق، وأبدان اجتمعت لتجديد المجد لنفوز بالسعادتين، ونحظى بالحسنيين، ولنعتقد أن عزنا ومجدنا بالرجوع إلى أحكام ديننا، قال الله تعالى: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ آل عمران: ١٢٦. وقال سبحانه: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الروم: ٤٧. أسأل الله تعالى أن يمكن لنا في الأرض بالحق، وأن يحفظنا من الفتن المضلة، ويوفقنا للعمل بمحابه ومراضيه.

الفهرس

الموضوع **الصفحة**

مقدمه
الحنين إلى المجد
تذكر المجد
أسباب ضياع المجد
أضاع المجد اللذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً
اللذين يفرقون الدين ويحسبون أنهم من المسلمين
من خالف الكتاب والسنة فقد فارق الدين
التفرقة جعلتنا عبيداً لمن كانوا أرقاء لنا
التنافس في الخير صفة المؤمنين والتنازع صفة الوحوش والشياطين
الشدائد تدفع الأمة لليقظة
متى يكون اختلاف الآراء مفيداً ؟
التفرقة سلبت مجدنا ومكنت منا عدونا
اليقظة من نوم الغفلة
أسباب الغفلة
درجات اليقظة – المجد الذي نطلبه الآن
ما هو هذا الخير الذي أغتصب ؟
الشرق والغرب
بدأ الشرق يستفيق
يقظة الشرق
كلام المستعمرين وأعمالهم
الإصلاح والسلام بالإسلام
فضل الله على الشرق
الغرب مصدر الشر

الحالة الحاضرة – تذكرة المسلمين وأهل الشرق جميعاً

وما النصر إلا من عند الله

فلنعد إلى ما كان عليه سلفنا الصالح لننال السعادتين

الباب الأول
الوسيلة الأولى لنيل المجد الإسلامي
الرجوع إلى الله
الفصل الأول
إقامة الحدود

أقيموا الحدود قبل نار الوقود

ارجعوا إلى الله تنالوا الخير – نظرة عامة

بالقرآن سعدنا وبالعمل به سدنا

أعيدوا مجد الأولين بالعمل بالدين

التمسك بالدين شرف في الدنيا والآخرة

عذر لا يقبل

الفصل الثاني
نصرة الحق

انصر الحق ولو على نفسك / نصرة الهوى بطلان الرأي

الحق جلي لا يخفى

الحق فوق القوة

الحق يظهر وإن أخفته القوة

أنواع الحق

الحق أحق أن يتبع / بين الحق والباطل أربعة أصابع

العجلة من الشيطان

أطع الحق في الخلق, وخالف الخلق في الحق / حكمة خلق الإنسان

من طلب الحق وجده

عظِّم الحق ولو من عدوك

الحق والباطل / الناس أعداء ما يجهلون

إلى دول أوربا

إلى المسارعين فيهم / إلى جماعة المسلمين

الحق / الحق نجاة في الدنيا والآخرة

الباطل الذي يلتبس بالحق / نوع آخر من التباس الباطل بالحق

البعد عن الحق مهواة للخلق

الحق والقوة

لا يضيع حق وله مطالب / بالرجوع إلى الحق يعود المجد

الباب الثاني
الوسيلة الثانية لنيل المجد الإسلامي
الرجال العاملون

ما يزع السلطان أكثر مما يزع القرآن.

التاريخ يعيد بعضه بعضا. لا تطمع فيما في يد القوي إلا بالقوة.

كيف يقوى الإنسان ؟ – الظلم مرتعه وخيم.

القوة لا تقهر المسلم بمعناه.

الأمة برجالها العاملين.

الأمة في حاجة إلى اليقظة – بالزعماء المصلحين ترقى الأمم.

على الأمة أن تبحث عن القائد الحكيم المصلح.

خصال الزعماء المصلحين الذين يعيدون للأمة مجدها.

أخلاق الولاة في عهد السلف الصالح.

الباب الثالث
الوسيلة الثالثة لنيل المجد الإسلامي
عودة الخلافة الإسلامية

الخلافة حصن المسلمين.

الخليفة.

الواجب على الخليفة – الواجب على المسلمين.

المتعين الآن بعد إلغاء الخلافة.
الأولى بالمسلمين الآن.
الإمام.
الخلافة العظمى للائتلاف لا للاختلاف.
الإمامة.
الواجب للإمام الأعظم على كل فرد من أفراد المسلمين وعلى جماعتهم.
وجوب طاعة الأمير.
مفارقة الجماعة – الصبر على الإمام الظلوم.
رفض البيعة رفض للإيمان.
لا يكون الإمام إلا واحداً شرعاً.
وجوب طاعة الإمام مادام عاملاً بالكتاب والسنة.
دسائس الشيطان بتفرقة أهل الإيمان.
الإصرار شر الآراء.
الرجوع إلى الحق أحق .
أنواع الرجال ثلاثة.
نداء الفضيلة.
القول للعمل لا للجدل – من يتكلم ومن يسمع.
العاملون.
اليقظة بشير الخير – المجتمع الإسلامي.
طالب الحق لا ييأس من نيله – المسلمون والاستعمار.
الخلافة والمسلمون – الإسلام والسياسة.

الباب الرابع
الوسيلة الرابعة لنيل المجد الإسلامي
الفصل الأول العدل

من طلب الملك بالاعتساف أضاعه.
ليس الملك من ملك الأجسام.

العدل أساس الملك.

الملك العادل من ملك بالدين.

الملك لا يدوم مع الظلم.

القرآن دستور الحق الذي يملأ الأرض بالعدل.

أحذر الظلم ولو ملكت به الأرض.

أحذر من يكرهك طمعاً فيما في يدك – التائب من الذنب

الفصل الثاني الحرية

الحرية الحق وأثرها في النفوس – هل الحرية خاصة بالإنسان فقط ؟

آثار الحرية في النفوس البشرية.

بم تنال الحرية ؟

نتائجها.

الظلم مرتعه وخيم.

رحمة المسلمين بأهل ذمتهم.

الباب الخامس
الوسيلة الخامسة لنيل المجد الإسلامي
العلم والعمل

الإسلام والعلم.

الإسلام دين العلم والعمل.

الإسلام.

الإسلام بالعلم, والعلم بالإسلام.

كل المخترعات كانت بالإسلام وبعده.

حال المجتمع الإنساني قبل الإسلام.

ظهور الإسلام وأثرة على تقدم الإنسانية.

فضل الإسلام على أوربا وأمريكا.

على من نرجع باللائمة ؟

ما هي تلك العلوم التي تفاخر بها أوربا ؟

تركت أوربا دينها فتقدمت, ونحن تركنا ديننا فتأخرنا.

المراد بالعلوم العصرية وفضل المسلمين الأوائل في هذا المجال.

الفائدة الدينية من تعليم العلوم العصرية.

أوربا تفوقت على الجاهلية الأولى – أنواع المجتمعات.

بيان المجتمعات الجاهلية والضالة.

الجاهلية الثانية في الدول الغربية أخطر على الإنسانية من الجاهلية الأولى.

أوربا تقول لتخدع والإسلام يعمل لينفع.

الباب السادس
الوسيلة السادسة لنيل المجد الإسلامي
اللغة العربية

اللغة العربية

شرف اللغة العربية بالقرآن

دعوة إلى تعميم اللغة العربية

خاتمة
بالجد نيل المجد

بالجد نيل المجد

بالرجوع إلى القوة التي فوق الأسباب يرجع المجد

بالاتحاد يعود المجد

الساعي في التفرقة شر الخلق – الاتحاد مطلقاً خير كله

المجتمع الإسلامي كالجسد الواحد

إنما نسعد بما سعد به سلفنا الصالح

لا تيأسوا من روح الله

أيها المسلمون: إن نصرتم ربكم أعاد لكم مجدكم

طريق النصرة – كيف تعود تلك الحياة الروحانية ؟

مجتمع معه الله يفوز بما تمناه

الواجب على المسلمين الآن

نتائج المحافظة على الشريعة
الواجب الثاني: اليقظة للظفر بالمقصد الأعظم
الفهرس